


ديوان النظرات

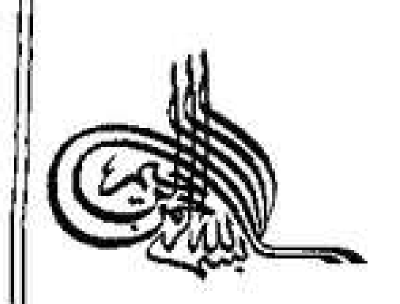
العنوان: ديوان النظرات

تأليف: مصطفى صادق الرافعي

بعناية: حسن السماحي سويدان

عدد الصفحات: 248

قياس الصفحة: 17×24 سم



الطبعة الأولى
مطبعة الجريدة بمصر
1326 - 1908

الطبعة الثانية
دار القادري بدمشق
1430 - 2009



الناشر: دار القادري للنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب 10344

هاتف: 00963 11 2453775

فاكس: 00963 11 5233769

ديوان النظرات

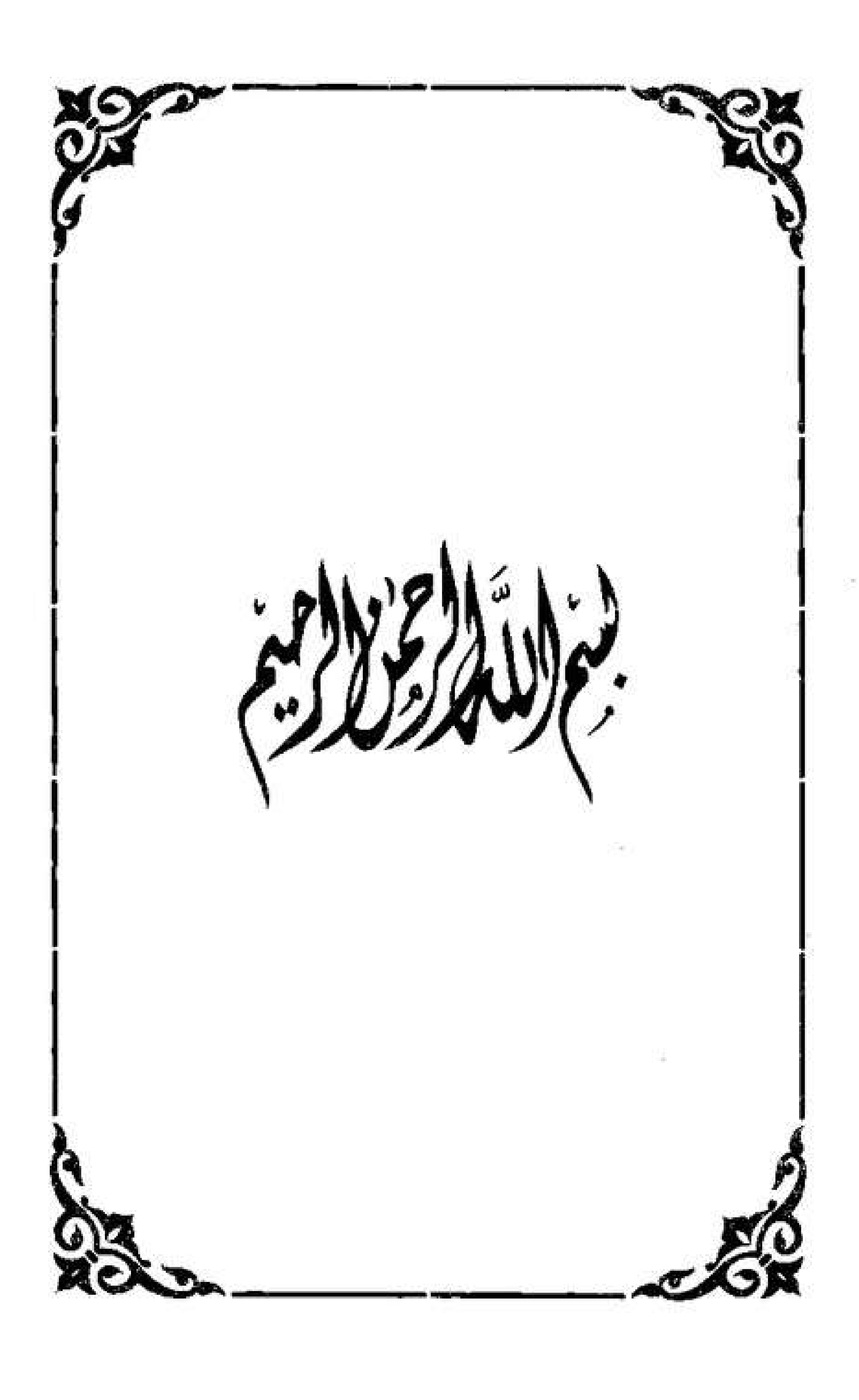
نظمه

مصطفى صادق الرافعي

بعناية

حسن السماحي سويدان

دار القادري


بسم الله الرحمن الرحيم

بسـم الله الرحمـن الرحيـم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فهذه الطبعة الثانية من «**ديوان النظرات**» لأديب العربية الأكبر وعالمها وفيلسوفها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى، أقدّمه للقرّاء الكرام بعد مرور ما يزيد على مئة عام على طبعته الأولى .

وقد بدأت التجربة الشعرية عند الرافعي منذ يفاعته، وقد أخرج دواوينه وهو في ميعة الشباب، فالرافعي بدأ شاعراً يزاحم كبار شعراء عصره، وقد استشرف له هؤلاء بمستقبل شعري باهر، لكنّ الرافعي وجد في النثر سعة تناسب أفكاره، فكانت شاعريته في نثره أبلغ منها في شعره ، بل أصبح الناثرَ الأكبر الذي لا ينازع في ذلك. وقد بلغ **بوحي قلمه** سماء ما طاولتها سماء، ولا بلغها الأدباء ولا الشعراء.

وقد قدّمت بين يدي هذا الديوان مقدّمات نقدية أربعة ، ثلاثة نشرها في دواوينه الثلاثة، والرابعة في هذا الديوان ، وهذه المقدّمات مرتبط بعضها ببعض من حيث الموضوع، فكان لا بدّ من نشرها مجتمعة ، ليقف عليها القارىء جملة ، فتكون الفائدة تامة، ففيها بسط الرافعي رأيه في تجديد الشعر مع الحفاظ على طبيعته.

وكنت قد نشرت المقدّمة الأولى والثانية في كتاب الرافعي (على السفود) وقد اعتمدت في نشر المقدّمة الأولى على طبعة الديوان الأولى ، أما المقدّمة الثانية

فاعتمدت نشرة من الديوان لا يعول عليها، وذلك لأنني لم أستطع الوقوف على الطبعة الأصلية التي نشرها الرافعي نفسُه ، وبعد مضي سنوات وقفت على هذه المقدَمات الأربع في نسخها الأصلية فعدت إلى ما نشرته مصححاً، وجمعته مع ما قد بقي، فكانت هذه المقدمة النقدية الجامعة للشعر أقدمها بين يدي هذا الديوان .

أما الديوان نفسه فهو تجربة شعرية فريدة تتميز عن دواوينه الثلاثة التي نشرها قبلاً ، ففيه جدّة في الشكل والمضمون وخاصة الأناشيد .

وألحقت بالديوان ثلاث ملاحق :

الأول: مختارات من شعر الرافعي ، مما لم ينشر في دواوينه، ليقارن القارئ بين شعره في باكورة شبابه ، وشعره في نضجه واكتمال شخصيته الأدبية .

والثاني: فصول ثلاثة في الإنشاء، وهي من كتابه (ملكة الإنشاء) ولم يكتب الرافعيُ غيرها، وهي محطة في حياته الأدبية بدأها، ثم عزف عنها .

الثالث: قالوا في الرافعي: وهي نصوص الأدباء الذين عاصروا الرافعي ونشرت في الصحف والمجلات في عصره .

وبعض القصائد لم يضع لها الأستاذ الرافعي عنوانات فاقتبست من شعره عنوانات لها ، وهذه العنوانات هي: «**رسالة الزهر**» ، «**شمس الضحى**» ، «**نور بغير لهب**» ، «**دعوى العلياء**» ، «**ما أحلى الزمان قديماً!**» .

كما صنعت للديوان فهارس فنية تسهّل مراجعة الديوان .

وفي الختام أرجو أن أكون قد يسرت للقارىء كتاباً من كتب الرافعي العزيزة ، وساهمت في إعادة نشر تراث الرافعي بصورة لائقة، ولا يسعني إلا أن أشكر كل من ساعد على أن يخرج هذا الكتاب إلى النور ، وأخصّ بالذكر الأستاذ إبراهيم صالح، والأستاذ بسام الجابي، والأستاذ أيمن ذو الغنى ، والأستاذ عبد البديع القادري حفظهم الله جميعاً ، وأخيراً أسأل الله تعالى أن ينفعني بما قدمت يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، والحمد لله رب العالمين .

دمشق غرة رمضان المبارك ١٤٢٩هـ **وكتبه**

حسن السماحي سويدان

مصطفى صادق الرافعي

١٢٩٧ ـ ١٣٥٦ هـ = ١٨٨٠ ـ ١٩٣٧م

١ ـ اسمه ونسبه

هو مصطفى صادق بن عبد الرازق بن سعيد بن عبد القادر بن عبد اللطيف بن عمر بن أبي بكر بن لطفي البيساري الرافعي[١] ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والأسرة الرافعية من أشهر الأسر العلمية في مصر، قدم جد الأسرة الشيخ عبد القادر من طرابلس الشام إلى مصر في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وعليه تخرّج كبار علماء مصر كالشيخ البحراوي الكبير، والشيخ محمد بخيت المطيعي، وقد نبغ من هذه الأسرة عدد كبير من العلماء والقضاة والأدباء والمؤرخين.

٢ ـ نشأته

في قرية بهتيم في محافظة القليوبية ولد فيلسوف القرآن وإمام البيان مصطفى صادق الرافعي في المحرم سنة (١٢٩٧) هـ الموافق لكانون الثاني = يناير (١٨٨٠)م.

كان والد الرافعي رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا بالقضاء، وآخر منصب شغله هو رئيس محكمة طنطا

(١) عبد القادر هذا هو أول من لقب بالرافعي من الأسرة المعروفة بهذا اللقب في مصر والشام، وكانت تعرف بالبيسارية (نسبة إلى بيسارة من قرى أسيوط بمصر)، انظر الأعلام ٤/٤٠.

الشرعية ، وكان رحمه الله تعالى ورعاً، صلباً في دينه ، شديداً في الحق ، توفي في طنطا، ودفن فيها.

وأمُّ الرافعي هي ابنة الشيخ الطوخي ، حلبية الأصل ، كان والدها تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام. وقد أقام في قرية بهتيم.

كان بيت القاضي عبد الرازق أزهرَ صغيراً بما يتردد إليه من جلة العلماء ، ولما يحويه من نفائس الكتب ، وقد عُني هذا الوالد بابنه مصطفى الذي أتم حفظ القرآن ولما يبلغ العاشرة من عمره ، إضافة لما تعلمه من ثقافة دينية ولغوية رفيعة.

انتسب الرافعي إلى مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم انتقل إلى مدرسة المنصورة الأميرية ، التي نال منها الشهادة الابتدائية ، وعمره آنذاك سبع عشرة سنة ، وبعد ذلك أصابه مرض لم يبارحه حتى ترك حبسة في صوته ، ووقراً في سمعه ، فترك التعليم الرسمي ، وعكف على التحصيل الشخصي في مكتبة أبيه ، ومكاتب طنطا المشهورة ، ينهل من كنوزها ، وما مضى إلا قليل حتى استوعبها ، وأحاط بما فيها ، وبذلك اجتمعت للرافعي العبقري أسباب المعرفة والاطلاع كلّها ، إلا أن ثقل سمعه ازداد حتى إذا بلغ الثلاثين من عمره أصبح أصم لا يسمع شيئاً.

وفي عام (١٨٩٩) عين الرافعي كاتباً في محكمة طلخا ، ثم انتقل إلى محكمة إيتاي البارود بالشرقية، ثم انتقل إلى محكمة طنطا الشرعية ، ثم إلى محكمة طنطا الأهلية ، وبقي في عمله هذا إلى أن لقي وجه ربه الكريم.

٣ ـ الرافعي والشعر

كَلِفَ الرافعي بالشعر من أول نشأته ، وتزود له زاده من الأدب القديم ، ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية ، وبدأ الرافعي يقول الشعر ولمّا يبلغ العشرين ، وفي عام (١٩٠٣) أصدر ديوانه الأول ، وقدم له بمقدمة بديعة قال عنها الشيخ إبراهيم اليازجي: «وقد صدّره (أي الديوان) الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة ، وتبسّط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ـ في كلام تضمّن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إن تدبرته وجدته الشعر بعينه».

وكان لديوان الرافعي الأثر الطيّب في نفوس شعراء مصر وعلمائها وأدبائها فكتبوا إليه يهنئونه بهذا النجاح .

قال الشاعر محمود سامي البارودي : [من البسيط]

لمصطفى صادقٍ في الشعر منزلةٌ أمسى يعاديه فيها من يصافيهِ

حاز الكمالَ فلم يحتجْ لمنقبةٍ فلستَ تنعتُه إلا بما فيهِ

وقال الشاعر عبد المحسن الكاظمي : [من المنسرح]

شعرك يا مصطفى لصافيةٌ بحوزه كل وردها عَذْبُ

إن تُنْتَخبْ من سواكَ قافيةٌ فذي قوافيكَ كلُّها نُخَبُ

وقال الشاعر حافظ إبراهيم : [من الخفيف]

إيه يا رافعيُّ أحسنتَ حتى لا أرى محسناً بجنبك شيئا

وقال الشاعر المهجري قيصر معلوف : [من الكامل]

ذهبَ الورى أنَّ الأوائلَ لم تدعْ لبني الزمانِ من المعاني مُبْتكرْ

حتى نشرتَ عليهمُ يا (مصطفى) آياتِكَ الغرَّا فكذَّبْتَ الخَبَرْ

ديوانُ شعرِكَ فيه كلُّ بديعةٍ لنظيرِ آيتها (ابنِ بُرْدٍ) ما نَظَرْ[1]

وكتب إليه الشيخ الإمام محمد عبده :

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي زاده الله أدباً .

لله ما أثمرَ أدبك ، ولله ما ضَمِنَ لك قلبُك ، لا أقارِضُكَ ثناءً بثناءٍ ، فليس ذلك شأنُ الآباءِ مع الأبناءِ ، ولكنّي أعدُّك من خُلّصِ الأولياء ، وأقدّم صفَّك على صفِّ الأقرباء ، وأسألُ الله أن يجعلَ للحق من لسانِك سيفاً يمحقُ الباطلَ ، وأن يُقيمَكَ في الأواخر مقام حسّان في الأوائل . والسلام .

٥/ شوال/ ١٣٢١ محمد عبده

---

(١) فات الشاعر أن بشار بن برد كان أكمه .

وكتب إليه زعيم مصر مصطفى كامل باشا يقول:

«سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعيُّ قال الناس:

هو الحكمة العالية مَصُوغَةٌ في أجملِ قالبٍ من البيان».

وفي عام (١٩٠٤) أصدر الرافعي الجزء الثاني من الديوان، وفي عام (١٩٠٦) أصدر الجزء الثالث، أما الجزء الرابع فلا يزال مخطوطاً إلى اليوم.

وفي عام (١٩٠٨) أصدر الجزء الأول من ديوان النظرات، وهو هذا الكتاب.

هذا وليس كل شعر الرافعي في دواوينه، فالجيد الذي لم ينشر أكثر مما نشر[١].

ولما تحوّل الرافعي من الشعر إلى النثر لم يهجر الشعر، بل ظلَّ ينظمه بين الفينة والأخرى، وينشر بعضه في المجلات السائرة.

٤ ـ الرافعي في بيته

في عام(١٩٠٤) تزوّج الرافعي من فتاة من أسرة البرقوقي، هي أخت الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي الأديب الكاتب المشهور صاحب مجلة (البيان)، وكان الرافعي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية، فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج، وأب كما ينبغي أن يكون الأب، يتصاغر لأولاده ويناغيهم ويدللهم، ويبادلهم حباً بحب، دون أن ينسى واجب التهذيب والرعاية والإرشاد، ناصحاً برفق، مؤدباً بشدة أحياناً.

٥ ـ الرافعي وتاريخ آداب العرب

نشرت الجامعة المصرية إعلاناً يدعو الأدباء إلى تأليف كتاب في تاريخ الأدب العربي، جعلت جائزته مئتي جنيه، وضربت أجلاً لتقديمه سنتين، وتعهدت بطبع الكتاب.

انقطع الرافعي لتأليف كتاب «تاريخ آداب العرب» من منتصف سنة (١٩٠٩)

---

(١) تجد بعض ما لم ينشر من شعر الرافعي في الملحق الأول من هذا الكتاب.

إلى آخر سنة (١٩١٠) وفي سنة (١٩١١) طبع الكتابَ على نفقته قبل أن يحل الأجل الذي عينته الجامعة.

قال الأستاذ أحمد لطفي السيد عن كتاب الرافعي «تاريخ آداب العرب»:

قد قرأنا هذا الجزء، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه، يدل على أن مؤلفه قد ملك موضوعه ملكاً تاماً، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل، وتعب ممل.

أما أسلوب الرافعي في كتابه فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العربِ المتأخرين، فكأني وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرّد في استعماله المساواة، وإلباس المعاني ألفاظاً سابغة مفصلة عليها، لا طويلةً تتعثر فيها، ولا قصيرةً عن مداها تؤدي بعض أجزائها».

وقالت عنه مجلة «المقتطف»: «**إنّه كتاب السنة**» ولم تقل مثل هذه الكلمة من قبل ولا من بعدُ لغيرِ هذا الكتاب، كل هذا والرافعيُّ يومئذٍ في **الثلاثين من عمره** المبارك.

في عام (١٩١٢) أصدر الجزء الثاني من «تاريخ آداب العرب» وموضوعه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وهو الذي طبع فيما بعد تحت هذا العنوان، وإثر ذلك كتب إليه سعد زغلول يقول:

حضرة المحترم الفاضل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

تحدى القرآنُ أهلَ البيانِ في عبارات قارعةٍ محرجةٍ، ولهجةٍ واخزةٍ مُرْغمةٍ، أن يأتوا بمثله، أو سورة منه، فما فعلوا، ولو قدروا ما تأخروا، لشدّةِ حرصهم على تكذيبه، ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم، واتسع له إمكانهم.

هذا العجزُ الوضيعُ بعد ذاك التحدي الصارخ هو أثرُ تلكَ القدرةِ الفائقةِ، وهذا السكوتُ الذليلُ عندَ ذلك الاستفزاز الشامخ هو أثرُ ذلك الكلامِ العزيزِ.

ولكنّ قوماً أنكروا هذه البداهة، وحاولوا سترها، فجاء كتابكم «إعجاز القرآن» مصدِّقاً لآياتها، مكذِّباً لإنكارِهم، وأيَّدَ بلاغةَ القرآن وإعجازَه بأدلةٍ مشتقة من أسرارِها. في بيانٍ يستمدُّ من روحها، بيانٍ كأنه تنزيلٌ من التنزيل، أو قبسٌ من نورِ الذكر الحكيم.

فلكم على الاجتهاد في وضعه ، والعناية بطبعه ، شكرُ المؤمنين ، وأجرُ العاملين ، والاحترام الفائق.

سعد زغلول

ومن ذلك اليوم انكشف للناس أن الرافعي أديب ليس له نظير في العربية ، وأنه كاتب من الطراز الأول بين كُتّابها ، وأنّه صاحب القلم الذي يكتب في إعجاز القرآن فيعجز ، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن للمؤمن.

لقد عَرف الرافعي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها ، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر ، وبها أجدر ، فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذه العربية حارساً وحامياً ، يدفع عنها أسباب الزيغ والفتنة والضلال ، وأن ينفخ في هذه اللغة روحاً من روحه ، فيردَّها إلى مكانتها ، ويردّ عنها كيد أعدائها ، فلا يجترىء عليها مجترىء ، ولا ينال منها نائل ، ولا يتندّر بها ساخر ، إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف دخيلته[1].

في عام (١٩١٢) وبعد رحلة إلى لبنان ألف كتابه (حديث القمر) يصف فيه عواطف الشباب ، وخواطر العشاق في أسلوب رمزي على ضرب من النثر الشعري.

٦ـ كتاب المساكين

وقعت الحرب العالمية الأولى ، وأرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فلم يكُ ضحاياها في مصر أقلّ عدداً من ضحاياها في ميادين الحروب ، لقد صودرت أقوات الشعب المصري ، وحُملت إلى المتحاربين ، وتُرِكَ الناسُ يتضورون جوعاً ، ويعانون منه أشدّ المعاناة.

كان الرافعي وهو الشاعر المرهف الحس ، الرقيق القلب ، القوي العاطفة ، يرى هذا فتنفعل به نفسه ، وتتحرك خواطره ، ويتفطر قلبه ، فأثرت فيه مناظر البائسين ، وأحوال المساكين ، فكان من كل ذلك «كتاب المساكين» الذي نشره

---

(١) انظر مقالة «جملة قرآنية» في كتابه «تحت راية القرآن» (٢٤) وقد نشرت مستقلة في دار القادري.

عام (١٩١٧) وقد قال عنه شيخ العروبة أحمد زكي باشا: «**ولقد جعلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته**».

وفي عام (١٩٢٣) أخرج «رسائل الأحزان»[1] وهي خواطر عن الحب في كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع.

وبعد ذلك أخرج كتاب «السحاب الأحمر» وهو كتاب يتحدث عن فلسفة البغض وطيش الحب.

وبعد ذلك أخرج كتاب «أوراق الورد» وفيه حنين العاشق المهجور، ومنية المتمني، وذكريات السالي، وفنُّ الأديب، وشعر الشاعر.

٧ ـ معركة القديم والجديد «تحت راية القرآن»

رأى الرافعي في دعوى التجديد ذريعةً للنيل من العربية في أرفع أساليبها، وسبيلاً إلى الطعن في القرآن الكريم وإعجازه، وباباً للزراية بالتراث منذ كان للعرب شعر وبيان[2]، ومن ذلك اليوم نشط يجاهد هذه الدعوى، ووقف قلمه لتفنيدها، وكشف دخيلتها وغاياتها الحقيقية، وما كان عمله ذلك إلا جهاداً تحت راية القرآن، فمن ثَمَّ كان الاسم الذي جمع به كل ما كتب عن المعركة بين القديم والجديد، والكتاب من خير ما أبدعت العربية في النقد، وأحسن مثال في مكافحة الرأي بالرأي، مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق، ويأتي هذا الكتاب بعد كتاب «وحي القلم» من حيث المكانة بين كتب الرافعي.

---

(١) يقول الرافعي: هو كتاب وضعناه في فلسفة الجمال والحب، ثم وضعنا له «السحاب الأحمر» تكملةً، فهما كالكتاب الواحد، انظر «تحت راية القرآن» (٢٤).

(٢) انظر مقال الأمير شكيب أرسلان «ما وراء الأكمة» في كتاب الرافعي «تحت راية القرآن» وفيه كشف الأمير الغطاء عمن يدعون التجديد، فإذا هو تجديف وهرطقة. وانظر في هذه البابة مقال الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله (من هؤلاء؟) في «جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر» ص (١١٩٠ ـ ١١٩٥).

٨ ـ الرافعي ومجلة الرسالة

كانَ عملُ الرافعيِّ في الرسالة نقلةً بعيدةً ، لأنَّ فكره وأسلوبه ارتقى إلى الذروة ، وزال عنه ما ادعاه بعض خصومه من الغموض في أسلوبه ، وبدأ ذلك في ربيع سنة (١٣٥٣ ـ ١٩٣٤) وظل يكتب للرسالة في كل أسبوع مقالة أو قصة ، وقد أجمع علماء العصر وأدباؤه على أنَّ مقالات الرافعي في «الرسالة» هي من أبدع ما كتب في العربية على مدى تاريخهاالطويل ، وقد جمع رحمه الله تعالىٰ معظم هذه المقالات في كتابه «**وحي القلم**» الكتاب الخالد ، الذي لا يمكن أن نوفّيه حقه بكلمة موجزة[١].

٩ ـ وفاته رحمه الله تعالى

في يوم الاثنين (١٠/٥/١٩٣٧) استيقظ الرافعي مع الفجر كعادته كل يوم ، فتوضأ وصلّى ، وجلس في مصلاه يسبّح ويدعو ، ويتلو قرآن الفجر ، وأحس بعد لحظة حرقة في معدته ، فتناول دواءً ، وعاد إلى مصلاّه ، ومضت ساعة ، ثم نهض ، فلمّا كان في البهو سقط على الأرض ، فهبَّ أهل الدار ، فوجدوه جسداً فارقه الروح إلى بارئه ، وحُمل جثمانه بعد الظهر ليوارى الثرى في مقبرة العائلة بين أبويه.

أمضى الرافعي في الوظيفة ثمانياً وثلاثين سنةً ، ومات ولم يتجاوز السابعة والخمسين من العمر.

لقد كان الرافعي صاحب دعوة إلى العربية والإسلام ، يدعو إليها ، فحقه على العربية وحق العربية على أدبائها ، وحق الإسلام على أهله ، أن نجدد دعوة الرافعي ونعلي ذكره ، وننشر رسالته ، ونُعْنَى بآثاره فإذا نحن وُفِّقنا إلى ذلك ، فقد وفّينا له بعض الوفاء[٢].

---

(١) انظر كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام عن «وحي القلم» في مقدمة كتاب «القصص من التاريخ» للرافعي ، وهي مجموعة القصص التاريخية في «وحي القلم» وقد جمعتُها وعلقت عليها ، وهي من منشورات دار ابن كثير ، وكذلك كلمة الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله عن «وحي القلم» في جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ص (٧٠٤ ـ ٧٠٧).

(٢) مختصراً من «حياة الرافعي» للعريان.

١٠ ـ مراثيه

وقد رثاه أمير البيان شكيب أرسلان بقصيدة هي من عيون شعره ، قال فيها :

رثائي لجاحظ العصر ونادرة الدهر السيد **مصطفى صادق الرافعي** أكرم الله مثواه :

[من الكامل]

إنّ الذي قد حطَّ جسمَكَ في الثرىٰ ... قَـدْ حَـطَّ فيـه العبقـريَّ الأكْبَـرا

«الجاحِظَ» الثاني الذي في شَخْصِهِ ... رُدَّ «ابـنُ بَحْـرٍ» للحيـاةِ مُكَـرَّرا[١]

كـان ابـنُ بحـرٍ واحـداً ، فَفَضَلْتَـهُ ... بـأوائِـلٍ كـانـوا جميعـاً أبْحُـرا

«الـرافعيـنَ» الأُلـىَ فَرَعُـوا العُلَـى ... وتَـدبّـروا فـي كُـلِّ فَـنٍّ عَبْقَـرَا[٢]

لا غَـرْوَ أنْ يـرقـى شَنَاخِيـبَ الـذُّرَى ... مَـنْ كـانَ مِـنْ ذاكَ النِّجَـارِ تَحَـدَّرَا[٣]

هـي عِـزَّةٌ أبقـى أبـو حفـصٍ لهـا ... مجداً يتيـهُ على السِّمـاكِ وَمَفْخَـرا[٤]

جمعـتْ إلـى أنسـابِهـا أحسـابَهـا ... وَغَـدَتْ تجـرُّ مِـنَ الأئمـةِ عَسْكَـرا

مَنْ مثلُ نـادرةِ الـزمـانِ «المصطفى» ... سلطـانُ مَـنْ وَشَّـى الطـروسَ وحَبَّـرَا

إلاّ تكـنْ قـدْ أنْجَبَـتْ إلا «أبـا ... سـام»كَفَـاهَـا أنْ تَسُـوْدَ وتَظْهَـرَا[٥]

قـد كـانَ فـي جيشِ البيـانِ مكـانُـه ... مـا كُـانَ يـومـاً تُبَّعـاً فـي حِمْيَـرا

مـا إنْ رأىٰ العَصْـرُ الحديـثُ نَظِيْـرَهُ ... فَحْـلاً يُبَـاري الأولـيـنَ ، وَلَـنْ يَـرَى

قُـلْ للمحـاوِلِ أنْ يـرى أنـدادَه: ... أقْصِرِ ، فَكُلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَى[٦]

مـلأ الـزمـانَ بـدائعـاً وروائعـاً ... بقـريحـةٍ تحكـي الغمـامَ المُمْطِـرَا

تلـكَ القـريحـةُ تُمْتَـرىٰ أخـلافُهـا ... أبداً ، وليسَ يَغِيْضُهـا ما يُمْتَرَىٰ[٧]

تـدعُ الخيـالَ لـدى العيـونِ مُجَسَّمـاً ... مهمـا تـوارَى شَخْصُـهُ وَتَنَكَّـرَا

وتـرى المعـانـيَ كـالشيـاهِ مُقَـادَةً ... بينـا تكـونُ مـن الجـآذِرِ أنْفَـرَا

---

(١) ابن بحر : هو الجاحظ .

(٢) فرع فلانٌ القومَ : أي علاهم بالشرف ، أو بالجمال .

(٣) الشناخيب : جمع شنخوب ، وهو أعلى الجبل ، كالشنخوبة ، والشنخب : الطويل والنجار : الأصل .

(٤) أبو حفص : كنية عمر بن الخطاب ، وإليه تنتسب أسرة الرافعي . والسِّماك : نجم .

(٥) أبو سامي : كنية الرافعي .

(٦) الفَرى : الحمار الوحشي ، والمثل يضرب لمن يفضّله الناسُ على أقرانه .

(٧) امترى الشيء : استخرجه . والأخلاف : حلمات الضروع .

شأوٌ يشقُّ على الجميع لَحَاقُهُ — مَنْ ذا يَشُقُّ له لَعَمْرِيَ عِثْيَرَا؟
هيهاتَ يَطْمَعُ طامعٌ في «المصطفى» — إنْ صالَ في يوم العِرَاكِ وهَدَرا
تَتَضَاءَلُ الأقرَانُ دونَ بِرَازِهِ — مِثْلَ السِّباعِ تَكِعُّ عَنْ أُسْدِ الشَّرَى[1]
كَثُرَ التفيهقُ في الجديدِ ونهجِهِ — كم مَنْ تَكلَّمَ بالجديدِ وما دَرَى
حَرِجَتْ صدورُهُمْ بأنْ يَجِدُوْا مِنَ الـ — ـقُرآنِ مَوْرِدَ أُمَّةٍ والمَصْدَرَا
فَتَقَصَّدُوا أنْ يُطْفِئُوا ذاكَ الضِّيَا — وَتَعَمَّدُوا أنْ يَفْصِمُوا تِلْكَ العُرَى
وَتَغَفَّلوا قَوْماً أَبَتْ أَحْلامُهُمْ — أنْ تستبينَ الرُّشْدَ أو تَتَدَبَّرا
فمحا بنورِ الحَقِّ آيةَ لَيْلِهِم — وَأَرَاهُمُ عَنْهُ النَّهَارَ المُبْصِرَا
وَرَمَاهُم بِكتائِبٍ مِنْ كُتْبِهِ — فَتَطَايروا كالحُمْرِ لاقَتْ قَسْوَرا
وَافَاهُمُ ببلاغةٍ مُضَرِيَّةٍ — ما كانَ مُعْجِزُها حَدِيثاً يُفْتَرَى
فَغَدَتْ سَفَاسِفُهُم لدى آياتِهِ — نارَ الحُبَاحِبِ ناوَحَتْ نارَ القِرَى[2]
مَنْ ذا يضارعُ في البيانِ عصابةً — قد أَوْضَحُوْا «نَهْجَ البلاغةِ» نَيِّرا
هم ذلك السلفُ الذين لِسَانُهُمْ — تَنْحَطُّ عنهُ جميعُ ألسنةِ الوَرَى
مَنْ ذا يطاولُ في البلاغةِ أحمداً — وصِحَابَه ، وأبا ترابٍ حَيْدَرَا[3]
المُغْرِبِيْنَ إذا أجالوا خاطِراً — عَنْهُ بأعذبَ ما يَكُوْنُ وَأَقْصَرَا
والمانعينَ المُسْكِرَاتِ ، وقولُهُمْ — ما دَارَ في الألبابِ إلاّ أسْكَرَا
تلكَ العصابةُ مَنْ يَحِدْ عنْ سُبْلِها — حقّاً يُقَالُ لمثلِهِ: أَطْرِقْ كَرَا[4]
زَعَمَ الأُلَى نَحَوُا الجديدَ بأنَّهُ — عَصْرٌ تحتَّمَ أنْ يخالِفَ أعْصُرَا
حَسِبوا التدنِّيَ في البيانِ تَقَدُّماً — رأوا الرَّكاكةَ بالثقافةِ أَجْدَرَا
عَمَدُوْا إلى التغييرِ حتّى يُحْدِثُوْا — حَدَثاً يبلغُهُمْ مُرَاداً مُضْمَرَا
واسْتَظْهَرُوا بِمَقَالَةٍ تَلْخِيصُها — أنّ القديمَ مَضَىٰ ، ووَلَّى مُدْبِرا

---

(١) تكعّ: تجبن وتضعف.
(٢) الحباحب: ذباب يطير بالليل ، له شعاع كالسراج ، أو ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة.
(٣) أبو تراب: كنية الإمام علي ، وحيدر لقب من ألقابه.
(٤) من أمثال العرب: أطرق كرا ، إنّ النعامة في القرى. والكرا. مرخّم الكروان ، وهو طائر لا ينام بالليل ، والمثل يضربُ للذي ليس عنده غناء ويتكلّم. فيقال له: اسكت وتوقَّ انتشار ما تلفظُ به ، كراهةَ ما يتعقبه.

قَدْ فاتَهُمْ أَنَّ الحلاوةَ سَرْمَدٌ … وَمَذَاقُ طعمِ الشُّهْدِ لَنْ يَتَغَيَّرا

كَمْ مِنْ قديمٍ لا يَزَالُ رُوَاؤه … متألِّقاً يحكي الصَّبَاحَ المُسْفِرَا

مَهْمَا تقادمَ جَوْهَرٌ في عِتْقِهِ … فهوالثمينُ ، وليسَ يَبْرَحُ جَوْهَرَا

مَنْ حادَ عَنْ حُبِّ الجمالِ تَعَنُّتاً … يتبدَّلُ الأدنى ، وَيَبْغي الأَحْقَرَا

لغةٌ قَلَوْا أسلوبَها ، وتَخَيَّروا … عنها كلاماً مِثْلَ أحلامَ الكَرَى

يرتدُّ وَارِدُهُ وما ذاقَ الرَّوَى … ويعودُ قارئه اللبيبُ وما قَرَا

أخنى «أبو الشامي» على غُلَوَائِهِمْ … وأذاقَهُم مُرَّ الكِفَاحِ المُمقِرَا[١]

وذَرَا دعاويَهم كما نَثَرَ الهَبَا … وأعادَ خُضْرَتَهُمْ هَشِيْماً أَغْبَرَا[٢]

زَحَفَتْ بلاغَتُه تَجُرُّ جُيُوْشَهَا … فانقادَ طَوْعاً مَنْ أَبَى واسْتَكْبَرا

قَدْ يَحْرِقُوْنَ عليهِ مِنْ حَسَدٍ ، وَمِنْ … بُغْضٍ ، ولكنْ يَحْرِقُوْنَ العَنْبَرَا

ما زالَ في الأدبِ النزيهِ مُبَرِّزاً … حتى إذا شَهِدَ السَّفَاهَةَ قَصَّرا

أعززْ «أبا الشامي» عليَّ بأنْ أَرَى … ذلكَ اليَرَاعَ الجاحِظِيَّ مُكَسَّرا

مِنْ أسرةِ القَصَبِ الضعيفِ ، وفعلُه … في الخَطْبِ يَهْزَأُ بالحَدِيْدِ مُعَصْفَرا

لكَ في البيانِ رئاسةٌ أزليةٌ … أبديةٌ ، لَيْسَتْ تباعُ وتُشْتَرَى

ما إنْ دعوتُكَ جاحظاً إلا وقد … رُزْتُ الرِّجَالَ مقدَّماً وَمُؤَخَّرا[٣]

ما قلتُ فيكَ سوى الذي أيقنْتُهُ … ما كنتُ مَنْ كَالَ الرِّجَالَ فأَخْسَرا

أحييتَ آدابَ اللسانِ ، ولم يزلْ … فيها مُؤَلَّفُكَ السِّرَاجَ الأَزْهَرَا[٤]

ورفعتَ للقرآنِ أرفعَ «رايةٍ» … فلذا غَدَوْتَ «الرافعيَّ» الأَشْهَرَا[٥]

أنشأتَ أمثالَ النَّسِيْمِ رقائقاً … كانتْ على الحُسَّادِ رِيْحاً صَرْصَرَا

ولَبِثْتَنا طُوْلَ الحياةِ لآلِئاً … واليومَ نَبْكِيْكَ العقيقَ الأحْمَرَا

أَلْبَسْتَنِي بثناكَ فضلاً ضافياً … فيه لَبِسْتُ الطَّيلَسَانَ مُجَرَّرَا

فأنا عليكَ إلى نزولي في الثَّرَى … أذكى الأنامِ أسىً ، وأبكى مَحْجَرا

---

(١) الممقر : الحامض المر.

(٢) الخفرة : اسم من المنعة والأمن.

(٣) زرت : جربت واختبرت.

(٤) إشارة إلى كتابه «تاريخ آداب العرب».

(٥) يشير إلى كتاب الرافعي «تحت راية القرآن».

سِـرْ نحـوَ رَبِّـكَ تـاركـاً فـي خَلْقِـهِ ذِكْـراً كمـا أَجَّجْـتَ مِسْكـاً أذْفَـرا[1]

واستـودعِ الـدارَ التـي فـارقتهـا لجـوارِ ربِّـكَ ضـاحِكـاً مُسْتَبْشِـرَا

فـلأنـتَ أجـدَرُ أَنْ تُهنَّـأَ بـالـذي مِـنْ أجلِـهِ نَبْكِـي عليـهِ تَحَسُّـرَا

فَتَمَـلَّ مِـنْ رِضـوانِ ربِّـكَ جَنَّـةً سَبَغَـتْ ، وَمِـنْ غُفْـرَانِـهِ لـك مِغْفِـرَا

أنـتَ الـدخيـلُ عليـه فـي ملكـوتِـهِ حـاشـا كـريـمُ ذِمـامِـهِ أَنْ يُخْفَـرا

لا تَبْعُـدَنَّ وأنـتَ وافِـدُ خُلْـدِهِ لا تَظْمـأنَّ وقـد وَرَدْتَ الكَـوْثَـرَا!

جنيف ١٤ ربيع الأول ١٣٥٦ هـ شكيب أرسلان

---

(١) المسك الأذفر: الجيد إلى الغاية.

الرافعي الشاعر

قال الأستاذ محمد سعيد العريان في كتابه (حياة الرافعي):

بدأ الرافعيُّ يقول الشعرَ ولمَّا يبلغ العشرين من عمره، ينشره في الصحف وفي مجلات السوريين، التي تصدر في مصر، وكانت المجلاّتُ الأدبية كلُّها إلى ذلكَ الوقت في أيديهم، فمجلة (الضياء) و(البيان)، و(الثريا)[1]، و(الزهراء)[2]، و(المقتطف)، و(سركيس)، و(الهلال)[3]، وغيرُها ـ كان يقومُ عليها كلُّها جماعةٌ من أدباء سورية: كالبستانيّ، واليازجي، وصرّوف، وجورجي زيدان، وسليم سركيس، وغيرهم؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الوصفي والتاريخ، أمّا أدبُ الإنشاءِ فكان قسمةً بينهم وبين أدباء مصر.

والآن أدعُ لصديقي الأديب المرحوم جورج إبراهيم حنا، أن يتحدّث عن الرافعيّ في أوّل عهدهِ بالشعر: قال:

«وبدأتْ صِلتي بالمرحوم الرافعي قريباً من سنة ١٩٠٠ م كنتُ يومئذٍ أقول الشعر، وكان اسمي معروفاً لقرّاء مجلة (الثريا)، ولم أكنْ أعرفُ الرافعيَّ أو أسمعُ بهِ؛ وكان لأخيه الوجيه سعيد الرافعي متجرٌ في شارع الخان بطنطا، يستوردُ إليه النُّقلَ والفواكه الجافة من الشام، وكنت زبونه، فذهبت يوماً أشتري شيئاً من فاكهة الشام ـ إذ كان له بها شهرةٌ ـ فلمّا صرتُ إليهِ، لقيتُ هناكَ فتىً نحيلاً في العشرين من عمره، يلبس جلباباً، جالساً إلى مكتبٍ في المتجرِ قريب من البابِ، فما رآني الفتى حتّى ناداني، فدعاني إلى الجلوس، ثم قال لي: أتعرِفُ أنّي شاعرٌ؟ قلتُ: لا، لستُ أعرفُ. قال: أنا مصطفى صادق

---

(١) لصاحبيها اللبنانيين إدوارد جدي ونقولا إلياس.

(٢) للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله.

(٣) «الضياء» للبستاني و«البيان لليازجي»، و«المقتطف» لصروف و«سركيس» لسليم سركيس و«الهلال» لزيدان.

الرافعي ، وهذه الكرّاساتُ كلُّها من شعري . وعرضَ عليَّ بضعةَ دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلاً ، ولكنّه شِعْرُ الحداثةِ ، فهو لا يُعْجِبُني ؛ سأختارُ أجوَده ، وأمزِّقُ الباقي ، وسأطبعُ ديواني بعد قليلٍ فتعرِفني . . !».

قال : «وعرفتُ الرافعيَّ من يومئذٍ ، وقويتْ بيننا الصلةُ حتّى صرتُ أدنى أصدقائه إليه : يقرأُ عليَّ شعرَه ، ويستمعُ إلى رأيي فيه ، ويستشيرني في أمره .

وقد كان أولُه كآخرِه ، فما لبثتُ حتّى أعجبتُ به ، وأحللتُهُ من نفسي أرفعَ محلٍّ من الحبِّ والتقدير» .

ظلَّ الرافعيُّ يقولُ الشِّعْرَ لِنفسِه ، أو ينشرُ منه في المجلّات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقاؤه يومئذٍ صفوةٌ من شباب السوريين في طنطا : منهم الأديب جورج إبراهيم ، والصيدليان : نسيم بارد ، وإلياس عجّان ، والطبيب تودري ؛ وكانوا يتخذون مجلسهم عادة في وقت الفراغ من صيدلية «كوكب الشرق» بطنطا .

فلمّا كانت سنة ١٩٠٣ م ـ وعمر الرافعي يومئذٍ ثلاثٌ وعشرون سنة ـ نشر حافظُ إبراهيم ديوانه ، وقدّم له بمقدمة بليغة كانت حديثَ الأدباء في حينها ، وطال حولَها الجدلُ ، حتّى نسبَها بعضُهم إلى المويلحيّ .

واستقبل الأدباءُ (ديوان حافظ) ومقدّمَة ديوانه استقبالاً رائعاً ، وعقدوا له أكاليلَ الثناء . والرافعيُّ غيورٌ شموسٌ ، فما هو إلا أن رأىٰ ما رأى حتى عقدَ العزمَ على إصدارِ ديوانه ، وما دام حافظٌ قد صدَّر ديوانه بهذه المقدمة ، التي أحدثت كُلَّ هذا الدويِّ ، فإنَّ على الرافعيِّ أن يحاولَ جهدَهُ ليبلُغَ بديوانه ما بلغَ حافظٌ ، وإنَّ عليه أن يحمِلَ الأدباء على أن ينسوا بمقدمتِهِ مقدمة ديوان حافظٍ !

وصدر الجزء الأوّل من (ديوان الرافعي) في الموعد الذي أراد[1] ، بُعَيدَ

---

(١) طبع في المطبعة العمومية بمصر عام ١٣٢١ = ١٩٠٣ م ، وكتب عليه : نظمه مصطفى صادق الرافعي ، وشرحهُ محمد كامل الرافعي ، وهذا الشرح المنسوب إلى أخيه محمد كامل هو من إنشاء الرافعي نفسه ، فقد نظم الرافعي ديوانه هذا ما بين عامي (١٣١٩ ـ ١٣٢٠ هـ) كلمة وكليمة ط الجابي ص (١٨٣) .

(ديوان حافظ) بقليلٍ ، وقدّم له بمقدّمةٍ بارعةٍ ، فصّل فيها معنى الشعر وفنونَه ومذاهبَه وأوّليتَه؛ وهي ، وإنْ كانتْ أوّلَ ما نعرفُ ممّا كتبَ الرافعيُّ ، تدلُّ بمعناها ومبناها على أنَّ ذلكَ الشابَّ النحيلَ الضاوي الجسد ، كان يعرفُ أينَ موضعه بين أدباء العربية في غدٍ.

وإذا كانت مقدّمةُ (ديوان حافظ) قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعضَ الأدباء على نسبتها إلى المويلحيّ ، فقد حملت هذه المقدمة الأديبَ الناقدَ الكبير الشيخ إبراهيم اليازجي على الشكِّ في أن يكون كاتبُها من ذلكَ العصر ، مما يخادع نفسَه في قدرة الرافعيِّ على كتابتها.

قال الأستاذ جورج إبراهيم:

«لمّا همَّ الرافعيُّ أن يكتبَ مقدمة ديوانه ، جاءَ إليَّ في جلبابه والحرُّ شديدٌ ، فحدّثني من حديثه ، ثم سألني أن أهيِّءَ له مكاناً رطباً يجلس فيه ليكتبَ المقدّمة ، فجلس في غُرفةٍ من الدّار ، ثم تخفّفَ من لباسه. . واقتعدَ البلاط بلا فرشٍ ، وبسطَ أوراقه على الأرض ، وتهيَّأ للكتابة؛ فحذّرته أن تنالَ منه رطوبةُ البلاط في مجلسِهِ الطويل. فقال: لا عليكَ يا جورج؛ إني لأُحبُّ أن أحسَّ الرطوبة من تحتي. . فينشطَ رأسي. . .

ثم استمرَّ في مجلسِهِ يكتبُ ، وليس معه ولا حواليه من وسائلِ العلمِ إلا قلمُه وأوراقه ، حتى فرغَ من المقدّمة في ساعاتٍ. . ».

قال: «فلمّا تمَّ طبعُ الديوانِ أهدى نسخةً منهُ فيما أهدىٰ إلى العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي ، والشيخُ اليازجيُّ يومئذٍ أديبُ العصرِ ، وأبلغُ منشىءٍ في العالم العربيِّ ، وكان الرافعيُّ حريصاً على أن يسمعَ رأيَ اليازجيِّ في شعره وأدبه. ومضى زمانٌ ، ولم يكتب اليازجيُّ ، على حين تناولتْ كلُّ الصحفِ والمجلاّتِ (ديوان الرافعي) ومقدّمته بالنقدِ أو التقريظِ ، واحتفلَ بهِ (المؤيّدُ) احتفالاً كبيراً فنشرَ مقدّمتَهُ في صدره ، و(المؤيّدُ) يومئذٍ جريدةُ العالمِ العربيِّ كلِّه».

قال: «واستعجبتُ أن يهملَ أستاذنا اليازجي هذا الديوانَ فلا يكتب عنه ، واغتمَّ الرافعيُّ لذلك غمّاً شديداً؛ إذ كان كلُّ ما يكتب الأدباء في النقد لا يُغني عن كلمةٍ يقولها اليازجيُّ؛ فذهبتُ أسأله ، فقال لي: أنتَ على ثقةٍ أنَّ هذه المقدّمة من إنشاء الرافعيِّ؟

قلتُ: هو كتبها بعيني ، فما أشكُّ في ذلك.

قال اليازجيُّ: وأنا ما أبطأتُ في الكتابةِ عن الديوان إلاّ من الشكِّ في قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة؛ فأنا منذُ أسبوعين أبحثُ عنها في مظانّها من كتب العربية. . .

قلت: يا سيدي ، إنّه ليس بشيخٍ ، إنّه فتًى لم يبلغ الثالثة والعشرين. . .».

وكتب اليازجيُّ بعد ذلكَ في عدد يونيو سنة ١٩٠٣ م من مجلة (الضياء) في تقريظِ الجزء الأوّل من (ديوان الرافعي) ما يأتي:

«وقد صدَّره الناظمُ بمقدّمةٍ في تعريفِ الشِّعْرِ ، ذهبَ فيها مذهباً عزيزاً في البلاغةِ ، وتبسَّطَ ما شاء في وصفِ الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، في كلامٍ تضمَّنَ من فنونِ المجازِ ، وضروبِ الخيالِ ما إذا تدبرته وجدته هو الشعرَ بعينه. . .».

ثم انتقد اليازجيُّ بعضَ ألفاظٍ في الديوان ، وعقّب عليها بقوله: «على أنَّ هذا لا ينزلُ من قَدْرِ الديوان، وإنْ كان يستحبُّ أن يخلوَ منه، لأنَّ المرآةَ النقيّةَ لا تسترُ أدنى غبار، ومن كَمُلَتْ محاسنُه ظهرَ في جنبها أقلُّ العيوبِ؛ وما انتقدنا هذه المواضعَ إلا ضنًّا بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائبُ ، ورجاءَ أن يتنبَّهَ إلى مثلها في المُنتَظرِ، فإنَّ الناظم أن تتعلق به هذه الثالثة والعشرين من سِنيه، ولا ريبَ أنَّ من أدركَ هذه المنزلةَ في مثلِ هذه السنِّ، **سيكونُ من الأفراد المجلِّين في هذا العصر، وممن سيُحَلُّون جيدَ البلاغةِ بقلائد النظم والنثر».**

بلغ الرافعيُّ بالجزء الأول من ديوانه مبلغَه الذي أراد ، واستطاع بغير عناءٍ كبيرٍ أن يلفتَ إليه أنظارَ أدباء عصره. ثم استمرّ على دأبه ، فأصدر في سنة ١٩٠٤ م الجزء الثاني من الديوان[١] ، وفي سنة ١٩٠٦ م أخرجَ الجزء الثالث[٢] ، وفي سنة ١٩٠٨ م الجزء الأول من (ديوان النظرات)[٣]؛ ومضى على سُنّته ، مَغْنِياً

---

(١) طبع بمطبعة الجامعة بالإسكندرية ١٣٢٢ هـ.

(٢) طبع بمطبعة الأخبار في الفجالة ١٣٢٤ هـ.

(٣) وهو هذا الكتاب ، وقد طبع لأول مرة في مطبعة الجريدة بمصر عام ١٣٢٧ هـ = ١٩٠٨ م.

بالشعر ، متصرّفاً في فنونه ، ذاهباً في مذاهبه ، لا يرى هدفاً إلا أن يبلغَ منزلةً من الشعرِ تخلِّدُ اسمَهُ بين شعراء العربية.

ومضىٰ الرافعي يسعى إلى غايته في الشعر ، وقد تزوَّدَ زادَهُ من الأدب القديم ، ووعىٰ ما وعى من تراث شعراء العربية ، وكان أمامه مثلانِ من شعراءِ عصره ، يمتدُّ إليهما طرفُه ، ويتعلّقُ بهما أمله : هما **(البارودي)** و**(حافظ)**.

أمّا **أولهما**: فكانت له زعامة الشعرِ ، على مِفْرقه تاجُه ، وفي يدِه صولجانُه ، قد قوي واستحصدَ ، واستوى على عرشه بعدَ جهادِ السنين ، ومكابدة الأيام.

وأما **الثاني**: فكان في الشباب والحداثة ، وكان جديداً في السوق ، قد فتنته الشهرةُ ، وفَتَنَتْ به مَنْ حوله؛ فأخذ الرافعي ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازنُ بين حالٍ وحالٍ ، ويقايسُ بين شعرٍ وشعرٍ؛ فقرَّ في نفسه أنّه هو وهو.. وأنّهما في منزلةٍ سواء ، وأنَّهُ مستطيعٌ أَنْ يبلغَ مبلغهُ ، ويصيرَ إلى مكانهِ إذا أرادَ؛ فسار على سُنَّتِهِ ، وجرى في ميدانهِ ، لا يكاد حافظ يقول: أنا.. حتى يقول الرافعيُّ: أنا وأنت.. وما فاته أنَّ حافظاً يغالِبُه بالشهرةِ السابقة ، ويطاولهُ بالجاه والأنصار ، ويفاخِرُه بمكانتهِ من الأستاذ الإمام [محمد عبده] وبمنزلته عند البارودي زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب.

فراح الرافعيُّ يستكمِلُ أسباب الكفاح ، ويستتمُّ النقصَ؛ فأكّدَ صلته بالبارودي ، وعقدَ آصرةً بينهُ وبين الأستاذ الإمام ، ومضى يتحدَّثُ في المجالس ، وينشُرُ في الصحف ، ويذيعُ اسمَهُ بين الناس ، وانتهزَ نُهزةً[1] فذهبَ يستطيلُ بأنّه (شاعرُ الحُسْنِ) وبأنَّ حافظاً لا يقولُ في الغزل والنسيب.. !

كانت المنافسةُ بينهُ وبين حافظ منافسةً مؤدّبةً كريمةً ، لم تعكِّرْ ما بينهما من صفو المودّات ، ولم تجنِ على صداقتهما القوية ، فظلَّ الرافعيُّ وحافظ صديقين حميمين ، منذ تعارفا سنة ١٩٠٠ م إلى أن قَضَىٰ حافظٌ رحمه الله في سنة ١٩٣٢ م.

في إبّان هذه المعركة الصامتة بين الرافعي وحافظ ، قَدِمَ إلى مصرَ شاعرٌ كبيرٌ لم يكن الرافعيُّ يعرفهُ ، أو يسمعُ بهِ ، أو قرأ شيئاً من شعرهِ ، ذلكَ هو شاعرُ

---

(١) النهزة: الفرصة.

العراقِ الكبيرِ المرحوم عبدُ المحسن الكاظمي[1]، ونشرتْ له الصحفُ غداةَ مقْدَمِه قصيدةً عينيةً من بحر الطويل ، قرأها الرافعيُّ فاستجادَها ، ورأىٰ فيها فناً ليس من فنِّ الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم، فملكتْ نفسَه، وبلغَتْ منه مبلغاً، وقرَّرَ لساعته أن يسعىٰ إلى التعرّف به، ليصلَ به حبلَه، ويقتبسَ من أدبه، وكان الرافعيُّ يومئذٍ كاتباً بمحكمة طلخا ، ففارق عملهُ بغيرِ إجازةٍ، وسعىٰ إلى لقاء الكاظميِّ في القاهرة ، وهو يُمنّي نفسَهُ بأن يكونَ بينهما من الودِّ ما يرفع من شأنِ الرافعي ، ويُجدي على أدبه . وكان في الكاظمي ـ رحمه الله ـ أنفةٌ وكبرياءٌ ، فأبىٰ على الرافعي أن يلقاه، وردَّه ردًّا غيرَ جميلٍ، إذ كان الرافعي يومئذٍ نكرةً في الأدباء، وكان الكاظميُّ ما كانَ في علمه وأدبه وشهرتِه وكبريائه، مع خَلَّته وفقرِه؛ واصطدمت كبرياء بكبرياءٍ ، وثار دمُ الرافعيُّ ، وغلى غليانهُ ، فذهب من فوره ، فأنشأ مقالةً (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع أن ينالَ بذمّه والزرايةِ عليه ، الغضّ من مكانته؛ وما كان الرافعيُّ مؤمناً بما كتب ، ولكنّه قصدَ أن يلفتَ الشاعرَ إليهِ بالإنذارِ والتخويفِ، بعدَما عَجَزَ أن يبلغَ إليهِ بالزلفىٰ والكرامة .

وفعلت هذه الكلمةُ فعلها في التقربِ بين الأديبين ، فاتَّصل الرافعي بالكاظميِّ وصفا ما بينهما ، وأخلصا في الوداد والحبّ ، حتّى لم يكن بينهما حجابٌ ، وحتى صار الرافعيُّ أصفىٰ أصفياءِ الكاظميِّ ، وصار الكاظمي أشعر الشعراء المعاصرين عند الرافعي ، ثم ارتفعت الصلةُ بينهما عمّا يكونُ بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقةَ النظراءِ ، حتّى إنّه لما همَّ الكاظميُّ أن يسافرَ إلى الأندلس في سنةِ ١٩٠٥ م كتب كتاباً إلى الرافعيِّ يقولُ فيه: « . . . ثق أني أسافرُ **مطمئناً وأنت بقيّتي في مصر**» .

❋ ❋ ❋

وتألّق نجمُ الرافعيِّ الشاعر ، وبرز اسمهُ بين عشرات الأسماء من شعراء عصره برّاقاً تلتمعُ أضواؤه،وترمي أشعتَها إلى بعيد، ولقيَ من حفاوةِ الأدباء ما لم

---

(١) عبد المحسن الكاظمي (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) أبو المكارم. شاعر فحل ، كان يلقب بشاعر العرب ، نشأ في الكاظمية فنسب إليها ، وكان آيةً في الارتجال ، نشر ديوانه منجماً ، ثم جمع في آخرَة ، وطبع في مجلد كبير.

يلقه إلاّ الأقلُّون من أدباء هذه الأمة ، فكتبَ إليهِ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يقول :

« . . **أسألُ الله أن يجعلَ للحقِّ من لسانِكَ سيفاً يمحقُ به الباطِلَ ، وأن يقيمَكَ في الأواخرِ مقَامَ حسّانَ في الأوائل** » .

وكتب المرحوم الزعيم **مصطفىٰ كامل باشا** يقول :

« . . . **وسيأتي يومٌ إذا ذُكِرَ فيه الرافعيُّ قال الناسُ : هو الحكمةُ العاليةُ مصوغةً في أجملِ قالبٍ من البيان** » .

وكتب حافظ ، وقال البارودي ، ونظم الكاظمي ، وتحدّثَ الأدباء والشعراء ما تحدّثوا عن الرافعي الشاعر .

ليس كل شعر الرافعي في دواوينهِ ، وليس كل ما في دواوينه يدلُّ على فنه وشاعريته ؛ فالجيّدُ الذي لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشر ؛ وقد كان في نية الرافعيّ لو أمهلته المنيةُ أن يتبرعَ لشعراء اليوم بأكثر ما في دواوينه ، ثم يُخرجُ منها ومما لم ينشر ديواناً واحداً مهذَّباً مصقولاً ، ليقدّمه هدية منتقاة إلى الأدباء والمتأدبين ؛ ولكنّ الموتَ غاله ، فبطل أملُه ، وبقي عملُه تراثاً باقياً لمن يشاء أن يسدي يداً إلى العربية يتُمُّ بها صنيعَ الرافعيّ[1] .

❊ ❊ ❊

(١) حياة الرافعي ٤٦ ـ ٥١ بتصرف يسير .



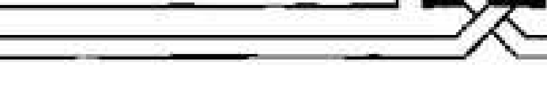
مقدمات في فلسفة الشعر وحقيقته

المقدمة الأولى : في معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته .

المقدمة الثانية : في سرقة الشعر ، وتوارد الخواطر .

المقدمة الثالثة : نوع من نقد الشعر .

المقدمة الرابعة : مقدمة في حقيقة الشعر .





المقدمة الأولى

في معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوّليته

أوّلُ الشّعرِ اجتماعُ أسبابِه ، وإنّما يُرْجَعُ في ذلكَ إلى طَبْعٍ صَقلتْهُ الحكمةُ ، وفكرٍ جلا صفحَتَهُ البيانُ ، فما الشّعرُ إلاّ لسانُ القَلْبِ إذا خاطَبَ القلبَ ، وسفيرُ النّفْسِ إذا ناجتِ النّفْسَ ، ولا خيرَ في لسانٍ غيرُ مبينٍ ، ولا في سفيرٍ غيرُ حكيمٍ .

ولو كانَ طيراً يتغرّدُ لكانَ الطبعُ لسانَهُ ، والرأسُ عشّهُ ، والقلبُ روضتَهُ ، ولكانَ غناؤهُ ما تسمعُهُ من أفواهِ المُجيدينَ مِنَ الشّعراءِ ، وحسبُكَ بكلامٍ تتصرفُ إليهِ كُلُّ جارحةٍ ، وتُضَمُّ عليهِ كلُّ جانحةٍ ، ويَجْني مِنْ كلِّ شيءٍ حتّى لتحسَبَ الشعراءَ مِنَ النّحلِ ، تأكلُ مِنْ كلِّ الثمراتِ فـ ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل : ٦٩] .

كأنّما هو بقيةٌ من منطقِ الإنسانِ ، اختبأتْ في زاويةٍ مِنَ النفسِ ، فما زالتْ بها الحواسُ حتّى وزنتْها على ضرباتِ القلبِ ، وأخرجتْها بعدَ ذلكَ ألحاناً بغيرِ إيقاعٍ ، ألا تراها ساعةَ النّظْمِ كيفَ تتفرّغُ كلُّها ، ثم تتعاونُ ، كأنّما تبحثُ بنورِ العقلِ عن شيءٍ غابَ عنها في سويداءِ الفؤادِ وظُلُماتِه ، لذلك كانَ أحسنُ الشّعرِ ما تتغنّى بِهِ قبلَ عملِه ، وهي طريقةٌ تفنّنَ فيها الشعراءُ ، حتى كانَ الحطيئةُ[1] يَعْوِي في أثَرِ القوافي عُواءَ الفصيلِ[2] في أثَرِ أُمّه .

وترى المُجيدَ من أهلِ الغِناءِ إذا رَفَعَ عقيرتَهُ[3] يتغنّى ، ذهبَ في التحرُّكِ مذاهبَ ، حتّى كأنّما ينتزعُ كُلَّ نغمةٍ من موضعٍ في نفسِه ، فيتألّفُ من ذلك صَوْتٌ إذا أجالَ حلقَهُ فيه ، وقعتْ كلُّ قطعةٍ منه في مِثْلِ موضعِها من كلِّ مَنْ يسمعُ ، فلا يلبثُ أنْ يستفزّهُ طربُهُ ، كأنّما انجذبَ قلبُهُ ، وتصبو نفسُهُ ، كأنّما أخِذَ حِسُّهُ ،

---

(١) هو جرول بن أوس بن مالك العبسي ، أبو مُليكة ، شاعر هجّاء أدرك الجاهلية والاسلام (ت ٤٥ هـ).

(٢) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه والجمع فُصلان وفِصَال .

(٣) قوله (عقيرته) أي صوته ، والعقيرة في اللغة هي الرّجل ، وأصل الكلمة : أن رَجلاً قُطعت رِجله ، فرفعها ، وصرخ بأعلى صوته ، فقالوا : رفع عقيرته ، وشاع هذا الاستعمال حتى أُطلِقَتْ العقيرة على الصوت . (ر) .

لا فرقَ في ذلكَ بين أعجميٍّ وعربيٍّ ، ومن أجلِ هذا ترى أحسنَ الأصواتِ يغلِبُ على كلِّ طبعٍ ، وإنّما الشاعرُ والمغنّي في جَذْبِ القلوبِ سواءٌ ، وفي سِحْرِ النفوسِ أكْفاءٌ ، إلا أنَّ هذا يوحي إلى القلبِ ، وذاكَ ينطِقُ عنه ، أحدُهما يفيضُ عليهِ ، والثاني يأخذُ منهُ. والويلُ لكليهما : إذا لمْ يُطْرِبْ هذا ، ولم يُعْجِبْ ذاكَ .

* * *

والشعرُ موجودٌ في كلِّ نفسٍ من ذكرٍ وأنثى ، فإنكَ لَتَسْمَعُ الفتاةَ في خِدْرِها ، والمرأةَ في كَسْرِ بيتِها ، والرَّجُلَ وقد جَلَسَ في قومِه ، والصبيَّ بينَ إخوتِهِ ، يقصُّوْنَ عليكَ أضغاثَ أحلامٍ ، فتجدُ في أثناءِ كلامِهم مِنْ عَبَقِ الشعرِ ما لو نسمتَهُ لفغَمَكَ[1] ، وحسبُكَ أنْ تُكْبِرَ وسادَكَ ، تتحدَّثُ إليهم ، فتراه طائراً بين أمثالهم ، وفي فلتاتِ ألسنتِهم ، وهو كأنّما قَدْ ضلَّ أعشاشَه .

ولقد نبغَ فيه من نساءِ هذه الأمة شموسٌ سطعنَ في سماءِ البيانِ ، وطلعنَ في أفقِ البلاغةِ ، ولا يزالُ الناسُ إلى اليومِ ، يَرْوُوْنَ للخنساءِ[2] وجَنوبَ[3] وعُلَيّةَ[4] وعنانَ[5] ونزهون[6] وولّادةَ[7] وغيرهنَّ ، وبحسبكَ قولُ النواسيِّ[8] : ما قلتُ الشعرَ حتّى رويتُ لستّينَ امرأةً ، منهنَّ الخنساء وليلى[9] .

ولو كانَ الشعرُ هذه الألفاظَ الموزونةَ المقفّاةَ لَعددناهُ ضَرْباً من قواعدِ الإعرابِ ، لا يعرفها إلاّ مَنْ تعلّمها ، ولكنّه يتنزّلُ من النَّفسِ منزلةَ الكلامِ لكلِّ إنسانٍ ينطِقُ به ، ولا يقيمُهُ كلُّ إنسانٍ .

---

(١) فغمه الطيب : سدَّ خياشيمه . (ر) .

(٢) تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية ، أشهر شواعر العرب (ت ٢٤ هـ) .

(٣) جنوب بنت عجلان الهذلية .

(٤) علية بنت المهدي ، من بني العباس ، أخت هارون الرشيد ، أديبة شاعرة تحسن صناعة الغناء (ت ٢١٠ هـ) .

(٥) عنان الناطفية ، شاعرة مستهترة بغدادية ، من أذكى النساء وأشعرهن (ت ٢٢٦ هـ) .

(٦) نزهون بنت القلاعي الغرناطية ، شاعرة أديبة أندلسية (ت ٥٥٠ هـ) .

(٧) ولادة بنت المستكفي بالله الأموية شاعرة أندلسية من بيت الخلافة (ت ٤٨٤ هـ) .

(٨) أبو نواس الحسن بن هانئ الحكمي ، شاعر العراق في عصره (ت ١٩٨ هـ) .

(٩) ليلى بنت عبد الله بن الرحال الأخيلية ، من بني عامر بن صعصعة ، شاعرة ، فصيحة ، ذكية ، جميلة (ت ٨٠ هـ) .

وأمّا ما يعرِضُ له بعدَ ذلكَ من الوزنِ والتقفية فكما يعرِضُ للكلامِ من استقامةِ التركيبِ والإعرابِ ، وإنَّكَ إنّما تمدَحُ الكلامَ بإعرابِهِ ، ولا تمدحُ الإعرابَ بالكلامِ.

ولم أقرأ أجمعَ فيه من قولِ حكيمِ العصرِ ، وإمامِ الإفتاءِ في مصرَ[1] : «لو سألوا الحقيقةَ أن تختارَ مكاناً تُشْرِفُ منه على الكونِ لما اختارتْ غيرَ بيتٍ من الشِّعْرِ» ، ولا فيما قالوه في الشعراءِ أجمعَ من قولِ كعب الأحبار[2] : «الشعراءُ أناجيلُهم في صدورِهم ، تنطِقُ بالحكمةِ».

ولم يكنْ لأوائلِ العربِ من الشِّعراءِ إلاّ الأبياتُ يقولُها الرجلُ في الحاجةِ تعرِضُ له ، كقولِ دويدِ بن زيدٍ[3] حينَ حضرَه الموتُ ، وهو من قديم الشِّعرِ العربي :
[من الرجز]

الـيـومَ يُبْنَـى لِـدُوَيْـدٍ بَيْتُـهُ
لـو كـانَ للـدَّهْـرِ بِلًـى أَبْلَيْتُـهُ
أَوْكـانَ قِـرْنِـي وَاحِـداً كَفَيْتُـه

وإنّما قُصِّدتِ القصائدُ على عهدِ عبدِ المطَّلِبِ[4] أو هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ[5] .

وهناكَ رفعَ امرؤُ القيسِ[6] ذلكَ اللواءَ ، وأضاءَ تلكَ السماءَ التي ما طاولَتْها سماءٌ ، وهو لم يتقدَّمْ غيرَه إلاّ بما سبقَ إليه ، ممّا اتبعَهُ فيهِ مَنْ جاءَ بعدَهُ.

---

(١) محمد عبده بن حسن خير الله ، من آل التركماني ، مفتي الديار المصرية (ت ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م).

(٢) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق ، تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء يهود في اليمن (ت ٣٢ هـ).

(٣) هو دويد بن زيد بن نهد بن زيد بن حوتكة بن أسلم بن إلحاف بن قُضاعة ، والأبيات في المؤتلف والمختلف ص ١٦٤ .

(٤) هو شيبة بن هاشم بن عبد مناف ، أبو الحارث جدّ النبي ﷺ ، زعيم قريش في الجاهلية ، وأحد سادات العرب ومقدَّميهم ، وعبد المطلب لقب غلب عليه (ت ٤٥ ق هـ).

(٥) هاشم بن عبد مناف من قريش ، اسمه عمرو ، سيد من سادات العرب في الجاهلية ، وهو أحد أجداد النبي ﷺ.

(٦) امرؤ القيس حُنْدج بن حُجر بن الحارث الكندي ، أشهر شعراء العرب على الإطلاق ، وللرافعي مقال فيه ينظر في (وحي القلم) ٣/ ٤١٥ .

فهوَ أوّلُ من استوقفَ على الطلولِ ، ووصفَ النساءَ بالظباءِ والمهى والبَيْضِ ، وشبّهَ الخَيْلَ بالعقبانِ والعصيِّ ، وفرّقَ بينَ النسيبِ وما سواهُ من القصيدةِ ، وقرّب مآخِذَ الكلامِ ، وقيّدَ أوابدَه ، وأجادَ الاستعارةَ والتشبيهَ ، ولقد بلغَ منه أنّه كانَ يتعنّتُ على كلِّ شاعرٍ بشعرِه.

ثم تتابعَ القارِضون مِنْ بعدِهِ ، فمنهم من أسهبَ فأجادَ ، ومنهم من كبا كما يكبو الجواد ، وبعضُهم كان كلامُه وحيَ الملاحظِ ، وفريقٌ كانَ مثلَ سُهيلٍ في النجومِ ، يعارِضُها ولا يجري معها.

ولقد جدّوا في ذلكَ حتّى إنَّ منهم منْ كان يَظُنُّ أنَّ لسانَهُ لو وُضِعَ على الشَّعرِ لحلقَهُ ، أو الصخرِ لفلقَهُ.

ذلك أيّامَ كانَ للقولِ غُرَرٌ في أوْجهٍ ومواسمَ ، بل أيّامَ كانَ مِنْ قَدْرِ الشعراءِ أنْ تغلِبَ عليهم ألقابُهم بشعرِهم ، حتّى لا يُعْرَفون إلاّ بها: كالمُرَقّش[1] ، والمُهَلْهِلِ[2] ، والشَّرِيدِ[3] ، والمُمَزِّقِ[4] ، والمُتَلَمِّسِ[5] ، والنابغةِ[6] ، وغيرهم.

ومِنْ قَدْرِ الشّعرِ أنْ كانتِ القبيلةُ إذا نبغَ فيها شاعرٌ أتتِ القبائلُ فهنأتْها بذلك ،

---

(١) عرف بهذا اللقب اثنان المرقش الأكبر ، وهو عمرو بن سعد بن مالك من بني بكر بن وائل ، شاعر جاهلي من المتيمين الشجعان ، وهو عم المرقش الأصغر (ت ٧٥ ق هـ) أما المرقش الأصغر فهو ربيعة بن سفيان بن سعد ، كان: أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم شعراً ، (ت ٥٠ هـ) ، ولقب الأكبر بالمرقش لقوله: [من السريع]

الدارُ قفرٌ ، والرسوم كما رقّشَ في ظهرِ الأديم قَلَمْ

(٢) هو عدي بن ربيعة ، من تغلب ، شاعر ، من أبطال العرب في الجاهلية ، لقب مهلهلاً لأنه أول من هلهل نسج الشعر أي رققه (ت ١٠٠ ق هـ).

(٣) عمرو بن رياح السُّلمي أبو الخنساء ، ولقب بالشريد لقوله: [من الوافر]

تولّى إخوتي وبقيت فرداً وحيداً في ديارهمُ شريدا

(٤) هو شأس بن نهر ، من بني عبد القيس ، شاعر جاهلي لقب بالممزِّق لقوله: [من الطويل]

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ وإلاّ فأدركني ولمّا أمزَّقِ

(٥) هو جرير بن عبد العزى أو عبد المسيح ، من بني ضبيعة من ربيعة ، شاعر جاهلي من أهل البحرين ، وهو خال طرفة بن العبد (ت ٥٠ ق هـ).

(٦) هو زياد بن معاوية الغطفاني المضري شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات (ت ١٨ ق هـ).

وصُنعتِ الأطعمةُ ، واجتمعَ النساءُ يلعبنَّ بالمزاهرِ كما يصنعنَ في الأعراسِ ، وأيّامَ كانوا لا يهنّئونَ إلاّ بغلامٍ يولَدُ ، أو شاعرٍ ينبُغُ ، أو فرسٍ تنتجُ ، وكانتِ البناتُ ينفقنَ بعدَ الكسادِ إذا شَبّبَ بهنّ الشعراءُ[1] .

* * *

ولم يتركِ العربُ شيئاً ممّا وقعتْ عليه أعينُهم ، أو وقعَ إلى آذانِهم ، أو اعتقدوهُ في أنفسِهِم إلاّ نظموهُ في سِمْطٍ من الشّعرِ ، وادّخروهُ في سَفَطٍ من البيانِ ، حتّى إنّكَ لترى مَجموعَ أشعارِهم ديواناً فيه من عوائدِهم وأخلاقِهم وآدابِهم وأيّامِهم ، وما يستحسنونَ ويستهجِنونَ حتّى من دوابِّهم ، وكان القائلُ منهم يستمدُّ عفوَ هاجِسِه ، وربّما لفظَ الكلمةَ تحسبُها من الوحي ، وما هي منَ الوحيِ ، ولم تكن تُفاضِلُ بينهم إلاّ أخلاقُهم الغالبةُ على أنفسِهم.

فزهيرٌ[2] أشعرُهم إذا رغبَ ، والنابغةُ إذا رَهِبَ ، والأعشى[3] إذا طَرِب ، وعنترةُ[4] إذا كَلِبَ[5] ، وجريرٌ[6] إذا غَضِبَ ، وهلمَّ جراً.

* * *

ولكلِّ زمنٍ شِعْرٌ وشعراءُ ، ولكلِّ شاعرٍ مرآةٌ من أيامه ، فقد انفردَ امرؤ القيسِ بما علمتَ ، واختَصّ زهيرٌ بالحَوْليات ، واشْتَهَرَ النابغةُ بالاعتذاراتِ ، وارتفعَ الكُمَيْتُ[7] بالهاشمياتِ ، وشمخَ الحطيئةُ بأهاجيهِ ، وساقَ جريرٌ قلائِصَهُ[8] ،

---

(١) كما حصل بين الأعشى والمحلق. انظر الأغاني ٩/ ١١٣-١٦٧ ، وديوان الأعشى ص(٢٦٦).

(٢) هو زهير بن أبي سلمى المزني حكيم الشعراء في الجاهلية ، من أصحاب المعلقات (ت ١٣ ق هـ).

(٣) هو ميمون بن قيس بن جندل ، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي المعروف بأعشى قيس ، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية ، وأحد أصحاب المعلقات (ت ٧ هـ).

(٤) هو عنترة بن عمرو بن شداد العبسي أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، ومن شعراء الطبقة الأولى ، وأحد أصحاب المعلقات (ت ٢٢ ق هـ).

(٥) شدَّ في الحرب.

(٦) جرير بن عطية اليربوعي التميمي ، أشهر شعراء العصر الأموي (ت ١١٠ هـ).

(٧) الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي الكوفي ، شاعر الهاشميين (ت ١٢٦ هـ).

(٨) القلوص: من النوق الشابّة ، وهي بمنزلة الجارية من النساء ، وجمعها قُلُص.

وبرزَ عَدِيٌّ[1] في صفاتِ المطيّةِ ، وطُفَيلٌ[2] في الخَيْلِ ، والشَّمَّاخُ[3] في الحَمِيرِ ، ولقد أنشدَ الوليدُ بن عبدِ الملكِ[4] شيئاً من شعرهِ فيها ، فقالَ: «ما أوصفَهُ لها ، إنّي لأَحْسَبُ أنَّ أحدَ أبويه كانَ حماراً».

وحَسْبُكَ من ذي الرُّمةِ[5] رئيسِ المشبِّهينَ الإسلاميين أنّه كانَ يقولُ: «إذا قلتُ كأنَّ ، ولم أجدْ مخلَصاً منها ، فقطعَ اللهُ لساني».

ولقد فَتَنَ الناسَ ابنُ المعتزِ[6] بتشبيهاتِهِ ، وأسكرَهُم أبو نُوَاسُ بخمرياتِه ، ورقّتْ قلوبُهم على زهدياتِ أبي العتاهيةِ[7] ، وجرتْ دموعُهم لمراثي أبي تمّام[8] ، وابتهجتْ أنفسُهم بمدائحِ البحتريّ[9] ، وروضيّاتِ الصنوبريّ[10] ، ولطائفِ كُشَاجِم[11].

فمن أَرْجَعَ بَصرَه في ذلك ، وسلكَ في الشِّعرِ ببصيرةِ المعريّ[12] ، وكانتْ له

---

(1) عدي بن زيد بن الرقاع العاملي ، شاعر كبير من أهل دمشق (ت ٩٥ هـ).

(2) طفيل بن عوف بن كعب الغنوي من قيس عيلان ، شاعر جاهلي فحل ، من الشجعان ، ويسمّى أيضاً المحبِّر لتحسينه شعره (ت ١٣ ق هـ).

(3) الشماخ بن ضرار الغطفاني ، شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام (ت ٢٢ هـ).

(4) سادس الخلفاء الأمويين ، وفي عهده تمت الفتوح العظيمة (ت ٩٦ هـ).

(5) هو غيلان بن عقبة بن نهيس العدوي ، من مضر ، شاعر من فحول الطبقة الثانية في عصره (ت ١١٧ هـ).

(6) هو عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل ، أبو العباس ، خليفة يوم وليلة ، شاعر مبدع (ت ٢٩٦ هـ).

(7) هو إسماعيل بن القاسم العيني العَنَزي بالولاء ، أبو إسحاق ، شاعر مكثر ، سريع الخاطر ، في شعره إبداع (ت ٢١١ هـ).

(8) انظر ترجمته ص (٥٣) في الحاشية (٢).

(9) هو الوليد بن عبيد الطائي ، أبو عبادة ، شاعر كبير ، يقال لشعره (سلاسل الذهب) (ت ٢٨١ هـ).

(10) هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبي الحلبي الأنطاكي ، أبو بكر ، شاعر اقتصر في أكثر شعره على وصف الرياض والأزهار (ت ٣٣٤ هـ).

(11) هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك ، أبو الفتح الرملي ، شاعر متفنِّنٌ ، أديبٌ من كتّاب الإنشاء ، ولفظ كشاجم منحوت من علومٍ كان يتقنها ، فالكاف للكتابة ، والشين للشعر ، والألف للإنشاء ، والجيم للجدل ، والميم للمنطق (ت ٣٦٠ هـ).

(12) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي شاعر فيلسوف ، ولد ومات في معرّة النعمان (ت ٤٤٩ هـ).

أداةُ ابنِ الروميّ[1] ، وفيه غزلُ ابنُ أبي ربيعة[2] ، وصَبَابةُ ابنِ الأحنفِ[3] ، وطبعُ ابن بُرْدٍ[4] ، وله اقتدارُ مُسلم[5] ، وأجنحةُ ديكِ الجن[6] ، ورقّةُ ابنُ الجَهْم[7] ، وفخرُ أبي فِراسٍ[8] ، وحنينُ ابن زيدونٍ[9] ، وأَنَفَةُ الرَّضِيّ[10] ، وخطراتُ ابنِ هانىءٍ[11] ، وفي نفسِه مِنْ فُكاهة أبي دُلامة[12] ، ولعَينيهِ بصرُ ابنِ خَفَاجةَ[13] بمحاسنِ الطبيعة ، وبين جنبيهِ قلبُ أبي الطيّبِ[14] فقدِ استحقَّ أنْ يكونَ شاعرَ دهرِهِ ، وصنَّاجةَ عصرِهِ.

---

(١) هو علي بن العباس بن جريج الرومي أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي (ت٢٨٣ هـ).

(٢) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي ، أبو الخطاب ، أرق شعراء عصره (ت ٩٣ هـ).

(٣) العباس بن الأحنف اليمامي ، أبو الفضل ، شاعر غَزِلٌ رقيق (ت ١٩٢ هـ).

(٤) هو بشار بن برد العقيلي بالولاء ، أبو معاذ ، أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان (ت ١٦٧ هـ).

(٥) مسلم بن الوليد الأنصاري بالولاء أبو الوليد الكوفي ، البغدادي ، شاعر غزل ، وهو أول من أكثر من البديع ، لقب صريع الغواني لأنه لما نزل بغداد أنشد الرشيد : [من الطويل]

وما العيشُ إلا أنْ تروحَ مع الصِّبا وتغدو صريعَ الكأسِ والأعينِ النُّجْلِ

(٦) هو عبد السلام بن رغبان الكلبي ، شاعر مُجيد ، فيه مجون ، من شعراء العصر العباسي ، سمي ديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين (ت ٢٣٥ هـ).

(٧) علي بن الجهم بن بدر أبو الحسن من بني سامة ، من لؤي بن غالب ، شاعر ، رقيق الشعر ، من أهل بغداد (ت ٢٤٩ هـ).

(٨) هو الحارث بن سعيد بن حمدان من بني تغلب ، أمير شاعر ، فارس ، وهو ابن عم سيف الدولة الحمداني (ت ٣٥٧ هـ).

(٩) هو أحمد بن عبد الله المخزومي الأندلسي ، وزير كاتب شاعر (ت ٤٦٣ هـ).

(١٠) هو محمد بن الحسين أبو الحسن العلوي الحسيني الموسوي ، أشعر الطالبيين (ت ٤٠٦ هـ).

(١١) هو محمد بن هانىء بن سعدون الأزدي الأندلسي ، أشعر المغاربة على الإطلاق (ت ٣٦٢ هـ).

(١٢) هو زند بن الجون الأسدي مولاهم ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة (ت ١٦١ هـ).

(١٣) هو إبراهيم بن أبي الفتح الهواري الأندلسي ، شاعر غزل ، من الكتاب البلغاء (ت ٥٣٣ هـ).

(١٤) هو أحمد بن الحسين الجعفي الكندي الكوفي الشاعر ، أحد مفاخر الأدب العربي (ت ٣٥٤ هـ).

ولا يهولنَّكَ ذلكَ إذا لم تستطعْ عَدَّ الشعراءِ الذين انتحلوا هذا الاسمَ ، وألحقوهُ بأنفسهم إلحاقَ الواوِ بعمرٍو ، فكلُّهم أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يشعرون.

* * *

وأبرعُ الشعراءِ مَنْ كان خاطِرُهُ هدفاً لكلِّ نادرةٍ ، فربّما عرضتْ للشاعرِ أحوالٌ مما لا يعني غيره ، فإذا علقَ بها فكرُهُ ، تمخّضتْ عن بدائعَ من الشّعرِ ، فجاءت بها كالمعجزاتِ ، وهي ليستْ من الإعجازِ في شيءٍ ، ولا فَضْلَ للشّاعِرِ فيها إلاّ أنّه تنبّه لها.

ومَنْ شَدَّ يدَه على هذا جاءَ بالنادِرِ من حيثُ لا يتيَسرُ لغيرِهِ ، ولا يقدِرُ هُوَ عليه في كلِّ حينٍ.

وَليسَ بشاعرٍ مَنْ إذا أنشدَكَ لم تَحْسِبْ أنَّ سمعَهُ مخبوءٌ في فؤادكَ ، وأنَّ عينَكَ تنظرُ في شِغافِه ، فإذا تغزَّلَ أضحككَ إن شاءَ ، وأبكاكَ إن شاءَ ، وإذا تحمَّسَ فزعتَ لمساقطِ رأسِكَ ، وإذا وَصَفَ لك شيئاً هَمَمْتَ بِلَمْسه ، حتى إذا جئتَهُ لم تَجِدْهُ شيئاً ، وإذا عَتِبَ عليكَ جعلَ الذّنْبَ لكَ ألزمَ من ظِلِّك ، وإذا نَثَلَ كنانتَهُ رأيتَ من يَرْمِيهِ صريعاً لا أثرَ فيه لقذيفةٍ ولا مُديةٍ ، ولكنّها كلمةٌ فُتِحَتْ عليها عينُهُ ، أو وَلَجتْ إلى قلبِهِ من أُذُنِهِ ، فاستقرّتْ في نفسِه ، وكأنما استقرَّ على جمرٍ ، وإذا مدَحَ حسبتَ الدنيا تجاوبُهُ ، وإذا رَثَى خِفتَ على شعرِهِ أن يجريَ دموعاً ، وإذا وَعَظَ استوقفتِ النّاسَ كلمتُهُ ، وزادتهُم خشوعاً ، وإذا فخرَ اشْتُمَّ من لحيتِهِ رائحةُ المُلْكِ ، فحَسِبْتَ أنّما حَفّتْ به الأملاكُ والمواكبُ.

* * *

وجِمَاعُ القولِ في براعةِ الشّاعرِ أنْ يكونَ كلامُهُ من قلبِهِ ، فإنَّ الكلمةَ إذا خَرَجَتْ من القلبِ وقعتْ في القلبِ ، وإذا خرجَتْ من اللسانِ لم تتجاوزِ الآذانَ.

* * *

ولقد رأينا في الناسِ من تكلّفَ الشّعْرَ على غيرِ طَبْعٍ فيهِ ، فكان كالأعمى يتناوَلُ الأشياءَ ليقرَّها في مواضعها ، وربّما وضعَ الشيءَ الواحدَ في موضعينِ أو مواضعَ ، وهو لا يدري.

وأبصرنا فيهم كذلكَ من يَجِيْءُ باللفظِ المونقِ ، والوَشْيِ النَّضِرِ ، فإذا نَثرتَ أوراقَهُ لم تجدْ فيها إلاّ ثمراتٍ فجَّةً .

ورأينا في المطبوعينَ من أثْقَلَ شعرَهُ بأنواعٍ من المعاني ، فكانَ كالحسناءِ تزيَّدَتْ من الزينةِ حتى سَمُجَتْ ، فصَرَفَتْ عنها العيونَ بما أرادتْ أن تلفتَها بهِ .

على أنَّ أحسنَ الشِّعْرِ ما كانتْ زينتُهُ منه ، وكلُّ ثوبٍ لَبِسَتْهُ الغانيةُ فهو معرضُها .

وهو عندي أربعةُ أبياتٍ : بيتٌ يُسْتَحْسَنُ ، وبيتٌ يَسِيرُ ، وبَيْتٌ يَنْدُرُ ، وبيتٌ يُجَنُّ به جنوناً ، وما عدا ذلكَ فكالشجرةِ التي نُفِضَ ثمرُها ، وجُنِيَ زَهرُها ، لا يَرْغَبُ فيها إلا مُحْتَطِبٌ .

* * *

أمَّا مذاهبُهُ التي أبانوها من الغزلِ ، والنسيبِ ، والمدحِ ، والهجاءِ ، والوصفِ ، والرِّثاءِ ، وغيرها ، فهي شعوبٌ منه ، وما انتهى المرءُ من مذهبٍ فيه إلاّ إلى مَذْهَبٍ ، ولا خرجَ من طريقٍ إلاّ إلى طريقٍ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٥].

وما دامت الأعمارُ تتقلَّبُ بالناسِ فالشعرُ أطوارٌ :

آونةً تخطِرُ فيهِ نسماتُ الصَّبا ما بينَ أفنانِ الوصفِ ، إلى أزهارِ الغَزَلِ ، ويتسبسبُ[1] فيه ماءُ الشبابِ من نهرِ الحياةِ إلى مَشْرَعَةِ الأملِ .

وطوراً تراه جَمَّ النشاطِ ، تكادُ تُصْقَلُ بمائِهِ السيوفُ ، وتفرَّقُ بحدِّهِ الصفوفُ .

وحيناً تَجِدُهُ وقدْ ألبسَهُ المشيبُ ثوبَ الاعتبارِ ، وجمَّلَهُ بِمِسْحَةٍ من الوقارِ ، وهو في كلِّ ذلكَ يروي عن الأيامِ ، وتَروي عنهُ ، وما أكثرَ فنونَ الشِّعرِ إذا رويتَها عن أفانينِ الأيام!

* * *

وأما ميزانُه : فاعمدْ إلى ما تريدُ نقدَهُ ، فَرُدَّهُ إلى النثرِ ، فإنْ استطعتَ حذفَ شيءٍ منهُ لا ينقصُ مِنْ معناهُ ، أو كانَ في نَثْرِهِ أكملُ منه منظوماً ، فذلكَ الهَذْرُ بعينِه ، أو نوعٌ منهُ .

---

(١) يتسبسب : يجري ويسيل .

ولن يكونَ الشِّعْرُ شِعْراً حتى تجدَ الكلمةَ من مَطْلَعِها لِمَقْطَعِهَا مفرّغة في قالبٍ واحدٍ من الإجادةِ ، وتلكَ مقلَّدَاتُ الشعرَاءِ .

إليكَ مثلاً قولَ ابنِ الروميِّ يصفُ مُنْهَزِماً : [من المنسرح]

لا يَعْـرِفُ القِـرْنُ وَجْهَـهُ ، ويَـرَىٰ قفَـاهُ مِـنْ فَـرْسَخٍ فَيَعْـرِفُـهُ

فقلِّبْ نظَرَكَ بينَ ألفاظِهِ ، وأَجِلْهُ في نفسِكَ ، ثم ارجعْ إلى قولِ ذلكَ الخارجيِّ ، وقدْ قالَ لهُ المنصورُ[1] : أخبرني أيُّ أصحابي كانَ أشدَّ إقداماً في مبارزتِكَ؟ فقال : ما أعرفُ وجوهَهُم ، ولكن أعرفُ أقفاءَهم ، فقل لهمْ يدبروا أعرِّفْكَ .

ألستَ ترى في ذلكَ النَّظمِ مِنْ كمالِ المعنى وحلاوةِ الألفاظِ ما لا تراهُ في هذا النثرِ؟!

ولقد بقيَ أنّ قوماً لم يهتدوا إلى الفَرْقِ بين منثورِ القولِ ومنظومِهِ ، والّذي أراهُ أنَّ النظمَ لو مَدَّ جناحيهِ ، وحلّقَ في جوِّ هذه اللُّغةِ ، ثم ضمَّهُما ، لما وقع إلا في عُشِّ النثرِ ، وعلى أعوادِهِ . ولن تجدَ لمنثورِ القولِ بَهْجَةً إلاّ إذا صَدَحَ فيهِ هذا الطائرُ الغَرِدُ ، بلْ لو كانَ النثرُ مَلِكاً لكانَ الشِّعرُ تاجَه ، ولو استضاءَ لما كانَ غيرُهُ سِراجَه .

* * *

وما زال الشعراءُ يأتونَ بجُمَلٍ منهُ ، كأنّها قِطَعُ الروضِ إذا توَرَّدَ بها خَدُّ الربيعِ ، وهذا ابنُ العباسِ[2] وكتبُه ، وابن المعتزِ وفصولُه ، والمعريُّ ورسائِلُهُ .

وانظرْ إلى قولِ بشارٍ وقد مَدَحَ المهديَّ[3] ، فلم يعطِهِ شيئاً ، فقيلَ لهُ : لم تُجدْ في مدحِهِ ، فقالَ : «واللهِ لقد مدحتُهُ بشعرٍ لو قلتُ مثلَهُ في الدَّهْرِ لما خِيْفَ

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن العباس ، ثاني الخلفاء العباسيين ، ومؤسس دولتهم ، وباني بغداد (ت ١٥٨ هـ) .

(٢) هو محمد بن العباس الخوارزمي ، أبو بكر ، من أئمة الكتاب ، وأحد الشعراء العلماء (ت ٣٨٣ هـ) .

(٣) هو محمد بن عبد الله العباسي ، أبو عبد الله ، المهدي بالله ، ثالث الخلفاء العباسيين (ت ١٦٩ هـ) .

صَرْفَه على حُرّ ، ولكنّي أكْذِبُ في العَمَلِ ، فأُكْذَبُ في الأملِ»[1].

وبشّارٌ هو ذلكَ الغوّاصُ على المعاني ، الذي يزعمُ ابنُ الروميّ أنّه أشعرُ مَنْ تقدّمَ وتأخّرَ ، وهو القائلُ في شعرِه مفتخراً: [من الطويل]

إذا مَـا غَضِبْنَـا غَضْبَـةً مُضَـرِيَّـةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا
إذا مـا أعَـرْنَـا سَيِّـداً مِـنْ قَبِيْلَـةٍ ذُرَى مِنْبَـرٍ صَلّـى عَلَيْنَـا وسَلَّمَـا

والأمثلةُ على ذلك أكثرُ من أنْ تُعَدَّ ، وَأَوْسَعُ من أنْ تُحَدَّ.

ولا تجِدُ الناظِمَ وقد أصبحَ لا يُحْسِنُ هذا الطرازَ ، إلاّ إذا كانَ جافيَ الطَّبْعِ ، كَدِرَ الحسِّ ، غيرَ ذكيِّ الفؤادِ ، لم تجتمعْ له آلةُ الشعرِ ، وهو إذا كان هناكَ ، وجاءَ من صنعتِه بشيءٍ ، فإنّما هو نظّامٌ وليس بشاعرٍ.

* * *

أما الفرقُ بينَ المترسّلينَ والشعراءِ ، فإنْ كانَ كما يقولُ الصّابي[2]: «إنَّ الشعراءَ إنما أغراضُهم التي يرتمونَ إليها وَصْفُ الدّيارِ والآثارِ ، والحنينُ إلى الأهواءِ والأوطارِ ، والتشبيبُ بالنساءِ ، والطلبُ والاجتداءُ ، والمديحُ والهجاءُ.

وأما المترسّلون ، فإنّما يترسّلونَ في أمرِ سدادِ ثغرٍ ، وإصلاحِ فسادٍ ، أو تحريضٍ على جهادٍ ، أو احتجاجٍ على فئةٍ ، أو مجادلةٍ لمسألةٍ ، أو دعاءٍ إلى أُلفةٍ ، أو نهيٍ عن فُرقةٍ ، أو تهنئةٍ بعطيّةٍ ، أو تعزيةٍ برزيّةٍ ، أو ما شاكلَ ذلك: فذلكَ زمنٌ قد دَرَجَ فيهِ أهلُهُ ، وبساطٌ طويَ بما عليهِ ، ولم يعدْ أحدٌ يحذَرُ مؤاخاةَ الشاعرِ ، لأنه يَمْدَحُهُ بثمنٍ ، ويهجوه مجاناً ، وإنّما الفرقُ بينَ الفريقينِ أنَّ مسلكَ الشاعرِ أوعرُ ، ومركبهُ أصعبُ ، وأسلوبهُ أدقُّ ، وكلامُه مع ذلكَ أوقعُ في النفسِ ، وعلى قَدْرِ إجادتِهِ يكونُ تأثيرُهُ ، فالمجيدُ من الشعراءِ أفضلُ من غيرِه في صناعةِ الكلامِ ، وإنَّك إنما تزيِّنُ النثرَ بالشعرِ ، ولا تزيِّنُ الشعرَ بالنثرِ.

وفي الحديث الشريف[3]: «إنّا قد سَمِعْنا كلامَ الخطباءِ والبلغاءِ وكلامَ ابن

---

(١) رواية الأغاني: والله لقد مدحتُه بشعرٍ لو مُدِحَ به الدّهْرُ لم يُخْشَ صَرْفُه على أحدٍ ، ولكنْ كذبَ أملي لأني كذبتُ في قولي.

(٢) هو إبراهيم بن هلال الصابي ، نابغةُ كتّابِ جيلِهِ (ت ٣٨٤ هـ).

(٣) كذا في بعض نسخ «زهر الآداب» للحصري قال النبي ﷺ ، وفي طبعة الأستاذ البجاوي: =

أبي سُلْمَى فما سَمِعْنا مثلَ كلامِهِ من أحدٍ».

وقال الشافعيُّ[1] في كتابِ «الأم»: «الشِّعْرُ كلامٌ كالكلامِ، فحسنُهُ كحسنِهِ، وقبيحُهُ كقبيحِهِ[2]، وفضْلُهُ على سائرِ الكلامِ أنّه سائرٌ في النّاسِ، يبقَى على الزّمانِ فيُنْظَرُ فيهِ».

هذا «وإنَّ من الشِّعر حكمةً»[3] ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩][4].

* * *

= وكانت قريش معجبةً بشعر زهير، وقالوا للنبي ﷺ... الخ فما نسبه الرافعي للنبي ﷺ إنما هو من كلام قريش. اهـ (بسام).

(١) هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي المطلبي، من قريش، أحد الأئمة المتبوعين، كان غاية في الفصاحة والذكاء (ت ٢٥٤ هـ)، والنص في «مختصر المزني» المطبوع على هامش «الأم» (٥/ ٢٥٨) ط بولاق، وهو: «الشعر كلام فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيحه، وفضله على الكلام أنه سائر».

(٢) هذا الشطر من كلام الشافعي روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١٢٥ والدارقطني ٤٩٠ والطبراني في الأوسط وأبو يعلى، وهو صحيح بطرقه (الصحيحة للألباني).

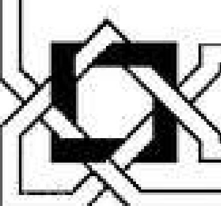
(٣) جزء من حديث أوله: «إن من البيان لسحراً..» أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٧٢) وأبو داود (٥٠١١) وابن ماجه (٣٧٥٦) وابن حبان (٢٠٠٩) وأحمد ١/ ٢٦٩ ومواضع أخرى) وهو حديث صحيح لغيره، وقوله (حكمة) في الحديث (حِكَماً) أي كلاماً نافعاً يمنع الجهل والسفه وينهى عنهما. (الصحيحة للألباني).

(٤) ديوان الرافعي (١: ٣ ـ ١١) ط ١ عام ١٩٠٣ م.



المقدمة الثانية

في سرقة الشعر
وتوارد الخواطر




الشعرُ معنًى لما تَشْعُرُ به النفسُ ، فهو من خواطرِ القلبِ ، إذا أفاضَ عليهِ الحِسُّ من نورِه انعكسَ على الخيالِ ، فانطبعتْ فيهِ معاني الأشياء ، كما تَنْطَبِعُ الصُّوَرُ في المِرْآةِ ، وهوَ مِنْ بعدُ كالحُلُمِ يُخْلَقُ في المخيِّلَةِ مما يَصِلُ إلى الأَعْيُنِ ، ويتأدّى إلى الآذانِ ما لا يكونُ قدوصلَ ولا تأدّى.

وكما يأخذُ النظرُ في مطرَحِهِ ما بينَ الأرضِ والسماءِ ، يتناوَلُ القلبُ في مسرحِهِ ما فوقَ سُجُفِ الغيمِ وتحتَ آطباقِ الثرى ، وإنَّما الخيالُ السَّاحِرُ بينَ هذين إنسانٌ بين ملكيهِ ، وجسدُه بين يديهِ ، ومن سحرِهِ أنْ يضعَ أُذُنَهُ على العينِ فتسمَعُ ، وعينَهُ على الأُذُنِ فترى ، ولن تَجِدَ من شيءٍ إلاّ وعليه سِمَتُهُ ، وفيه صِفَتُهُ ، فَأَنْتَ تبصرُ الناسَ أحياءً يضطربونَ في حوائجهم ، وهو يُحْشُرُهم إليك في يومِ الحساب ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨].

وبِحَسْبِكَ أنَّ هذهِ الأكوان إنَّما هيَ الحقائقُ ، ولكلِّ حقيقةٍ منها خيالٌ ، وهو مملكةُ الشعراءِ ، فما مِنْ ذي خيالٍ منهم إلاّ وقدْ خالطتْ قلبَهُ لذةُ المُلْكِ في ساعةٍ ، ربّما كانت له في اليومِ ، أو الشهرِ ، أو العامِ ، أو العمرِ ـ هي عندَه الدنيا ، وهو مَلِكُها ، فإذا رَنَّ فيها صَوْتُهُ تحرَّكَ الفَلَكُ ، فأسمَعَهُ من كلِّ أرضٍ فوجاً ، وأرقصَ بِهِ في كلِّ بَحْرٍ مَوْجاً ، وما تزالُ الأيّامُ تحفَظُ مِن تِلْكَ الأنفاسِ في صدرِها حتى تبتنيَ له ديواناً يعرفُه به الناسُ ، ولولا أنّه كان مَلِكاً في تلك الساعاتِ التي نظمَ فيها ما سُمّي شِعْرُهُ ديواناً.

❃ ❃ ❃

وللشِّعرِ[1] أسبابٌ يكونُ عنها ، فإذا هي اجتمعتْ في واحدٍ فذلِكَ. ولكنَّكَ قلَّ أنْ تجدَ مَنْ يسمّى شاعراً بحقٍ ، كما قلَّ أنْ ترى مَنْ لا يريدُ أن يكونَ شاعراً بالباطلِ.

فمتى كانَ المَرْءُ على رِقَّةٍ في الحسِّ ، وطبعٍ في النفسِ ، وصفاءٍ في الذِّهْنِ ،

---

(١) في الأصل (والشعر).

وانتباهٍ في الخاطر ، وبُعْدٍ في النظر ، وشِدَّةٍ في العارضة ، وقوَّةٍ في البديهةِ ، ومثراةٍ في الروايةِ ، وحنكةٍ في التجارب ، وحكمةٍ تحيطُ بذلكَ كلِّهِ: فقد اجتمعَ له من أداةِ الشعرِ ما يكونُ به شاعراً.

ولا تحسبَنَّ هذا النوعَ من الكلامِ مضغةً يلوكُها الشيخُ الهِمُّ ، والصبيُّ الأدرَدُ[1] ، وليسَ في ماضِغَي أحدِهما ضِرْسٌ يقطَعُ ، بل لا بدَّ لها من شَرِسِ[2] الأنيابِ ، وحديدِ المخالبِ ، يطحنها طحناً.

ولقد كانَ أبو عمرو بنُ العلاءِ[3] - والزمانُ زمانٌ - لا يَعُدُّ الشِّعرَ إلا للمتقدمينَ ، فحدَّثَ الأصمعيُّ[4] قال: جلستُ إليهِ عَشْرَ حِجَجٍ[5] ما سمعتُهُ يحتجُّ ببيتٍ إسلاميٍّ.

وسُئِلَ عن المولَّدينَ فقال: «ما كان مِنْ حَسَنٍ فقد سُبقوا إليهِ ، وما كانَ من قبيحٍ فمِنْ عندِهم ، ليسَ النمطُ واحداً ، ترى قِطْعَةَ ديباجٍ ، وقِطْعَةَ مسحٍ ، وقطعةَ نطعٍ». ذلكَ والشعراءُ يومئذٍ متوافِرُونَ.

على أنَّهُ رحمهُ اللهُ لو سَمِعَ أكثرَ شعرِ اليومِ لزادَ: وقطعةَ نعلٍ... فقد أصبحَ الزّمنُ وما تطلعُ شمسُهُ إلاّ على جديدٍ ، والقومُ لا يزالونَ على ما كانوا يتمرّغونَ في ترابِ الأولينَ ، فإذا علقتْ يدُ أحدِهم بحليةٍ دسَّها في شعره ، وجعلها آيةَ فخرِهِ ، وإن لم يصادِفْ شيئاً من ذلكَ ، فأيّةُ ما شئتَ أن تنفضَها من كلمةٍ لا تنتفضُ في يديكَ إلا تراباً.

* * *

وإنّما مَثَلُ شعرِ اليومِ والشاعرِ مَثَلُ السفينةِ ، يطوفُ بها المحيطَ مَنْ لا يُحْسِنُ السباحةَ في لُجّهِ ، فإذا انقلبَ عنها ، لا يرجِعُ إليها حتّى تكونَ لجسمِهِ تابوتاً ،

---

(١) الأدرد: الصغير الذي لم تنبت أسنانه بعد، والكبير الذي ذهبت أسنانه.

(٢) في الأصل (شكس) وليس بشيء ، ولعله تصحيف.

(٣) أبو عمرو بن العلاء زبّان بن عمار التميمي المازني البصري ، من أئمة اللغة المتقدمين ، وأحد القراء السبعة (ت ١٥٤ هـ) والخبر في العمدة ١/ ١٣٧.

(٤) الأصمعي روايةٌ ثقة من رواة العرب في اللغة ، واسمه عبد الملك بن قُرَيْب من أصمع الباهلي البصري (ت ٢١٦ هـ).

(٥) حجج: جمع حجة أي عام ، وذلك بكسر الحاء.

ولذلك تراهم يحصرونَ القولَ في وجوهٍ ، ويجمعونَهُ في نوعٍ منه ، إلاّ ما كانَ لبعضِهِم من النُّدرةِ الواحدةِ ، والفلتةِ المفردة . . . ولم تكنْ هذهِ السماءُ التي فوقنا اليومَ تحتَ غيرِنا من قبلُ ، ولا كانتِ البلاغةُ شيئاً يباعُ ويُشترى ، ولكنّهُ الضّلالُ في النشأةِ ، والقُصورُ في أسبابِ الصَّنعةِ ، والجهلُ بالمقاصدِ ، وضعفُ اللُّغةِ إلى حدِّ النزعِ ، بحيثُ لم يبقَ إلا نَفَسُها الذي ينطلِقُ بروحِها ، غيرَ ما كانَ في الصَّدْرِ المتقدّمِ ممَّنْ جعلَ الشِّعْرَ وكدَهُ ، وقصرَ عليه كدَّه ، وليس ذلكَ وحدَه ، وإنّما نَفَاقُ السُّوقِ كما عرفتَ جلاّبٌ ، ولهذا أصبح القومُ في أيدي جهابذةِ الكلامِ ونقّادِ الشعرِ أحقَّ بقولِ ابنِ بُرْدٍ : [من البسيط]

ارْفُــقْ بِعَمْــرٍو إذا حَــرَّكْــتَ نِسْبَتَــهُ   فــإنّــهُ عَــرَبِــيٌّ مِــنْ قَــوَارِيْــرِ

مع أنّه فُتِحَ عليهم اليومَ بابٌ جديدٌ من الأخذِ ، فتراهم إذا ضعفُوا ترجَموا ، وإذا ضاقتْ بهمْ مذاهبُ العربيّةِ استعجموا ، وما أُنكِرُ أنَّ منهم من يَنْطَبِعُ على ما يأخذُ به نفسه ، ولكنّهم يخرجون بالشعر عن معناهُ ، وآيةُ ذلك أنْ لا تعرِفَ في منظومِهِم روحَ التأثيرِ التي هي حياةُ الشعرِ ، بل تجدُ عليهِ من فسادِ التكلُّفِ ، ومغالبةِ الطبعِ ، وأثرِ الاستكراهِ ، وفيهِ من المعاني المدخولةِ ما لا تَشُكُّ مَعَهُ أنّهُ من مُضَاغَةِ قائلِهِ الأولِ .

إنّما تنفُخُ النفسُ تلكَ الروحَ في الكلامِ إذا استوتْ فيه الصنعةُ ، فيتمثَّلُ بها سويّاً .

* * *

وعندي أنَّ شرطَ الشاعرِ الذي ترتَفِعُ عنه مظنّةُ السَّرقةِ هو أنْ تكونَ له قوّةُ الشِّعرِ ، ودليلُهـا الإبـداعُ ، والمضـيُّ فـي كـلِّ معنًـى ، والانتبـاهُ إلـى أدقِّ المناسباتِ ، فإنَّ الكلامَ كالشَّجرةِ منها الجذعُ ، ومنها الغصونُ والأوراقُ ، وما فيها من دقيقِ الخيوطِ بعضُها فوقَ بعضٍ في الظهورِ ، وإنّما براعةُ الشّاعرِ في الالتفاتِ إلى تلكَ الدقائقِ ، فإنَّ مِنَ الكلامِ ما يتفطَّر للمعاني كما يتفطَّرُ الشجرُ للتوريقِ ، ومن أجلِ ذلك يسمّون أجملَ البيانِ وحياً .

والشعراءُ كالمصابيحِ ، ما على أحدِها أن يتألَّقَ بنورِ غيرِهِ ما دامَ في كلِّ مصباحٍ زيتُه ، غير أنَّ أكثرَ مصابيحِ اليوم كهربائيةٌ ، يستوي الجمعُ منها في الاستمـدادِ مـن مصـدرٍ واحـدٍ . . . وقـدْ كثُـرتْ آلاتُ البخـارِ ، وكثُـرتْ بهـا

المعجزاتُ ، حتى إنَّ منْ خواطرِ هؤلاءِ الشعراءِ ما لا يتحرّكُ إلا (بِنَفَس).

ومرجِعُ التفاوتِ بينَ أصنافِ القائلينَ إنّما يكونُ من مثل المنشيء ، يطبعُ في الأنفسِ شِيَماً مختلفاتٍ ، تغلِبُ على بعضِها دون بعضٍ ، ومن مثل ما يكونُ في عصرٍ دون عصرٍ ، وما يقعُ لشاعرٍ دونَ سواهُ ، وما يتفِقُ للواحد ، ولا يتفقُ للآخر ، إلى غير ذلكَ مما شَرْطُ جميعِه وُفورُ القوةِ في الشَّاعرِ ، فلا يُسْتَغْرَبُ من رجلٍ كعنترةَ ـ وهو ذلكَ الذي يتمثّلُ الموتُ في هولِ صورتِهِ ـ قولُهُ : [من الكامل]

إنّي لأَعْجَبُ كَيْفَ يَنْظُرُ صُورَتي ... يَوْمَ القِتالِ مُبارِزٌ ويَعِيشُ

ولا مِنْ مِثْلِ عاشِقٍ ـ كذلك الذي هدروا دمَهُ من أجلِ حُبّهِ بُثَيْنَة[1] ـ قولُهُ ، وهوَ أميرُ شِعرهِ[2] : [من الطويل]

خَلِيلَيَّ فيما عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا ... قَتِيلاً بَكَى مِنْ حُبِّ قاتِلِه قَبْلِي

وإنّما شيمةُ العاشقِ هذا البكاءُ.

ولا مِنْ خَلِيعٍ كالنُّواسِيِّ قولُه يَصِفُ كؤوساً رأَى فيها تصاويرَ ، وهو الذي جُنَّ به الجاحِظُ[3] : [من الطويل]

فللرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا ... وَللماءِ ما دَارَتْ عَلَيْهِ القَلانِسُ

وكذلكَ لا يُنْكَرُ على مثلِ أبي فِرَاسٍ قولُهُ في الفخر : [من الطويل]

ونَحْنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ بَيْنَنَا ... لَنَا الصَّدْرُ دُونَ العالَمِينَ أو القَبْرُ

وهو ذلك الذي كانَ يزاحِمُ في طَلَبِ الصَّدْرِ ، ويَعْلَمُ أنَّ وراءَ الزَّلَّةِ في سبيلِهِ حفرةُ القبرِ.

ولا على مَنْ ترعرعَ في حِجْرِ الخلافةِ ، ونَشَأَ في التّرَفِ كابنِ المعتزِّ قولُهُ في الهلالِ : [من الكامل]

---

(١) هي بثينة بنت حبا بن ثعلبة العذرية ، شاعرة من بني عُذْرة مِنْ قضاعة ، اشتهرت بأخبارها مع جميل . (ت ٨٢ هـ).

(٢) هو جميل بن عبد الله بن مَعْمَر العذري القضاعي ، أبو عمر ، المعروف بجميل بثينة ، شاعر من عشاق العرب (ت ٨٢ هـ).

(٣) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي البصري ، أبو عثمان ، كبير أئمة الأدب ، وصاحب المؤلفات السائرة البديعة (ت ٢٥٥ هـ).

فَـانْظُـرْ إليـهِ كَـزَوْرَقٍ مِـنْ فِضَّـةٍ   قَـدْ أَثْقَلَتْـهُ حَمُـوْلَـةٌ مِـنْ عَنْبَـرِ

وَقَدْ قِيلَ: إنَّ هذا البيتَ أُنشِدَ لابنِ الرُّوميِّ في ضِمْنِ أبياتٍ، وسُئِلَ: لِمَ لا تأتي بمثلِ هذهِ التشبيهاتِ، وأنتَ أشعرُ منهُ؟

فبكى وقالَ: هذا ابنُ الخلفاءِ، وهو إنّما يَصِفُ ماعونَ بيتِه، وما حيلتي وأنا رجلٌ أتكسَّبُ بالشعرِ، وأتبلَّغُ بخبزِ الشعيرِ؟!.

وما بالصعبِ على مثلِ المعرّيِّ ـ الذي كانتْ أيامُهُ كأنّها العقارِبُ تتعاقبُ جسمَهُ ـ أن يجيءَ بمثلِ قولِهِ: [من الخفيف]

تَعَـبٌ كلُّهـا الحيَـاةُ فَمَـا   أَعْجَبُ إلاَّ مِـنْ رَاغِـبٍ فـي ازْدِيَـادِ

وقس على ذلك كلَّ مَنْ قَالَ من الشعراء في جنسٍ ما هو بسبيلِهِ، فإنَّ هاجِسَهُ لا ينكرُ عليه، وإنْ تَوَارَدَ مع غيرِهِ فيه.

* * *

على أنَّ للتواردِ أسباباً غيرَ ما تقدمَ، منها **ما يكونُ وحيَ العينِ**، إذا نزَعَ الشاعِرُ منزعاً في صنعتِهِ، كقولِ عُمارةَ اليمني[1] في مصلوبٍ: [من الكامل]

وَرَأتْ يَـداهُ عَظِيْـمَ مـا جَنَتَـا   فَفَـرَّقَـا ذِي شَـرْقَـاً وذِي غَـرْبَـا

وَأَمَـالَ نَحْـوَ الصَّـدْرِ مِنْـهُ فَمـاً   لِيَلُـوْمَ فـي أَفْعَـالِـهِ القَلْبَـا

فإنَّ مَنْ ينزعُ إلى التعليلِ إذا شهدَ ذلكَ المشهدَ لا يجيءُ بغيرِ هذا المعنى.

* * *

ومنها ما يكونُ حادثةً تتَّفِقُ، أو حالةً تنزِلُ بالمرءِ، كقولِ جليلةَ أختِ جسّاسٍ[2] في الاستقادةِ من أخيها حين قَتَلَ زوجَها: [من الرمل]

لَـوْ بِعَيْـنٍ فُقِئَـتْ عَيْـنٌ سِـوَى   أُخْتِهَـا فَـانْفَقَـأَتْ لَـمْ أَحْفِـلِ

---

(١) هو عُمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي اليمني، أبو محمد، مؤرخ ثقة وشاعر أديب فقيه، من أهل اليمن (ت ٥٦٩ هـ).

(٢) هي جليلة بنت مرة الشيبانية، شاعرة فصيحة، من ذوات الشأن في الجاهلية، ت نحو ٥٠ ق هـ، وأخوها هو جسّاس بن مرة بن ذهل بن شيبان، من بني بكر بن وائل، شجاع شاعر، من أمراء العرب في الجاهلية، ت نحو ٨٥ ق هـ، وهو الذي قتل زوجها كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي، وكان من الشجعان الأبطال، ويقال اسمه وائل، وكليب لقب له، وكان سيد الحيين بكر وتغلب في الجاهلية، وبقتله بدأت حربُ البَسُوسِ بينهما التي دامت ٤٠ عاماً.

وكقول ابنِ حسانٍ[١] فيما كتبَ به إلى النعمان[٢] يستنجِدُهُ ، وكانَ له ظهيراً :

إنَّمَا الرُّمْحُ فاعْلَمَنَّ قَنَاةٌ   أو كَبَعْضِ العِيدَانِ لَوْلا السِّنَانُ

ومنها **الأسلوبُ** ، فإنَّ من الشّعراءِ من يبني القافيةَ بالبيتِ ، ومنهم من يبني البيتَ بالقافية ، والتوراد كثيرٌ بينَ هذهِ الطائفةِ ، كقولِ النابغةِ ، وكانَ الأصمعيُّ يتعجّبُ من جَوْدتِهِ : [من البسيط]

وَعَيَّرَتْنِي بَنُو ذُبْيَانَ خَشْيَتَهُ   وَهَلْ عَلَيَّ بِأَنْ أَخْشَاكَ مِنْ عَارِ

فلمّا مرّت هذه القافيةُ بأبي تمّامٍ ، وكان في معناها ، قالَ وأبدع كما ترى :

خَضَعُوا لِصَوْلَتِكَ التي هيَ عِنْدَهُمْ   كَالمَوْتِ يَأْتِي لَيْسَ فِيهِ عَارُ

ومنها **دِلالةُ الكلامِ بعضِهِ على بعضٍ ، إذا وفّاهُ القائلُ قِسْطَهُ من الصَّنْعَةِ** ، وقد سمعَ ابنُ عباسٍ[٣] رضيَ الله عنهما قولَ ابنِ أبي ربيعة : [من المتقارب]

تَشُطُّ غَداً دارُ جِيرانِنَا

فقال :

وَلَلدَّارُ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ

وكذلك قال عُمر ، وما ينبغي أن يكون إلاّ هكذا ، ومثلُه يروَى عن الفرزدق[٤] حينَ سَمِعَ قولَ عديٍّ : [من الكامل]

تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ

فأكملَهُ بقولِهِ :

قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وكانَ يَعْرِفُ قافيتها ، وكذلكَ كانَ البيتُ .

---

(١) هو عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الخزرجي الأنصاري ، شاعر ابن شاعر (ت ١٠٤ هـ).

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري ، أبو عبد الله أمير خطيب شاعر من أجلاء الصحابة (ت ٦٥ هـ).

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي رضي الله عنهما ، أبو العباس، ابن عمّ رسول الله ﷺ، حبر الأمة وترجمان القرآن (ت ٦٨ هـ).

(٤) هو همّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي ، أبو فراس ، شاعر من النبلاء، من أهل البصرة ، ولقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه (ت ١١٠ هـ).

ومنها **اختلاسُ المَثَلِ من جملةٍ بعينها ، واشتراكُ المعاني ، كأنْ** تكونَ مستفيضةً في المناقلاتِ ، أو واقعةً لو شاءَ كلُّ امرىءٍ لوجدَ إليها مساغاً .

وكذلك **التمهيدُ بلفظةٍ تؤدّي إلى معنًى لا يكونُ منها غيرُهُ إذا عرضت للحاذقِ بصناعةِ الكلامِ** ، وغير ذلكَ مما مرجعُهُ في الغالبِ إلى ما تقدمَ .

ومثلُهُ لا يكونُ سَرِقَةً يعابُ بها قائِلُهُ ، ما دامَ على شريطةِ الشاعرِ ، فإنَّ التفاضلَ إنّما يكونُ في ابتكارِ الأشياءِ على طريقةِ الشعرِ ، لا على طريقةِ النظمِ .

وقد قالَ أميرُ المؤمنينَ : لولا أنَّ الكلامَ يعادُ لنفدَ .

وسُئِلَ [أبو عمرو] بن العلاءِ : أرأيتَ الشاعرينِ يتَّفِقَانِ في المعنى ، ويتواردانِ في اللفظ ، لم يلقَ واحدٌ منهما صاحبَه ، ولا سمعَ شعرَهُ؟! .

قال : تلك عقولُ رجالٍ توافتْ على ألسنتِهَا[1] .

وقيلَ لأبي الطيبِ مثلُ ذلكَ فقالَ : الشِّعْرُ مَحَجَّةٌ ، فربما وقعَ الحافِرُ على موضعِ الحافرِ[2] .

* * *

أما **السرقة** فقدْ اجتمعَ أهلُ البَصَرِ بالشعرِ على أنّ أبا عُذْرَةِ الكلامِ مَنْ سبكَ لفظَه على معناهُ ، وهم يريدونَ بذلكَ أنْ يكونَ ما بَيْنَ قلبِهِ ولسانِهِ أنفاساً تتردَّدُ شعراً[3] .

وقالوا : إنهُ ليسَ لأحدٍ من أصنافِ القائلينَ غنًى عن تناوُلِ المعاني ممن تقدَّمَهُم ، والصّبّ على قوالبِ مَنْ سبقَهُم ، ولكنْ عليهم أن يبرِزُوا ما أخذوهُ في معارضَ من تأليفهم ، ويؤدُّوه في غير حليتهِ الأولى ، ويزيدوا في حُسن تأليفه ، وجودةِ تركيبِهِ ، وكمالِ حِليته ومعرضِه ، فإذا فعلوا ذلكَ فَهُمْ أولى بها ممّن سبق

---

(١) العمدة (٢/ ١٠٨٧) .

(٢) المصدر السابق ، والمحجة : الجادة .

(٣) انظر العمدة (٢ : ٧٦٣) .

إليها ، وهو كلامٌ لا يُمْتَرى فيهِ ، ولكنْ شَرْطُهُ ما ذكرناه لكَ من قبلُ ، واعْتَبِرْهُ بمثلِ قولِ سعيدِ بنِ حميدٍ[1] : [من الكامل]

يَـا لَيْـلُ لَـوْ تَلْقَـى الـذي أَلْقَـى بِهَـا أو أَجِـدُ
قُصِّـرَ مِـن طـولِـكَ أو أُضْعِـفَ مِنْـكَ الجلـدُ

فقد أخذه المتنبي وهذَّبهُ في قولِهِ : [من الطويل]

أَلَـم يَـرَ هـذا اللَيْـلُ عينَيْكِ رؤيَتِي فَتَظْهَـرَ فيـهِ رِقَّـةٌ ونُحُـولُ

وأكثرُ ما يبدعُ أبو الطيبِ في مِثْلِ ذلكَ من الزيادةِ والتهذيبِ والتمهيدِ لمعنًى يأخذُهُ بما يدخُلُ منه إليه كقولِه : [من الطويل]

كَـرِيـمٌ نَفَضْـتُ النّـاسَ لمّـا بَلَغْتُـهُ كـأَنَّهُـمْ مـا جَـفَّ مِـنْ زَادِ قـادِمِ
وَكَـادَ سُـرُوْرِي لا يَفِـي بِنَـدَامَتِـي عَلَـىٰ تَـرْكِـهِ فـي عُمُـرِيَ المتَقَـادِمِ

فإنه من قولِ الوالبي[2] : [من الكامل]

وتَـرَكْتُـهُ يَبْكِـي بَقِيَّـةَ عُمْـرِهِ أَسَفَـاً لمـاضِـي عُمْـرِهِ المُتَقَـدِّمِ

* * *

وأعجبُ شيءٍ في أمرِ السَّرقةِ أنَّهُ قدْ وُجدَ من قَبْلُ مَنْ كانَ يقولُ لصاحبِ الكلمةِ الرائعةِ : «إيَّاكَ وإيَّاها ، لا تعودَنَّ فيها ، فإنِّي أحقُّ بها منكَ» وما كان يروى لغيرِ أبي نواسٍ معنًى بديعٌ يسمعُهُ في الخَمْرِ وهو حيٌ ، وإنّما هي شهادتُه على نفسِه .

ولم يزلِ الناسُ من قديمٍ ينظرونَ في وجوهِ المعاني من بناتِ غيرِهِم ، فيجدُ الآخِرُ مما تركهُ الأوّلُ ما لو عَلِمَ أنّه تركه لأوصى بدفنِهِ معهُ . . . حتّى قالَ بعضُ العلماءِ : إنَّ ابنَ الرومي كانَ ضَنيناً بالمعاني ، حَرِيصاً عليها ، يأخذُ المعنى أو يُوَلِّدُهُ ، فلا يَزالُ يقلّبُه بَطْناً لظهرٍ ، ويصرِّفهُ في كلِّ وجهٍ ، وإلى كلِّ ناحيةٍ حتى يميتَهُ ، ويعلمَ أنْ لا مطمعَ فيهِ .

ثم تجدُ مَنْ بعدَه قد أخذَ المعنى بعينِهِ ، فولَّدَ فيه زيادةً ، وأوجدَ له وُجهةً

---

(١) هو سعيد بن حميد بن سعيد أبو عثمان ، كاتب مترسل من الشعراء (ت ٢٥٠ هـ) .
(٢) هو مسلم بن معبد بن طوّاف الوالبي ، شاعر اشتهر في العصر الأموي .

حسنةً ، لا يشُكُّ البصيرُ بالصناعةِ أنّ ابنَ الروميِّ مع شرهِهِ لم يتركها عن قدرةٍ.

* * *

ومن المعاني ما يَبيَّهُ بعضُهُ على بعضٍ ممّا يكونُ وراءَ لفظةٍ أو تحتَ نادرةٍ ، حتّى لقد تجدُ في بُنيّاتِ الطريق[1] ما تستخرجُ منه المعنى الفَحْلَ ، والخاطرَ الرائعَ ، وللشاعر من ذلك فضلٌ لا يُغْمَطُ فيه حقه ، وكثيراً ما كان الطائيُّ[2] ينحو هذا القصد ، كما قال عنهُ ابنُ الرومي: «إنّه يطلُبُ المعنى ، ولا يُبالي باللفظِ ، حتى لو تمَّ له المعنى بلفظةٍ نبطيةٍ لأتى بها»[3].

* * *

ومن تلكَ المذاهبِ طريقةٌ كانَ يَذهَبُ إليها حُكماءُ الشِّعْرِ كأبي العتاهيةِ ، وابنِ عبدِ القدوس[4] ، والمتنبّي ، والمعرّي ، وأفرادِ هذه الطبقةِ ، وهي إيداعُ الدرِّ في الصَّدَفِ ، أو خَلْقُهُ فيه ، فكانَ الواحدُ منهم يقعُ على قولِ الحكيمِ ، فيقتطفُهُ ، ومنهم مَنْ يحوزُهُ بما يَسْتَفْرِغُ فيه من جهدِهِ كقولِ المتنبي: [من البسيط]

إنّـا لَفِـي زَمَـنٍ تَـرْكُ القَبِيـحِ بـهِ ... مِـنْ أَكْثَـرِ النّـاسِ إحسـانٌ وإجمـالُ

قالوا: أخذَهُ من قولِ الحكيمِ: مَنْ لَمْ يَقْدِرْ على فِعْلِ الفضائِلِ ، فلتكُنْ فضائِلُهُ تركَ الرذائلِ.

وقولُه: [من الخفيف]

وَإذا كَـانَـتِ النُّفُـوسُ كِبَـاراً ... تَعِبَـتْ فـي مُـرَادِهَـا الأجْسَـامُ

من قولِ الآخر: إذاكانَتِ الشَّهْوَةُ فوقَ القُدْرَةِ ، كانَ هلاكُ الجِسْمِ قبلَ بلوغِ الشَّهْوَةِ.

وكذلكَ قولُـهُ: [من الخفيف]

---

(١) بنيات الطريق: الطرق الصغار تتشعّب من الجادة. والمقصود أن هذه الألفاظ قريبة المتناول.

(٢) الطائي: هو حبيب بن أوس الطائي أبو تمام الشاعر العباسي المشهور (ت ٢٣١ هـ).

(٣) وجدوا هذه الكلمة في تسطيرات ابن الرومي في بعض اعتذاره عن أبي تمام ، وقد قال بعضهم: إنّ المرادَ معنى الصنعة البديعية لا معنى الكلام (ر).

(٤) هو صالح بن عبد القدوس الأزدي الجذامي مولاهم ، شاعر حكيم ، كان يعظ الناس بالبصرة (ت١٦٠ هـ).

وإذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ المَـوْتِ بُـدٌّ فَمِـنَ العَجْـزِ أنْ تَكُـوْنَ جَبَـانـا

ذكروا أنّه لبعضِ الحكماءِ في قولِهِ: خَوْفُ وُقُوْعِ المكروهِ قبل تناهِي المُدَّةِ جَوْرٌ في الطبيعةِ وذِلَّةٌ. وما أراه إلاّ مِنْ قول جريرٍ: [من الكامل]

قُـلْ للجَبَـانِ إذا تَـأخَّـرَ سَـرْجُـهُ هَـلْ أنْـتَ مِنْ شَـرَكِ المَنِيَّةِ نَـاجِي

غير أنَّ أبا الطيبِ كانَ يدبُّ إلى عرائسِ المعاني في غير ظلامٍ، ويستيقظُ لها والقومُ غيرُ نيامٍ، ولذلكَ وجدَها معهُ كما في قوله: [من الكامل]

قلقُ المليحةِ وهيَ مِسْكٌ، هتكُها [ومسيرُها في الليل، وهي ذُكاءُ]

وكان يأخذُه من هيبةِ الكلامِ أحياناً ما يسيءُ معهُ الاتباعَ، أو يبلُغُ به إلى إفسادِ المعنى.

وكذلكَ كانَ البحتريُّ في بعضِ ما سرقه من أبي تمّامٍ، وكثيرٌ غيرهُما ممن أذهلتْهُ المعارضَةُ، فلم يتتبعْ على نفسِه.

* * *

وجملةُ ما انتهى إليهِ الباحثونَ، ووقفَ عليه الحافظونَ، ممّا هو في معنى السرقةِ أنواعٌ:

منها **الاصطراف**: وهو أن يُعْجِبَ الشاعرُ ببيتٍ لغيرِه، فيصرِفَهُ إلى نفسِهِ، ويسمّى **اجتلاباً** و**استلحاقاً** إذا صرفه على جهةِ المثلِ، كقولِ النابغةِ: [من الطويل]

وصَهْبَاءَ لا تُخْفِي القَذَىٰ فَهْوَ دُونَها تُصَفَّـقُ فِـي رَاوُوْقِهَـا حِيْـنَ تُقْطَـبُ

تَمَـزَّزْتُهـا والـدِّيْـكُ يَـدْعُـوْ صَبَاحَـهُ إذا مـا بَنُـوْ نَعْـشٍ دَنَـوْا فَتَصَـوَّبُـوا

فقد استلحقَ الفرزدقُ البيتَ الأخيرَ في قولِه: [من الطويل]

وإجّـانَـةٍ رَيّـا الشُّـرُوْرِ كَـأنَّهـا إذَا غُمِسَـتْ فيهـا الزُّجَاجَـةُ كَـوْكَـبُ

تمززتها... البيت[1].

فإن ادّعى القائلُ شعرَ غيرِه جملةً فهو **انتحالٌ**.

فإنْ كان الشِّعْرُ لشاعرٍ حيٍّ غُلِبَ عليهِ فتلكَ **الإغارةُ** و**الغصبُ**.

---

(١) ذكروا أنه لايقال منتحل إلا لمن ادّعى شعراً لغيره وهو يقول الشعرَ، فأما إن كان لايقوله فهو مدّعٍ (ر).

فإن أخذَهُ هِبَةً فتلكَ **المرادفةُ والاسترفادُ** ، وقد استرفدَ نابغةُ بني ذبيانَ زهيراً ، فأمر ابنَه كعباً[1] فرفدَه .

فإن كانت السرقةُ فيما دونَ البيتِ فهو **اهتدامٌ** ، كقولِ النجاشيِّ[2] : [من الطويل]

وكنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيْحَةٍ وَرِجْـلٍ رَمَـتْ فِيْهَـا يـدُ الحَـدَثَـانِ

فأخذ كُثيِّرٌ[3] القسمَ الأوّلَ ، واهتدمَ باقي البيتِ فقال : [من الطويل]

وكنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيْحَةٍ وَرِجْـلٍ رَمَـىٰ فِيْهَـا الـزَّمَـانُ فَشُلَّـتِ

فإن تساوى المعنيانِ دونَ اللفظِ ، وخفيَ الأخذُ ، فذلكَ هو **النظرُ والمُلاحظةُ** .

وكذلكَ إن تضادّ أول أحدِهما على الآخرِ ؛ فإنْ حوّلَ المعنى إلى غيرِهِ ، فذلك **الاختلاسُ** .

فإنْ أخذَ بنيةَ الكلام فقطْ فتلك **الموارِبةُ** .

فإن جعلَ مكانَ كلِّ لفظةٍ ضِدَّها فذلكَ **العكسُ** .

قالوا : وإن صحَّ أنَّ الشاعرَ لم يسمعْ بقولِ الآخر ، وكانا في عصرٍ واحد فتلكَ **الموارِدةُ**[4] .

فإن ألّفَ البيتَ من أبياتٍ قد ركّبَ بعضها على بعض ، فذلك **الالتقاطُ والتلفيقُ** .

وأمثالُ هذا النوعِ كثيرةٌ اليومَ بين أيدينا ، لا ينفكُّ يدفَعُ بعضُها بعضاً ، وقد

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني ، أبو المضرب شاعر عالي الطبقة ، وفد على النبي ﷺ ، ومدحه بقصيدته المشهورة (بانت سعاد) وأسلم وحسن إسلامه (ت ٢٦ هـ) .

(٢) هو قيس بن عمر بن مالك من بني الحارث بن كعب من كهلان ، كانت أمه حبشية فنسب إليها ، شاعر هجّاء مخضرم ، (ت ٤٠ هـ) .

(٣) هو كثير بن عبد الرحمن الخزاعي أبو صخر ، شاعر متيم مشهور يقال له : (كثير عزّة) (ت ١٠٥ هـ) .

(٤) خصّوها كما ترى بوجود الشاعرين في عصر واحد لما كان من شأنهم في الحفظ والرواية ، وهو مشهور بحيث لم يكن يخفى عليهم شيءٌ من شعر الفحول ، فإذا وجدوا معنى لمتأخر يشبه معنى المتقدم حكموا بأنها السرقة ، وذلك لاينطبق على كل الأحوال كما قدمناه في التوارد (ر) .

ضربوا له المثلَ فيما سبقَ بقولِ يزيدَ بن الطَّثْرِيَّةِ[1] : [من الطويل]

إِذَا مَا رَآنِي مُقْبِلاً غَضَّ طَرْفَهُ ... كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ دُوْنِي يُقَابِلُهْ

فأوَّلُهُ من قولِ جَميلٍ : [من الطويل]

إِذَا مَا رَأَوْنِي طَالِعاً مِنْ ثَنِيَّةٍ ... يَقُوْلُوْنَ : مَنْ هٰذَا وَقَدْ عَرَفُونِي

ووسطُهُ من قولِ جريرٍ : [من الوافر]

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلاَبَا

وعَجُزُهُ مِنْ قولِ عنترة بنِ الأَخْرَسِ[2] : [من الوافر]

إِذَا أَبْصَرْتَنِي أَعْرَضْتَ عَنِّي ... كَأَنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلِي تَدُوْرُ

ومن تلكَ الأنواعِ ضَرْبٌ يسمّونَه كَشْفَ المعنى ، كقولِ امرئِ القيسِ : [من الطويل]

نَمُشُّ بِأَعْرَافِ الجِيَادِ أَكُفَّنَا ... إذا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ

كشفَهُ عَبْدَةُ بن الطبيبِ[3] ، وأبرزه في قوله : [من البسيط]

ثُمَّتَ قُمْنَا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ ... أَعْرَافُهُنَّ لأَيْدِيْنَا مَنَادِيْلُ

وذكروا أنّ من السَّرَقَةِ ما يكونُ مَجْدُوْداً في الشعرِ ، كقولِ عنترة : [من الكامل]

وَكَمَا عَلِمْتِ شمائِلي وتكرُّمي

رُزِقَ جَداً واشتهاراً على قولِ امرئِ القيس : [من الكامل]

وَشَمَائِلِي مَا قَدْ عَلِمْتِ وَمَا ... نَبَحَتْ كِلابُكِ طَارِقاً مِثْلِي

والتنقيبُ على مِثْلِ ذلك في الكثير من شِعْرِ اليومِ كحرارةِ الشَّمْسِ في الوَحْلِ ، لا تنضِجه آجُراً يُبْنَى به حتّى تكونَ قد بردتِ الشمسُ ، واستحالتْ فحمةً سوداءَ ، وطُوِيَتْ الأرضُ بِمَنْ عليها ، فلو نطقتِ المدافعُ بسرقاتِ هؤلاءِ الشعراءِ ،

---

(١) هو يزيد بن سلمة بن سمرة ، من بني قشير بن كعب من عامر بن صعصعة ، شاعر مطبوع من شعراء بني أمية (ت ١٢٦ هـ).

(٢) هو عنترة بن الأخرس بن ثعلبة بن صبيح الطائي ، ويعرف أيضاً باسم عنترة بن عكبرة ، وعكبرة أم أمه ، شاعر محسن فارس. والبيت في المؤتلف والمختلف (٢٢٦).

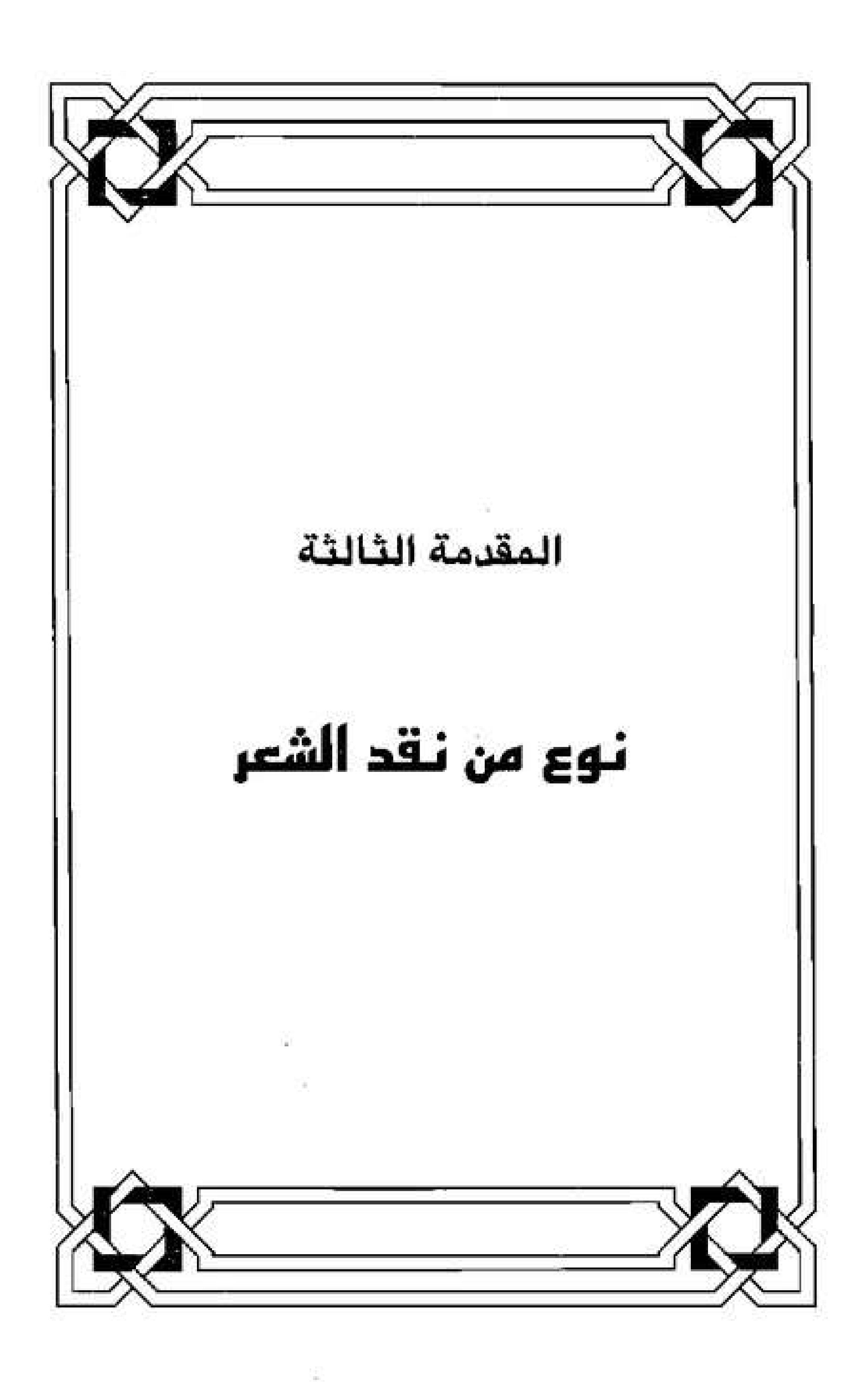
(٣) هو عبدة بن يزيد (الطبيب) بن عمرو بن علي التميمي ، شاعر فحل ، من مخضرمي الجاهلية والإسلام (ت ٢٥ هـ).

ما سمعَ أحدٌ ، ومن فُتِقَ مسمعُه ، فهيهاتَ أن يعيَ ، وإنْ وعى فمبلغُ ما يكونُ منه أن لا يزيدَ على الأسفِ: ولو أنَّ الحسرةَ تؤثِّـرُ شيئاً لانقلبَ الجوُّ ناراً ، ولكننا ننصفُ القومَ مِنْ أنفسِهم ، وهذا كتابنا ينطق عليهم بالحق وهم لا يظلمون[1] .

❑ ❑ ❑

---

(1) ديوان الرافعي (٢/٣ـ ١١) ط ١ عام ١٩٠٤ م .



المقدمة الثالثة

نوع من نقد الشعر

الشِّعْرُ تصويرُ عالمٍ حيٍّ من المعاني والألفاظ ، فالمُجيدُ مَنْ جعلَه مُخْتَصَراً من صورةِ العالم كلِّه ، ولا بدّ فيهِ منْ شعاعٍ من الروحِ ، إذا تجرّدتْ له النفسُ امتزجتْ لطافتها بلطافتهِ .

وربّما أُخِذَ المرءُ بلذّةِ التصوُّرِ ، فظنَّها في مكانِ نفسِه ، وَحسِبَ نفسَهُ في مكانِه .

ونحنُ ناظرونَ إلى نقدِ الشعرِ من هذهِ الجهةِ التي يتمثّلُ فيها حيّاً من الأحياء ، تتنازعُ أنواعُهُ البقاءَ ، فقد أفاضَ المتقدّمونَ في الأسبابِ التي يحسُنُ بها ما يَحْسُنُ من ظاهرِهِ ، ويقبُحُ منهُ ما يَقْبُحُ ، وجرّدوا الكتبَ في طبقاتِ الألفاظ ، ومخارجِ الأشعار ، وسقَطاتِ الكلامِ ، وألطفوا النظرَ في وجوهِ المعاني ومواضِعها ، وأصابوا منها صفةَ التمكُّنِ في مبادئها ومقاطِعها ، وإنّك لتَجدُ فيما وضعوه من علومِ البلاغةِ البحرَ الزّاخرَ بهذه الأمواجِ ، والفلكَ الدائرَ بتلك الأبراجِ .

غير أنّ الفَرْقَ بين باطنِ الشِّعْرِ وظاهرهِ كالفَرْق الذي يذكره أصحابُ الكلامِ بين المُعْجِزةِ والحِيلةِ. وانظر ما حدّثَ بهِ أبو ذكوانَ قال: أُدخِلْتُ إلى إبراهيم بن العبّاس[1] وهو بالأهوازِ لخدمتهِ ، فقال: ما تقول في شعرِ النابغةِ: [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ اللهَ أعْطَـاكَ سُـورَةً ... تَـرَىٰ كُـلَّ مَلْـكٍ دُونَهـا يَتَـذَبْـذَبُ
بِـأَنَّـكَ شَمْـسٌ وَالمُلُـوكُ كَـوَاكِـبٌ ... إذَا طَلَعَـتْ لَـمْ يَبْدُ مِنْهُـنَّ كَـوْكَـبُ

فقلتُ: ما عندي فيه إلاّ الظّاهرُ المشهورُ ، يقول: «فضلُكَ على الملوكِ كفضلِ الشمسِ على الكواكبِ» .

فقال: تفهمْ معناه قبل هذا . . . إنّما يَعْتَذِرُ إلى النعمان[2] من مدحِهِ آلَ جَفْنَةَ الغسّانيينَ ، وتركه له ، ويريدُ أنَّ له في مدحهم عُذراً. ألا تَرَىٰ قولَه : [من الطويل]

وَلَكِنَّنِـي كُنْـتُ آمْـرَءًا لِـي جَـانِـبٌ ... مِـنَ الأَرْضِ فِيـهِ مُسْتَـرَادٌ وَمَـذْهَـبُ

---

(١) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ، أبو إسحاق الصولي ، كاتب العراق في عصره (ت ٢٤٣ هـ) .

(٢) هو النعمان الثالث بن المنذر الرابع بن امرىء القيس اللخمي أبو قابوس من أشهر ملوك الحيرة ت نحوه ١ ق هـ.

مُلُـوكٌ وَإخْـوَانٌ إذَا مَـا أَتَيْتُهـمْ   أُحَكَّـمُ فـي أَمْـوَالِهِـمْ وَأُقَـرَّبُ
كَحُكْمِـكَ فـي قَـوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفَيْتَهُـمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ في شُكْرِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يقول: لا تلمني على شكري، وقد أحسنوا إليّ، إذ لجأتُ إليهم، وإن كانوا أعداءك، كما أحسنتَ إلى قومٍ شكروك عند أعدائِكَ، فقد أحسنوا ولم يذنبوا.

ثم قال: اعمل على أني أذنبتُ، فمن أينَ تجدُ مَنْ لا يذنِبُ؟ [من الطويل]

وَلَسْـتَ بِمُسْتَبْـقٍ أَخـاً لا تَلُمُّـهُ   عَلَى شَعَثٍ، أَيُّ الرِّجالِ الْمُهذَّبُ؟
فـإنْ أَكُ مَظْلُـومـاً فَعَبْـدٌ ظَلَمْتَـهُ   وَإنْ تَـكُ ذَا عُتْبـى فَمِثْلُـكَ يُعْتِـبُ

يقول: مثلُكَ يعفو ويُحْسِنُ، وإن كان عاتباً، وفي كرمك ما يفعل ذلك، ولك العتبى والرجوعُ إلى ما يجبُ. ثم فضّله عليهم، فقال: «ألم تر أنَّ الله أعطاك سورة» البيتين.

يقول: «ما صلحتَ أنتَ لي فإنّي لا أريدُ غيرَكَ من الملوكِ، كما أنَّ مَنْ طلعتْ عليهِ الشمسُ لم يحتجْ إلى النجومِ. اهـ.

فمثلُ هذا الشرحِ إنّما هو تشريحُ النَّفْسِ لأجزاءِ الكلامِ، ومثلُ ذلكَ القولُ إنّما هو غازُ العقولِ الذي يضيءُ في أسنَّةِ الأقلامِ.

* * *

يرتقي المبتَدِىءُ في الشِّعْرِ مِنْ مُطلقِ النَّظمِ الذي هو النمطُ المصطلَحُ عليهِ في إقامةِ الوزنِ إلى الفكرِ فيما يجيءُ بِهِ، فإذا صارتْ له هذِهِ المنزلةُ أدّتهُ إلى الخيالِ. فإذا ارتفعَ شيئاً بعدَ ذلك، فهو في جوِّ الروحِ الذي يسمُّونهُ التصوّرَ، وهناكَ حدُّ الطبيعةِ القائمِ، وحجابُ الغيبِ القاتمِ، فيكونُ في منزلةٍ بينَ الوحيِ والإلهامِ، ويمرُّ هناكَ خاطِرُهُ على النفوسِ، كما يتنقَّلُ على الأرضِ ظلُّ الغمامِ.

وتلكَ هي أطوارُ الشِّعْرِ من طفولته التي يعبثُ فيها بكلِّ شيءٍ، ولا يفقهُ شيئاً، إلى شبيبته التي يتماسَكُ فيها وقاراً ويندَفعُ، إلى شدَّتِهِ التي تعتصمُ بالحكمةِ وتمتنعُ، إلى مشيبه الذي هو نورُ الجمالِ، والحظُّ المقسومُ له من الكمال.

والشاعرُ في الطَّوْرِ الأوَّلِ كالصبيِّ في يدِهِ القوسُ، يُغْرِقُ في نزعها ما يغْرِقُ، ثم لا يكونُ إلا أنْ يسمعَ لها إرناناً ضعيفاً، فلا هو غلبَ وهمَه، ولا رمى سَهْمَهُ.

فإذا اشتدَّ ساعدُه ، وانتقل إلى **الطورِ الثاني** ، كان في منزلةٍ بينَ الخطأ والصوابِ.

فإذا بلغَ إلى **الثالث** أحكمَ التسديدَ ، واستوى عنده في الإصابةِ ما كانَ من قريبٍ ، وما كانَ من بعيدٍ.

ومتى صارَ إلى **الطور الرابع** ـ وهو منتهى كمالِه ـ حَسِبَ توزُّعَ الطير في الجوِّ لمخافته ، وتفرُّقَ الوحشِ في البرِّ لمهابتِه ، وصارتْ نظرتُه هي السهمُ ، لأنّه في أثرِها . ولفظتُه عن القَنِيْصةِ هي القضاءُ ، لأنّه في خبرِها.

وما يكن من عيبٍ في الشّاعرِ فلن تجدَ فيه كتسلُّطِ فكرةٍ عليه ، وعبثه بقوافيه ، فتراه ينظمُ الكلمةَ أبياتاً لا معرفةَ بينَ أولها وآخرها ، ثم يجيءُ بعدَ جفافِ الريقِ ، وتخلُّخلِ اللسانِ ، وانقطاعِ النَّفَسِ ، فيَمْضِي فيها اختيارَه ، ويأخذُ في التوفيقِ بينها وهي متنافرةٌ ، ويعملُ على التعريف ، وهي لا تزالُ متناكِرَةٌ ، فَمَثَلُ الكثيرِ من هذا الشعر مَثَلُ الكلمةِ المفرَدَةَ ، إذا نُطِقَتْ بجملَتِها أدّتْ إليكَ معناها على أتمِّ ما يكونُ ، فإذا فكّكتَ أحرفَها ، ولفظتَها حرفاً حرفاً ، انقلبت إلى قولٍ هُرَاءٍ ، ولم تزدْ على أن تكونَ أصواتاً ذاهبةً في الهواءِ.

وأولئكَ همُ الذينَ قال في شعرهم ابنُ ميّادة[1] : إنه «كلفةٌ وتملُّحٌ»[2].

فإذا لم يكنْ فكرُ الشّاعرِ عندَ إرادتِه ، ولم تكنْ إرادتُهُ عند اتجاهِ عواطِفِه ، أخذتْ عليه منافذُ القولِ فاختلَّ ، واضطربتْ جهاتُ رأيه فانحلَّ؛ وصارَ من نضوبِ المادّةِ في أخْرَةِ أمرِهِ كمنْ يكتبُ بقلمٍ ليسَ عليه إلاّ مِسْحةٌ من رَدْعِ المدادِ[3] ، فكلّما كَدَّهُ جَمَدَ ، وكلّما هزّه ركدَ ، فإذا كتبَ مع ذلكَ جاءَ الحرفُ مفرّقَ الجهاتِ ، لثيماً في الحروفِ ، فلا هو كتابةٌ ، ولا هو محوٌ.

---

(١) هو الرَّمّاح بن ثوبان الذبياني الغطفاني ، أبو شرحبيل ، شاعر رقيق هجّاء ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية وميادة أمه (ت ١٤٩ هـ).

(٢) ذلك قوله : [من الطويل]

فَجَـرْنَـا ينـابيـعَ الكـلامِ وبحـرَه ... فـأصبـحَ فيـه ذو الـرِّوَايَـةِ يَسْبَـحُ

ومـا الشِّعْـرُ إلا شِعْـرُ قيـسٍ وخِنْـدَفٍ ... وشِعْـرُ سِـوَاهُـمْ كُلْفَـةٌ وتملّـحُ

(٣) ردع المداد : أثره.

ولم أرَ فيما هو بسببٍ من هذا النوعِ كضطرابِ أبي كبيرِ الهُذَليّ[1] في مطلعِهِ الذي لم يكنْ في الشِّعْرِ أصبرَ منه على سوءِ عَبَثٍ صاحِبِهِ. وهو قولُه: [من الكامل]

أزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْدَلِ ... أمْ لا سَبِيْلَ إلى الشَّبَابِ الأوّلِ

ثم اضطربَ فيهِ مَرّةً أخرى فقال: «أزهيرُ هل عن شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرَفِ». ثم عادَ فقال: «أزهيرُ هل عن شَيْبَةٍ من مَعْكَم» أي: محبس، وروى الأصمعيُّ في الرابعة أنّه قال: «من مَقْصَرِ»... ورويتْ له خامسةٌ: «مِن مَعْكَرِ»... وهي بلّةُ هذا الطينِ.

ولا أظنُّ أنّ شاعراً يتخلّصُ إلى مثل هذا، ولكنّه على كلِّ حالٍ نوعٌ من ضغط الفِكْرِ على الإرادة، وهو قريبٌ كما ترى من ضَغْطِ الحُمّى على الفِكْرِ، فكلاهما هذيانٌ، وإنْ كانَ منه معقولٌ وغيرُ معقولٍ.

ولقد يحارُ المرءُ إذا نظرَ في شعر العرب، ورأى الكثيرَ منه لا يتعدّى الوزنَ والتقفيةَ، ولكنّ أكبرَ حظِّ القومِ من شعرِهم أن ينقلوا الكلامَ إلى نَمَطٍ يتّفِقُ مع النغمِ، كما ترى في غِناءِ هذا الأيام، فهو لا يزيدُ عن سائرِ الكلامِ إلا النمطَ والإيقاعَ، بحيثُ إنّكَ لو سمعتَه وقد جُرِّدَ من ألحانِهِ، لخرجتَ منه على حسابِ ما دخلتَ فيه، لا طربَ ولا عجبَ.

والغناءُ على أيِّ وجوهه ينقلُ النفسَ من تنقيبها بينَ الألفاظِ عمّا هو حَسَنٌ وغيرُ حَسَنٍ، إلى تحرُّكِها على الألفاظِ نفسها. وإنّما النظمُ العربيُّ أوزانٌ موسيقيّةٌ.

فكلُّ مَنْ جاءَ بعدَ العربِ من الشعراءِ لا ينظرُ إلاّ في أعطافِ اللفظِ، وتلاحُمِ الكلماتِ، وانتظامِ تلكَ المعاني القديمة، فهو من الجاهليةِ الثانيةِ، وإن كانَ الأوّلونَ قد سُمُّوا جاهليةً لعبادة الأوثانِ، فهؤلاء لعبادة الأوزانِ.

ويكادُ شِعْرُ العربِ ينحصِرُ في غرضين الشاهِدِ والمَثَلِ، فقد كانوا لا يطلبون من الشعرِ غيرهما، كما لا يطلبونَ من الخبرِ إلاّ الأيامَ والمقاماتِ. وكان أبدعُ ما يروجُ عنهم من أجلِ ذلك مساقَ الخبر، ومضربَ المثلِ، ومقطعَ الحكمةِ. والحكيمُ فيهم يومئذٍ نبيٌّ.

---

(١) هو عامر بن الحليس الهذلي، شاعر فحل، أدرك الإسلام وأسلم.

اعتبر ذلك بما تجده في أخبار الرواة إذا أرسلوا عنهم بيتاً ممّا نحنُ بصَددِ منه ، وهو شيءٌ مستفيضٌ في كلامهم ، فقد كان أبو عُبيدة[1] والأصمعيُّ ينشدان بيتي الطِرِمَّاحِ[2] ، وخيرُهما قولُه فِيمَنْ يَضْرِبُ في الأرضِ : [من الكامل]

يَبْـدو وتَضْمِـرُه البِـلادُ كـأنَّـهُ سَيـفٌ علـى شَـرَفٍ يُسَـلُّ ويُغْمَـدُ

ويقولانِ : هذا أشعرُ الناسِ في هذين[3] .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقولُ : لو ضُرِبَ زهيرُ أسفلَ قدميهِ مئتينِ على أن يقولَ مثلَ قولِ النابغة : [من الطويل]

فإنَّكَ كـالليْـلِ الَّـذِي هُـوَ مُـدْرِكـي وَإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عَنْكَ وَاسِعُ[4]

ما قاله . . . وزهيرٌ أشعرُ الجاهليةِ في كثيرٍ من شعرِهِ .

وعنِ الأصمعيِّ أنَّ أبرعَ بيتٍ قالتهُ العربُ قولُ أبي ذُؤيب[5] : [من الطويل]

والنَّفْـسُ رَاغِبَـةٌ إذَا رَغَّبْتَهـا وَإذا تُـرَدُّ إلـى قَليـلٍ تَقْنَـعُ

ومن هاهنا تجدُ مثارَ الخلافِ بينهم في قولهم : هذا أشعرُ الناسِ في كذا ، وذلكَ أشعرُ الشعراءِ . وغيرُهما أشعرُ الإنس والجنِّ ، وهلم جرّاً .

وما عدا ذلك ففي شعرِهم من الطُّرَفِ المُستنكَرةِ ما يغلُظُ على الطبعِ ، ويَثْقُلُ

---

(١) هو معمر بن المثنى التيمي مولاهم ، البصري النحوي ، من أئمة العلم بالأدب واللغة (ت ٢٠٩ هـ) .

(٢) هو الطرماح بن حكيم بن الحكم الطائي شاعر إسلامي فحل ، ولد ونشأ في الشام (ت ١٢٥ هـ) .

(٣) البيتُ الأوّلُ قولُه وهو كما ترى . .

مجتـابُ حُلَّـةِ بُـرجُـدٍ لِسَـرَاتِـه قِـدَداً ، وأخلـفَ مـا سـواهُ البُـرْجُـدُ

(٤) انتقد الأصمعيُّ هذا البيتَ فقال : إنّما تشبيهُهُ الإدراكَ بالليلِ فقد تساوى الليلُ والنهارُ فيما يدركانه ، وإنما كان سبيلهُ أن يأتيَ بما لا قسيمَ له ، حتّى يأتيَ بمعنًى منفردٍ ا هـ .

وليس كما فهمَ ، فإنَّ الليلَ والنهارَ وإن تساويا فيما يدركانه ، إلا أنَّ الليلَ مُضِلٌّ ، يأخذُ بالمذاهبِ ، ويحبِسُ الذاهبَ ، ويقبِضُ البصرَ ، غير ما فيه من الرَّوْعِ والهَوْلِ وتعفيةِ الأثرِ ، وهو ما أرادَه النابغةُ ، فإنَّ هذا البيتَ مِنْ بعضِ قصائدِهِ التي يعتذِرُ فيها إلى النعمانِ (ر) .

(٥) هو خويلد بن خالد الهذلي ، شاعر فحل ، وفارس فاتك مشهور ، أدرك الجاهلية والإسلام (ت ٢٧ هـ) .

على الذوقِ ، فمنهم مَنْ يشبِّهُ وجهَ الحسناءِ ببيضةِ النّعامِ ، ومنهم من يشبِّهُ جِسْمَه الناحِلَ بأشلاءِ اللجامِ . . . إلى غيرِ هذا مما تُهَجِّنُهُ الحضارةُ ، ولهم مع ذلك وَجْهُ عذرٍ فيه ، ومُنفَسَحٌ للّومِ عنهُ.

وإنّما ذكرناه مأخذاً على قومٍ جاؤوا بعدَهم ، فجعلوا الشِّعْرَ صُوَراً من تلك المعاني ، تتخطَّرُ في حَلْيٍ من الألفاظِ على أكثرِها صدأُ الركاكةِ وغبارُ القِدَمِ . . . فتراجعَ الشعرُ بينهم ، وتعطَّلتْ قرائِحُهُم ، حتى أصبحوا في اتّصالهم بمتنِ أولئك الشعراءِ كما شبَّه أبو هفّان[1] شعرَ آلِ أبي حَفْصةَ[2] الذين كانَ آخِرَ شعرائهم متوَّجٌ ، وكانَ رجلاً ساقِطاً ، وذلك في قوله: «شِعْرُ آلِ أبي حَفْصَةَ بمنزلةِ الماءِ الحارِّ ، ابتداؤه في نهايةِ الحرارة ، ثم تلينُ حرارتُهُ ، ثم يفترُ ، ثم يبردُ. وكذا كانت أشعارُهم ، إلاّ أنّ ذلكَ الماءَ لما انتهى إلى متوَّجٍ جَمَدَ. . . »[3].

وما زالَ هؤلاءِ وأمثالُهم يأخذونَ الشِّعْرَ على المَنْشَطِ والمكرَهِ ، ويدسُّونَه في أسماعِ الناسِ وصفاً وغَزَلاً ، ومَديحاً وهجاءً ، ولا أرى لهم في ذلك من مَثَلٍ إلاّ ما قيلَ عن مروان الأصغر بن أبي الجَنُوبِ[4] من أنّهُ دخلَ مرةً على أشناس[5] وقد مدحهُ بقصيدةٍ فأنشده إياها ، فجعلَ أشناسُ يحرِّكُ رأسَهُ ، ويومِىءُ بيديهِ ، ويظهِرُ طرباً وسُروراً ، وأمرَ له بصلةٍ ، فلمّا خرجَ قال له كاتِبُه: رأيتُ الأميرَ قد طَرِبَ وحرَّكَ رأسَهُ ويديهِ لما كان يسمعُهُ فقد فهمهُ.

قال: نعم.

قال: فأيُّ شيءٍ كان يقولُ؟

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي العبدي راوية ، عالم بالشعر والأدب من الشعراء ، من أهل البصرة (ت ٢٥٧ هـ).

(٢) ينتسبون إلى جدهم يزيد قيل: إنه كان يهودياً فأسلم على يدي مروان بن الحكم ، وقيل: إنه من سبي إصطخر ، شهد مع مروان يوم الدار ، ولما أصيب مروان حمله يزيد وعالجه حتى شفي ، فأعتقه مروان ، ونزل له عن أم ولد له كانت له منها بنت يقال لها حفصة ، فحضنها يزيد ، فكني أبا حفصة.

(٣) الخبر في الأغاني ١٢ : ٥٣.

(٤) مروان الأصغر بن أبي الجنوب بن مروان الأكبر بن أبي حفصة أبو السّمط ، وكان مروان هذا آخر من بقي منهم ، يعدّ في الشعراء ، عاش في عصر المعتصم.

(٥) أحد الأمراء الأتراك الذين جلبهم المعتصم (ت ٢٥٢ هـ).

قال: ما زالَ يقرأُ عليَّ «رُقيةَ الخبزِ» حتى حصَّلَ ما أرادَ وانصرفَ[1] . . .

وأعجبُ شيءٍ رأيتُه في تاريخ الشعرِ أنَّهُ كان عَصْرٌ يسمُّونَ فيه المولَّدَ (بالرقيقِ) ثم صارَ هذا الاسمُ عَلَماً بالغلبةِ ، وأُطلِقَ على الغَزَلِ السبطِ ، والرثاءِ السائلِ ، ثم عدّوا منه أنواعاً عرّفوها (بالألفاظ الملوكية) وأجروها في بعض التشبيهات والأوصاف وما إليها ، كأنَّ الشعرَ كان مَقضِيّاً عليه أن يبقى في الموتىٰ حتى يموتَ الأحياءُ. وأنْ يكونَ أهلُه نُصُباً على جانبي تلك البطحاء ، التي كان فيها شعراءُ الجاهلية ، وحسبُكَ أنّ أعداءَ ابنِ المعتزِّ لم يَرْزُوْا على غيرِ نحته وسبكِهِ ، ولم يحاولوا إلا إسقاطَه مِنْ بينهم[2] وهو بالإجماع في السطحِ من طبقاتِ الشعراءِ.

ومنتهى الحُمْقِ أن يتخذَ مولَّدٌ ذلك النمطَ الجاهليَّ ، فإنَّ السّرَّ في بقاءِ شعرِ الجاهليةِ والمُخَضرمينَ بعدَ أهلِهِ حاجةُ الرواةِ والعلماءِ إلى الشاهدِ منهُ ، فلمّا أسقطوا الاستشهادَ بكلامِ المولّدين ، لما يدخلُ عليهم من الغَلَطِ ، ولضعفِ الثقةِ بلغتهم ، سقطت هذه الطَبَقةُ بعلّةٍ طبيعيةٍ ، وهي سنّةُ بقاءِ الأنسبِ.

والعربُ إنما ابتدأت الشعرَ بما كانَ عندَها من جزالةِ اللفظِ ، وإتقانِ بنية القريضِ ، وإحكامِ عَقْدِ القافيةِ ونحوِها ، ممّا هو طبيعةٌ فيهم ، فكانَ على مَنْ يخلفُهم أن يأخذَ في زُخرفِ البناءِ وزينتِهِ ، بعدَ أن يكونَ قد تمّ منهُ ما لم يتم ، وهو الذي فعله أبو تمام والمتنبي ومَنْ في طبقتهما من أهل القوّة والكفاية ، ثم كان على من يجيءُ بعدَ هؤلاء أن يزيدوا فيهِ من تُحَفِ عصورِهم ومدنيَّتِها طبقةً بعد طبقةٍ حتى يكونَ ذلك الموضعُ ديواناً للتاريخ تُرَتَّبُ فيهِ العصورُ ، وتقفُ على أبوابِهِ الدّهورُ ، ولكنّا نجدُ إلى عهدنا طوائفَ تنقضُ ذلك البناء ، وتقيمُ على أساسِهِ ، فلا يلبثُ أن يقعَ الاثنانِ معاً.

* * *

والشِّعْرُ أقسامٌ كانتْ محدودةً على ما نوّعها أبو تمّامٍ في (حماستِهِ) ، ثم جاءَ

---

(١) قالوا: أوّلُ مَنْ تكسّبَ بالشعر النابغةُ الذبيانيُّ حينَ قَبِلَ الصلةَ على شعرِهِ ، وخضعَ للنعمان (فسقطتْ منزلتُه) وأثرىٰ. وإنّما كانتِ العربُ قبلَه تقولُ الشعرَ فكاهةً أو مكافأةً على يدٍ (ر). قلت: وخبر مروان مع أشناس في الأغاني ١٢ : ٥٦.

(٢) في الأصل: ولم يحالوا إسقاطه إلا من بينهم.

مَنْ تفنّنَ فيها ، وذهبَ بها كُلَّ مَذْهَبٍ ، كابن أبي الأصبع[1] وغيره . وقرأتُ أنّ البديعَ الإسطرلابي[2] رتّبَ ديوانَ ابنِ حجّاج[3] على مئة وأربعين باباً وواحد ، ثم قفّى كُلَّ بابٍ ، وجعله في فنٍّ من فنونِ شِعْرِ الرجالِ .

ولكنَّ الذي قُطع بالشعر العربي دونَهُ ، إنّما هو النوعُ الذي يسمّيه الإفرنجُ بالشعر القصصي ، ومنهُ الملاحم الكبرى عندهم كالإلياذة وغيرِها . والبسيطُ منهُ نادرٌ في العربيةِ ، بل هو في بسطتها كالظلِّ ، شيءٌ كلا شيءٍ . حتى إنّ أبا هلالٍ العسكريَّ[4] لمّا أورد في كتابه الذي سمّاه (ديوان المعاني)[5] أبياتَ وضّاح اليمنِ[6] المشهورةَ التي أوّلها : [من السريع]

قــالَــتْ: ألا لا تَلِجَــنْ دارَنَــا إنَّ أَبـــانَـــا رَجـــلٌ غـــائِـــرُ

وهو يذكرُ فيها محاجّةً بينهُ وبينَ صاحبتِهِ في مدافعةِ الوَصْلِ وحُكْمِ الدّلالِ متوخياً إيرادَ البرهانِ ، وجلاءَ المعنى على وَجْهِ البيانِ . عقّبها هناك بقول المؤمّلِ[7] : [من المنسرح]

وطَــارِقَــاتٍ طَــرَقْنَنِــي رُسُــلاً وَاللَّيْــلُ كــالطيْلَسَــانِ مُعْتَكِــرُ

---

(١) عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الإصبع العدواني البغدادي المصري ، شاعر من العلماء بالأدب (ت ٦٥٤ هـ) .

(٢) هو هبةُ الله بن الحسين أبو القاسم ، المعروف بالبديع ، فيلسوف من علماء الأطباء ، ومن كبار علماء الفلك ، من أهل بغداد (ت ٥٣٤ هـ) .

(٣) ابن حجّاج هذا رجلٌ من شعراء العراقِ ، كان في القرن الرابع للهجرة ، وكانَ كثيرَ السُّخْفِ في شعرِه ، يمزجُهُ بلغاتِ الخُلديين والمُكدّين وأمثالهم ، وهو النمطُ الذي انفردَ بِهِ ، وما عدا ذلك فهو كما قال الثعالبي صاحبُ (اليتيمة) ٣ / ٩٩ «مُلَحُ ابنِ حجّاجٍ لا تنتهي حتى يُنتهى عنها» واسمُ هذا المجموع الذي رتّبهُ الاسطرلابي (درّةُ التاج مِنْ شعرِ ابنِ حجّاجٍ) (ر) . قلت : وابن حجّاج اسمه الحسين بن أحمد .

(٤) هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، عالم بالأدب ، له شعر ، نسبته إلى عسكر مُكْرم من كور الأهواز (ت ٣٩٥ هـ) .

(٥) اختار العسكريُّ هذا الديوان من شعر الشعراء إلى أيامه ، وجعله في اثني عشرَ باباً . (ر)

(٦) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال من خولان من حمير ، شاعر رقيق الغزل ، عجيب النسيب ، وفي المؤرخين من يسمّيه عبد الله ت نحو (٩٠ هـ) .

(٧) هو المؤمل بن جميل بن يحيى بن أبي حفصة ، شاعر غزل ظريف ، من أهل المدينة يعرف بقتيل الهوى (ت ١٧٠ هـ) .

وهي مدافعةٌ كالأولى. ثم قال العسكريُّ: «وهذا أصعب ما يرامُ مِنَ الشِّعْرِ، ولا يكادُ يوجَدُ في هذا المعنى أحسنَ من هاتين المقطوعتين».

ذلك لأنَّ الشعر العربيَّ روحُ هذه اللغة، وهو من اللطافةِ بحيثُ لا يُضيءُ فيه المعنى إلاَّ بشعاعٍ من الخيالِ، فإذا أردتَ أن تقيمَ منهُ حديثاً سَوِيَّ التركيبِ، كاملَ الترتيبِ، زَوَتْ عليكَ القافيةُ، وتقطَّعَ الشعرُ، فلا تدري مِنْ أينَ تأخذُ، ولا مِنْ أينَ تدعُ، كالنُّورِ اللطيفِ، تحاولُ أن تلقيَ عليهِ كثافةَ الغطاءِ، فإذا هو منبسطٌ فوقَ ما تلقي، فمهما تأتِ من ذلكَ لا تكونُ قد صنعتَ شيئاً.

ورأسُ هذا الأمر عندنا على ما يقولُ شَبِيْبُ بن شَبَّة[1]: «حظُّ جودةِ القافيةِ ـ وإن كانت كلمةً واحدةً ـ أرفعُ من حظِّ سائرِ البيتِ».

فلا بدَّ لهذا النوعِ في لغتنا من وضعٍ جديد، يكونُ وسطاً بينَ النثرِ والنظمِ، حتى يحمِلَ الألفاظَ والمعانيَ معاً، فيتعلَّقَ فيه الشعرُ بالنفْسِ، ويمتدَّ السِّياقُ على النفَس، كما فعلَ الأندلسيون في وضعِ الموشَّحاتِ لحاجتهم التي بعثتهم عليها، والعصر يومئذٍ لهوٌ وترفٌ، والأدبُ مجدٌ وشرفٌ.

وأساسُ هذا الشعرِ سلامةُ الذوقِ[2]، فهي الحاسَّةُ التي تتجه بها النفسُ إلى المعاني، وتنقلِبُ عنها، بل هي العينُ المركَّبةُ في الروح، تجمَعُ جمالَ الطبيعةِ في نظرةٍ واحدةٍ، فتنقلُه إلى الإحساسِ، كما تُمدُّ العينُ الباصِرةُ بمرئياتها وَهْمَ المخيِّلة.

ومنَ الشعراء مَنْ يكونُ سقيمَ الذَّوقِ، فهو في نظرِهِ إلى الشعرِ مع فسادِ ذوقِهِ كاللصِّ في نظرتِهِ إلى الحسناءِ، إذا وسوسَ حَلْيُها في مَسْمَعِهِ. يَغْفلُ منها عمّا ينتبهُ إليه الناسُ، وينتبه لما يغفلونَ عنه.

ومِنْ هؤلاءِ طائفةُ الشعراءِ المُصنعين، وهم الذين لا حظَّ لهم إلاَّ في (الصنعةِ الشعريةِ) وفنونها لا تعدُّ، فيجيئونَ بالقصيدةِ كلِّها رُقَعٌ، ثم هم يتنافسون في هذا

---

(١) شبيب بن شبة بن عبد الله التميمي المنقري الأهتمي أبو معمر، أديب الملوك، وجليس الفقراء، وأخو المساكين ت نحو (١٧٠ هـ).

(٢) انظر في معنى لتذوق مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله «المتنبي ليتني ما عرفته» في «جمهرة مقالاته» (٢: ١١٣٣ ـ ١١٨٩).

التصدير ، ولا يدرونَ أنّ الثوبَ الساذجَ من قطعةٍ واحدةٍ خيرٌ من هذه الرقعِ كلِّها ، وإن كانت من أنفسِ الخزّ والديباج .

وانظر ما يكونُ موقعُ هذا الثُّقَلِ من نفوسِ الأدباءِ ، فقد أرادَ ديكُ الجنِّ الشاعرُ مرّةً أَنْ يهوِّلَ على دِعْبِل[1] ، ويقرعَ سمعه ، فأنشده بيتاً مضطرباً . . . فقال له دِعْبِل : اسكتْ ، فوالله ما ظننتُكَ تُتِمُّ البيتَ إلا وقد غُشِيَ عليكَ ، أو تشكّيتَ دماغَك . ولكأنّي بكَ في جهنم تخاطِبُ الزبانية ، أو تخبّطَكَ الشيطانُ من المسِّ .

والعلّةُ الطبيعيةُ في بؤسِ الشعراءِ هي ذلك الإحساسُ المتّصل بالنفسِ ، فكلّما غمَزَتْهُ المؤثّراتُ تحوّل منه بمقدارِ الضغطِ بخارٌ روحانيٌّ ، ينتشِرُ حولَها ، وذلك هو الشِّعْرُ .

وقد ترى النفسُ فيه ضوءاً كأنّه تبسُّمُ القلبِ الحزينِ ، الذي تشابه جلالُ الطبيعة بجلالِه . لأنها مخلوقةٌ في رأيِ النفس على مثالِهِ .

وقد يكونُ للشاعرِ مُتَّسعٌ في غلوِّهِ وكبريائهِ على هذه الطبيعةِ إلا في العواطفِ التي هو روابِطُ القلوبِ بالقلوبِ ، وموضعُ الصّلةِ بينَ ما في الوجودِ وما وراءَ الغيوبِ ، فقد يَضْرِبُ في كلامه بسيفٍ لم يُطبعْ ، ويرمي بقذيفةٍ لم تُصْنَعْ ، ويقطَعُ من خيوطِ الحياةِ ما لم يُقْطَعْ ، ولكنّه فيما دونَ ذلك لا يقدِرُ أن يذكُرَ الحُبَّ مِنْ قلبٍ لم يُحِبْ . ويثبِتَ للشيءِ الذي لم يجرِ عليه حكمُ الوجوبِ شيئاً مما يجبُ . فإذا هو فعلَ أطفأتِ الطبيعةُ مِنْ رُوائِهِ . وقامتْ عواطِفُ النّاسِ شاهدةً على كَذِبِهِ في ادّعائِهِ .

وقد ذكروا أنّ كسرى سمعَ الأعشىٰ يتغنّى ذاتَ يومٍ بقوله : [من الطويل]

أَرِقْتُ وَما هذَا السُّهادُ الْمُؤرِّقُ ... وما بيَ مِنْ سُقْمٍ وما بيَ مَعْشَقُ

فقال : ما يقولُ هذا العربيُّ؟

قالوا : يتغنّى بالعربيّةِ .

فأمر أنْ يفسّروا قولَه ، فقالوا : زعم أنّه سَهِرَ مِنْ غَيْرِ مرضٍ ولا عِشْقٍ .

فقال : هذا إذاً لصٌّ . . ؟

---

(1) دِعْبِل بن علي الخُزاعي ، أبو علي ، شاعر هجاء ، أصله من الكوفة (ت ٢٤٦ هـ) .

وللشعر أساليبُ تنتجها القرائحُ[1] ولكنَّ جماعَ القولِ فيها أنَّها تمثيلٌ للطبيعة ، فكأنَّ الشاعِرَ ينقُلُ مناظِرَ الأرضِ إلى الروحِ العاليةِ ، التي ترسِلُ إلى الجسمِ شعاعَ الحياةِ ، فتزيدُ تلكَ المناظرُ في قوّةِ الشعاعِ الإلهي ، فلا يتَّصِلُ بالجسمِ حتّى تفيضَ هذه القوّةُ على القلبِ ، فتهزّه الهزّةَ التي نعرِفُ منها الطربَ .

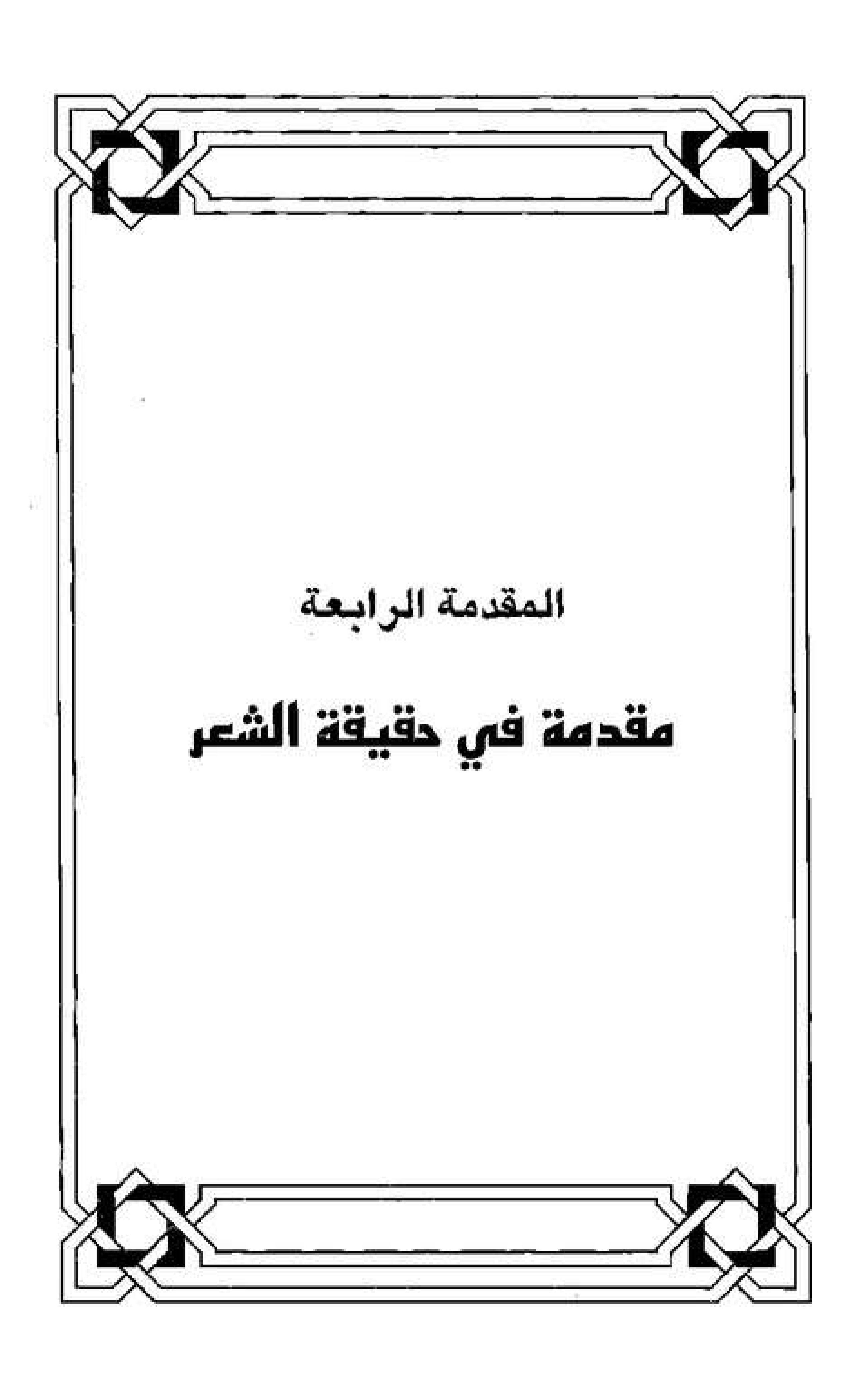
فأيُّ امرىءٍ اجتمعتْ له قوّةُ التمثيلِ وسلامةُ الذّوقِ ، وهما يكونانِ عند سَعَةِ العَقْلِ ، وسموِّ الطبعِ ، فذلك الذي هو في معناهُ بين الملَك والإنسانِ ، وهو الشاعِرُ[2] .

❑ ❑ ❑

---

(١) رأينا أن نفرد هذا الموضع بالكلام لأنه تاريخُ العقول ، ولعلَّ ذلك يكون إن شاء الله في مقدمة (ديوان النظرات) ، قلت : نظراً لتعلق هذه المقدمات بعضها ببعض سردتها جميعاً وجعلتها مقدمة واحدة لهذا الكتاب .

(٢) ديوان الرافعي (٣/٣ ـ ١٢) ط (١) عام ١٩٠٦م .



المقدمة الرابعة

مقدمة في حقيقة الشعر

ليست هذه المعاني الشعريةُ إلا ظلالاً لما في الطبيعةِ ، وإنْ مثلّتْها القلوبُ حقائقَ منفردةً ، فإنَّ قلبَ الشاعرِ بينها وبين الطبيعةِ كالمرآةِ تُظهِرُ أشباحاً قائمةً ، وهي على الحقيقةِ غيرُ أشباحٍ. وتمثّل لكَ الأرواحَ في الأجسامِ ، وليستْ على انفرادِها من الأجسامِ ولا مِنَ الأرواحِ.

فترى الشّاعرَ ينقلُ الوردةَ إلى روضةِ بيانِه ، فتنبتُ فيها خدّاً ، ويغرِسُ الغصنَ الناعم ، فيستقيمُ هناك قدّاً ، ويأتيك بلحظةِ العينِ ، فيطبَعُ منها الحسامَ ، ويتناولُ ظلالَةَ الأهدابِ ، فيريشُ منها إلى الأفئدةِ السهامَ ، أو يَعقِدُ مِنْ ظلالها شرَكاً ينصِبُهُ لسوانحِ المُنى في أوْديةِ الغَرامِ ، وهو في ذلكَ يُعيرُ النفوسَ أجنحةً ترفعُها إلى جوّ الخلودِ ، فتجمعُ إليها نَضرةَ العالم في نَظْرةٍ ، وتطالِعُها فطرةُ المادّةِ ، كأنما تقرأُها من الشعرِ في خَطْرة.

وهذا المعنى في الشعراءِ أكبرُ من أنْ يكونَ قوّةً أرضيّةً ، فلا بدّ أن يكونَ الشاعرُ إنساناً فوقَ الإنسانِ ، واعتبرْ ذلك بأخلاقهِ ، فإنّك لا تجده إلا أقربَ إلى الملَكِ أو أقربَ إلى الشيطانِ ، وعَلى إحدى الجهتين مِنْ هذا التأويلِ يقولُ ملحدو الفلاسفةِ : إنّ الدياناتِ من مختلقات الشعراءِ.

وكأنّما الشعرُ نوعٌ من **علم سياسة النفس** ، فترى الشاعرَ يُداوِرُ الأمورَ ويُريغُها طلباً لمأتاها ، والتماساً لما يُسيغها. ثم يزعجُ النفسَ في الغرضِ الذي يلقيه إليها عن موضعِ الاطمئنانِ الطبيعي به إلى جهةٍ من الشك الخيالي فيهِ ، ثم يردُّها إلى موضعها الأول ، فتكون في حركتها هذه قد اضطربت بمقدارِ ما أفسح لها ، وهذا الاضطرابُ هو الذي يكونُ منهُ الشعورُ.

والكلامُ لا يُرسَلُ إلا تمثيلاً للأغراض التي تراد بهِ ، ولكنّ هذا التمثيلَ على إطلاقهِ ليس من صنعةِ الشعر خاصةً ، بل يجيءُ الشعرُ وسيلةً لتمثيلِ روحِ الغرضِ ذاتهِ ، وإفاضةِ الإحساس عليها حتى تتفزّز ، فتتصلَ بالنفس ، فتأنسَ بها للشبهِ الروحيّ بينهما.

وأنتَ لا تجدُ للفظةِ «الحُبّ» معنًى كبيراً في ذاتها ، ولكنّ الشاعرَ متى وضعَ لها صفةً وهيئةً فمثَّل المُحِبَّ والحبيبَ. وعقد لها طرفينِ من الغَزَلِ والنسيبِ. وتناولَ أصواتَ هذه المعاني فلحنَّها على نَغماتِ الأنين. وجعلَ لها متنفَّساً بين تأوُّهاتِ الحزينِ. واستوفى هذه الصفةَ عَلَى أُصولِ التمثيل الشعري ، وأحكمَها على مقتضى صنعتِهِ ، فحينئذٍ ينفتحُ لك بابُ «الحبّ» ، فترى عالَماً بينَ أرضٍ وسماءٍ. تلك أفئدةٌ تنبتُ بالأشواقِ ، وهذه أعينٌ تمطرُ بالبكاءِ.

ثُمَّ يَمْثُلُ بك الخيالُ في مملكةِ الجمالِ أَمامَ ذلك العرشِ الذي قامتْ أركانُهُ عَلى القلوبِ ، واستوى عليهِ دلالُ الحبِّ ممن يسمّونَهُ المحبوبَ. فأخذَ يقسّم الحظوظَ ، ويُصرِّفُ الغيوبَ ، بينَ أرواحٍ مشرقةٍ ينساحُ[1] ضوءُها ، وأرواحٍ تجنحُ للغروبِ. على أنّي مهما بلغ لك هذا القلمُ في التصويرِ ، فلا أراهُ استمدَّ مِنْ بيانِ «الحُبّ» وبهائه أكثر من تلك «النقطة» الساقطةِ من بائهِ.

وليسَ يحتاجُ ذلك التمثيلُ ـ الذي عرفتَ ـ في تمام تصويرِهِ إلى الوزنِ لولا أنَّ الوزنَ ألحانٌ تساعِدُ المعنى الشعريَّ في تهيئة النشاطِ للنفسِ ، حتّى ليُخيَّلَ إليك إذا أنشدتَ أنَّ آخرَ ينشدُ معك ، فالوزنُ بهذا الاعتبار كأنَّهُ لونٌ جديدٌ في التصوير الشعريِّ ، بل هو للنفسِ عندَ صورةِ الشعرِ أشبَهُ شيءٍ بالنورِ الذي يتألّقُ فيه ماءُ الصورةِ ، ويتلألأُ رونَقُها ، فهو يكشِفُ عن تمامِ حُسْنِها. كما يكشِفُ الضوءُ من الغمامةِ عن صفاءِ مُزْنِها.

ولهذا تجدُ من يُصابي الشعرَ ، فلا يقيمُ إنشادَه ، ولا يستوفي منهُ مواضعَ النَّبْرِ والإرسالِ والتَّرتيلِ[2] ، كمن يكسِرُه ، فلا يقيمُ وزنَهُ ، ولا يتمُّ حُسْنَه. وإنّكَ لتسمعهُ من كليهما أنكرَ صوتٍ ، حتّى لو بلغتْ فيكَ رِقَّةُ الطبعِ لفَضَّلْتَ على كُلِّ كلمةٍ مِنْهُ كلمةً تُشْتَم بها ، لِتَجدَ[3] فيها عَلَى الأقلِّ لذة الحلم.

ومثلُ ما عرفتَ من هذا ما تعرفُه من الشعرِ الذي انهدم فيه ركنُ التخييلُ ،

---

(١) يتبسط (ر).

(٢) (النبر) رفعُ الصوتِ ببعضِ أحرفِ الكلمةِ ، و(الإرسالُ) خلافُه ، و(الترتيلُ) التمهل وتحقيقُ الحروفِ والحركاتِ (ر).

(٣) في الأصل للجدّ.

فبقي طللاً ، لا هو بناءٌ ، ولا هو فناءٌ ، فإنَّ الأصلَ في الشعرِ هذا التخييلُ ، ثم تأتي صحّةُ التأليفِ ، التي تجدُدُ مادّته في انتباهِ مَنْ يُلْقَى إليه ، وما يَقْطَعُ بالشاعرِ إلا وقد ضَعُفَ معه نظامُ المناسباتِ ، وهو صِحّةُ التأليفِ ، التي قِوامُها التخيُّلُ ، حتى إنّهُ ليستطيعُ أن يجمعَ العالَمَ كلَّه في قصيدةٍ واحدةٍ ، إذا هو استطاعَ أن يجدَ المناسباتِ التي تؤلّفُ بينَ مفرداتِهِ المتنافرةِ.

وترى بينَ مُتنحلي الشعرِ مَنْ لا يجدُ في طبعِهِ قوّةَ التخييلِ ، فكلّما نظمَ أخلى[1] ، ولذلك يعمدُ إلى الألفاظِ التي هي مَظنّةُ الشعرِ كالتي تعبّرُ عن العواطفِ مثلاً ، فلا يزالُ بها حتّى يقعَ منها على الحيلةِ في إخراجها مخرجَ الشعرِ على ما يتوهّمُ ، فهو بذلكَ ينبّه النفسَ إلى ما أَلِفَتْ أن يكونَ فيه سرورُها من تلكَ الألفاظ ، كالحُبِّ والوَجْدِ ، والسعادةِ والمَجْدِ ، ولكنّه يطردُها للشعرِ مِنْ غيرِ أن يُحْكِمَ المناسباتِ التي تفيضُ عليها الإحساسَ ، وتمدُّها منه بالحياةِ ، فلا تبلغُ النفسُ أن تنبسطَ لكلامِهِ انبساطَ الحيِّ حتّى تجمدَ جمودَ الميتِ ، فإنَّ الشاعرَ بألفاظِهِ تِلكَ بين حواشي معانيها التي ترفُّ عليها النفوسُ ، **كأنما يطوفُ بالجنازةِ في الأعراسِ** ، ويجدُ لفسادِ طبعِهِ وجهاً من الشَّبه بينَ ما يُزَفُّ إلى المقاصيرِ ، وبينَ ما يُحْمَلُ إلى الأرْماسِ[2].

* * *

وليس هذا الشعرُ في الألفاظِ من حَيْث تُرسَلُ ، ولكنّه في المؤثرات التي تُستخدمُ فيها ، فإنَّ الطفلَ أول ما يقولُ «بابا» يُستطارُ بها أبوه فَرَحاً ، والطفلُ لم يزدْ على أنْ تلفّظَ بأحرفٍ طبيعيةٍ ، لم يبعثْهُ عليها فِكْرٌ ، ولا هو تصوَّرَ لها معنًى ، ولكنَّ أباه كلّما تعمّلَ أن يحكيها تنفّسَ قلبُه لتلكَ المحاكاةِ بالاعتبار الذي يأتيها مِنَ الصلةِ النفسيّةِ بين الأبِ وابنهِ.

وكذلك الشاعِرُ فيما يحاكي من صفاتِ الطبيعةِ وتشبيهاتها ؛ فإنّه يجيءُ بها فوقَ ما هي في ذاتها ، بما يمتُّ إليها من أسبابِ الصلةِ بينها وبينَ النفوسِ. فكأنَّ الشاعِرَ والنفسَ يتساقطانِ الحديثَ ، فيُنصِتُ حتّى يعيَ كلامها ، وتُنصتُ حتّى تعيَ كلامَهُ.

---

(١) لم يصب معنى (ر).

(٢) القبور.

ولذلك ربّما اهتزّت النفسُ للشعرِ الذي لا يَرَىٰ فيه الناقدُ غيرَ لفظٍ منسجمٍ ومعنًى مبذولٍ ، بل ربّما اهتزّتْ من ذلك أيضاً لما عسى الناقدُ أن يجدَ فيه المغمز ، ويصيبُ المقالةَ ، ولكنَّ بعض ألفاظه تتناول من المعاني ما يذكّرُ النفسَ بأحوالٍ ربّما كانت منسيّةً في جانبِ التصوُّرِ ، أو كان للنفس فيها شيءٌ من الهوى ، فتهيمها الذكرى ، وتنحدرُ على تلك الألفاظِ المنسجمةِ ، فتزيّنُ معناها البسيطَ من تصوّرها بمثلِ ما يحيطُ مِنْ ألوانِ الأفقِ بالشمسِ إذا غربتْ ، فإنَّ نورَها الخافتَ لا يكادُ يُلقَىٰ على تلكَ الألوانِ حتّى تتناسبَ جميعُها ، فيكونُ قُرصُ الشمسِ كأنّهُ لونٌ منها في صفحةِ السماءِ ، وبذلك يخرجُ عن صورةِ الجِرم المضيءِ إلى هيئةِ الضياءِ ، وتكتسي الشمسُ من تلكَ الألوانِ في نظرِ المتأملِ على ما بها من السَّقَمِ أحسنَ صفاتِ الجمالِ في الحسناءِ.

وعلى هذا كان الشّعْرُ ، لا تخلُصُ حقيقتُه إلى النفوس إلا إذا أصابَ منها هوًى موجوداً فيها ، أو هوًى يوجِدُه هُوَ ، فالشعرُ لذّةٌ مقيّدةٌ بمعنى المناسبة إلى الأغراضِ ، وهي نتائجُ الحوادثِ تختلفُ باختلافها ، فإنّ المَكْرُوْبَ مثلاً لا ينشَطُ لبيتٍ منَ التهنئةِ ، والطَّروبَ لا يُقْبِلُ على بيتٍ من الرثاءِ ، وبهذا الاعتبار كان لا بدَّ منَ تنويعِ الشعرِ ، والافتنانِ فيه ، فإنْ لم يكن الشاعِرُ محدّثاً بما في القلوبِ ، فإنَّ كلامه منها لبعيدٌ.

* * *

ومنَ الشّعْرِ تامٌّ وبسيطٌ ، لأنّ الفِكْرَ أيّ نوعٍ كان ، إنّما يسقطُ من حادثةٍ هزّها تصوُّرُ الإنسانِ ، فكلُّ ما صوّرَ الفكرُ في ذاتِهِ فهو **الشّعْرُ البسيطُ**.

أما **التّامُّ** فهو الذي يُعيده سيرتَه الأُولى بعدَ أنْ يُجمّلَها بالخيالِ ، ويكمّلَها بذلكَ الجمالَ ، فيجعلَه جزءاً من حادثةٍ يسوقُها على وجهها ، ويحملها إليك بجملتها ، ويلقيها في نفسِكَ ، فتجدُ لموقعِ الفكرِ منها نَفَساً من اللذّةِ أشبه شيءٍ بالهواءِ الذي يتنفس بِهِ الماءُ حينَ يضطربُ.

واعتبرْ ذلكَ بقولِ القائلِ في العتابِ : [من البسيط]

لَـوْ أنَّ مَـا أنْتُـمْ فيـهِ يـدُومُ لكُـمْ ... ظَنَنْـتُ مـا أنـا فيـهِ دائمـاً أبـدا

لكـنْ رأيـتُ اللّيـالـيَ غيْـرَ تـارِكَـةٍ ... مـا سَـرَّ مِـنْ حـادثٍ أو سـاءَ مُطَّـرِدا

فَقَـدْ سَكَنْـتُ إلـى أنّـي وَأنَّكُـمُ ... سَنَسْتَجِـدُّ خِـلافَ الحـالَتَيْـنِ غَـدا

ألا ترىٰ أنّهُ لو ابتدأَ المعنى الذي طردَ لهُ البيتينِ الأَولينِ من غيرِ أنْ يوطِّىءَ له تلكَ التوطئةَ لجاءَ الشعرُ مُخْتَسَباً[1] غيرَ تامٍّ.

وكذلك قول الربيعي[2]: [من البسيط]

كـأنّـني ثَمِـلٌ مَـرَّ النَّـدِيـمُ ضُحًـىٰ عَنْـهُ بـأَقْـداحِـهِ مِـنْ بَعْـدِ مِيثَـاقِ
فَكُـلُّ كَـفٍّ رآهـا ظَنَّهـا قَـدَحـاً وكُـلُّ شَخْـصٍ رآهُ ظَنَّـهُ السَّـاقـي

ومثلُ هذا كثيرٌ، وسواءٌ فيهِ تمامُ الشِّعْرِ في البيتِ الواحدِ وفي البيتين والأبيات.

وإنّما ينفذُ بِكَ في مضايقِ هذه الطريقِ، ويدلُّكَ على منافِذها ما أضاءَتْ بهِ القرائحُ في علومِ البلاغةِ، التي استخرجوا فيها أسرارَ العربيّةِ، واستنبطوا دقائِقَها، وهي علومٌ تتبيَّنُ النقصَ فيمَنْ لا يعرفُ محاسنَها مِنَ المتأخّرينَ معرفةَ مُمارسٍ، **لا معرفةَ مُدَارِسٍ**، فهي ليست مما يُغني عنهُ الطبعُ كالعَروضِ ونحوِهِ على ما يزعمونَ في هذا الزمان، **الذي صار فيه الشكل المطبعيُّ عندَ كثيرٍ من نَشْءِ أُدبائِهِ قسماً من علم النحو... ولكنّها عقولٌ أذابها الفِكْرُ، فسال بها نَهْرُ الأدب إلى روضةِ لغةِ العربِ، بل أعمارٌ كانتْ طويلةً، فاختصرها القلمُ لمّا كتبَ.**

ولقد كان شعراءُ العربِ يستتمُّون مثلَ هذا النقص فيهم بالروايةِ، وإنّما استخرجتْ تلكَ العلومُ ممّا روي عنهم، حتى لقد سئل رُؤْبةُ[3] عن الفحلِ من الشعراءِ فقال: «هو الراويةُ» يريدُ أنّهُ إذا روى استفحل. قالوا: وإنّما ذلك لأنّهُ يجمعُ إلى جيِّدِ شعره معرفةَ جيِّدِ غيرِهِ، فلا يحمِلُ نفسَهُ إلاّ على بصيرةٍ.

ولا يكفي مثلُ ذلك في متأخّري الشعراءِ لمكانِ السليقةِ من الأَولينَ، وقوّةِ الطبع فيهم، فكانتِ الروايةُ لطباعهم كعودِ الثقابِ، إذا اقتدحَتْهُ فأدنيتَهُ من

---

(١) غير منقح، بل مرسلاً كما يجيء (ر).

(٢) هو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع، شاعر عباسي مطبوع، ومغنٍّ محسن، عاش في عصر الرشيد. انظر الأغاني ١٩/١٥٨ و١٦٧.

(٣) رؤبة بن عبد الله العجّاج التميمي، أبو الجحّاف، راجز من الفصحاء المشهورين توفي سنة (١٤٥ هـ).

المصباحِ لا ينشبُ أنْ يَعْلَقَ بِهِ ذلك النورُ ، فيبقى فيهِ بمقدارِ ما في المصباح من مادّةِ الإنارةِ.

وإذا كان الشعرُ ألفاظاً ومعانيَ ، وكانتِ الألفاظُ لا تتهيّأُ إلاّ لمن يستقرِئُها بالحفظِ ، ثم هي لا تُجاذَبُ ولا تُقتَسَرُ مكارَهةً ، بل لا بدّ لها من وجهٍ في التركيبِ تتأدّى عليهِ ، فيُبسط بِهِ البيانُ ، ويُنارُ بحسنِه البرهانُ. وكان هذا الوجهُ لا يخيَّلُ إلا بمرآةِ الطبعِ الصقيلِ ، ولا يُنظَرُ إلا بعينِ البصيرةِ التي جلاها علاجُ الدرس الطويلِ. فقد عُلِمَ ضرورةً أنَّ الشاعرَ إذا لم يشارِفْ هذه العلومَ ، التي هي قوانينُ الاستعمالِ ، ومادةُ الإبداعِ في تصويرِ ذلك المثال ، فقد رجعَ بمقْصِرٍ مما كانَ يحاولُ ، وتطاولَ ؛ ولكنْ مِنْ غير أن يطاوِلَ. **ولا عجبَ فإنَّ هذه المعاني إنْ كانت تمامَ حقيقتهِ ففي حُسْنِ تأديتها حقيقةُ التمامِ**[1].

□ □ □

(١) ديوان النظرات ، وهو هذا الكتاب. ص (٣ ـ ١٤) من الطبعة الأولى عام ١٩٠٨م.



نَظَمَهُ

مصطفى صادق الرّافعي



إرسموا شخصَ الوفا ثم انظروا من بعدُ رسمي
لو يسمىَّ في الأنام الحبُّ ما اختار سوى اسمي

يا حمى النيل

النشيد الوطني المصري[1]

[من مجزوء الرمل]

(١)

يا حِمى النيلِ الأمينْ لكَ في قلبي حَنينْ

لكَ إخلاصي المَتينْ وهوَى الأوطانِ دينْ

(٢)

مِصْرُ يا خيرَ وَطنْ مِصْرُ يَا أُمَّ الزَّمَنْ

لكِ مِنْ غيرِ ثَمَنْ كُلُّ عُمْري الثَّمينْ

(٣)

مِصْرُ يا أرْضَ الهَرَمْ أنْتِ مَدْفَنُ الأُمَمْ

أنتِ قَبْرُ مَنْ ظَلَمْ مَنْ يَدِنْ أهْلَكِ دِينْ

(٤)

أيُّ جبّارٍ قديرْ بعد ذا العصرِ المُنيرْ

يمنعُ الشّعْبَ البصيرْ أنْ يرى الحَقَّ المُبِينْ

---

(١) النشيد في اللغة الشعر المتناشد. (ر).

(٥)

مَـــنْ يَصِـــدْ نجـمَ السَّمـاء　　إذ يــــراهُ تحــتَ مـــاء

لا يَصِـــدْ تحـتَ الـسَّمــاء　　أمَـــلَ الشَّعْـــبِ الحــزيــنْ

(٦)

عِـــزُّ مصـــرَ غــايتـــي　　حُـــبُّ مِصْـــرَ آيتـــي

فَلْتُـــرَفْـــرِف رايتـــي　　ولهـــا منّـــي اليميـــنْ

(٧)

رايتـــي بنـــتُ الهـــلالْ　　فـــوْقَ هـــامــاتِ الـرِّجـالْ

مثْلُـــهُ فـــوقَ اللَّيـــالْ　　خـــالـــداً طُـــولَ السنيـــنْ

(٨)

قـــد نَهَضْنَـــا مِـــنْ ظـــلامْ　　بعـــد مـــا طـــالَ المَنَـــامْ

لـــلأمـــامِ لـــلأمـــامْ　　فلنـــا الحـــقُّ ضميـــنْ

(٩)

أذكـــروا المـــاضـــي ولا　　تُهْمِلـــوا المُسْتَقْبَـــلا

أوَّلاً فـــــأوَّلا　　ولنـــا اللهُ مُعِيـــنْ

□ □ □

نبأ مصر

وحالة الاجتماع فيها سنة ١٣٢٥ للهجرة وما آلمها

[من الطويل]

نَسيمٌ بِوادي ٱلنّيلِ غَيْرُ بِلَيلِ ... وَظِلٌّ بهذا الرَّوْضِ غَيْرُ ظَلِيلِ

فلا الأرضُ تلكَ الأرْضُ خِصباً لأهْلِهَا ... ولا ٱلنّيلُ في أرْضِ ٱلبلادِ بِنيلِ

نَقَضْنَا يَديْنَا وانزوَيْنَا أذِلَّةً ... وَأَضْيَعُ ما في ٱلنّاسِ حَقٌّ ذَلِيلِ

لَنَا كُلَّ يَوْمٍ ألْفُ رَأْيٍ وما لنا ... عليها مِنَ الأفعالِ فَرْدُ دَليلِ

نُقَلِّدُ ألفاظَ ٱلسّياسةِ عُمْرَنَا ... وَنَذْهَلُ عِنْدَ ٱلحَزْمِ أيَّ ذُهُولِ[1]

وَيا بُعْدَ ما بَيْنَ (ٱلصَّلِيلِ) وَهَوْلِهِ ... وَإنْ قَرُبا لفظاً وبَيْنَ (صَهيلِ)[2]

فلاسِفَةٌ فيما نَقُولُ، فلم نَزَلْ ... نَصُولُ على الدُّنْيا بِبَعْضِ نُقُولِ[3]

وما مِنْ حَديثٍ بَاتَ غيرَ مُشقَّقٍ ... ولا مِنْ جدالٍ باتَ غيرَ فُصولِ[4]

أفي كُلِّ يومٍ كاتبٌ يشرَعُ ٱلقنا ... ليقلبَ جَنْبَ الأرضِ بَعْدَ قليلِ

أفي كُلِّ يومٍ صارِخٌ ذو حَميَّةٍ ... يضجُّ بقالٍ في ٱلبلادِ وقِيلِ

أفي كُلِّ يومٍ شاعِرٌ ذو حَفيظَةٍ ... يخُطُّ سطوراً مِنْ دماءِ قتيلِ[5]

أيحسبُ ميزانَ ٱلسياسةِ في الورى ... كميزانِ مفعولاتِهِ وفَعُولِ

وأنْبِئْتُهُمْ يَسْتَصْرِخُونَ ليوقِظوا ... نياماً بليلٍ في ٱلمطالِ طَويلِ

---

(١) الذهول عن الشيء : تركُه على عهده ، أو نسيانه لشغلٍ (ر).

(٢) الصليل : صوتُ السيفِ يقعُ على السيف ، والصهيلُ صوتُ الفرسِ ، وهما قريبان لفظاً كما ترى (ر).

(٣) النقولُ : جمع نَقْلٍ ، والمرادُ الأدلّة المنقولةُ يستشهدُ بها (ر).

(٤) الحديثُ المشقّق : الذي يشقق بعضه من بعض ، وهي كناية عن ترديد كلّ قائلٍ ما يقوله الآخر (ر).

(٥) إشارة إلى حادثة دنشواي (ر).

فيا باذخَ اليمِّ اضطربتَ ولم تزد ... على نزواتٍ أعقبتْ بخمولِ[1]

(٢)

أَالآنَ والغرسُ الذي تُمْطِرُونَهُ ... ملايينُ لم تُثمِرْ ببعضِ عقولِ
صَغارٌ وجُبْنٌ خالعٌ في كبارِهم ... وأصغرُهُمْ غالتْهُ لفظةُ (غُوْلِ)[2]
تَخَيّلتُمُونا أهلَ كُلِّ عزيمةٍ ... كما خالَ قَصْراً ناظِرٌ لِطُلُولِ
ولا طَوْلَ فينا غيرُ نوعِ تطاولٍ ... ولا فضلَ فينا غيرُ بعضِ فُضُولِ[3]
بكلِّ سبيلٍ نُزْمِعُ السيرَ للعُلَى ... ونرتدُّ للسُّفْلَى بكلِّ سبيلِ

(٣)

تَأدَّوْا لغاياتِ المُنَى بأداتِها ... فما جَلَّ لا يبغيهِ غَيْرُ جَلِيلِ[4]
ألا إنما الداءُ الغَمِيضُ عقولُنا ... وما شجرٌ ينمو بغيرِ أُصولِ
وأَهْوِنْ بتفريجِ الأُمورِ ولفِّها ... إذا أُلقِيَتْ يوماً لغيرِ جَهُولِ

(٤)

تبايَنَ ما بينَ الرجالِ وكلُّهم ... عَلَى زعمِهِ بالأمرِ خيرُ كفيلِ[5]
فيا عصبةَ الأحزابِ رُدُّوا حلومَكم ... وجُرُّوا عَلَى غيرِ الثرى بذيولِ
فقد سطعتْ في مصرَ منكم عجاجةٌ ... ولكنَّها لاحتْ بغيرِ صليلِ
عجاجةُ صيفٍ قد أثارتْ قتامَها ... خيولُ سباقٍ لا ضراغمُ غِيلِ[6]
وما أنتُمُ في أمرِ شيءٍ مِنَ الهَوَى ... فما بالُ واشٍ بَيْنَكُمْ وَعَذُولِ
وأَحْيَيْتُمُوها سُنَّةً جاهليَّةً ... عداءَ أصيلٍ فِيكُمْ ودَخِيلِ

---

(١) **باذخ اليم**: موجُه المرتفعُ. والنزوات: الوثبات (ر).

(٢) إشارةٌ إلى مبدأ التربية المهول من التفزيع بالبعبع والغول (ر).

(٣) **الطَّوْل**: القدرة والسعة (ر).

(٤) **تأدى للأمر بأداته**: استعدَّ له بأسبابه (ر).

(٥) **تباين ما بينهم**: انقطع كُلٌّ عن صاحبه (ر).

(٦) **العجاجة والقتام**: ما يرتفعُ في الجوّ من غبار الوقائع. والضراغم: الأسود، والبيت إشارةٌ إلى استباقِ أكثر القوم غاية الشهرة من غيرِ اتحاد على مبدأ يناضلونَ عنه بحماسةٍ فطريةٍ (ر).

تَحَلَّوْا بِأَمْرِ ٱلعِلْمِ ، وٱسْتَجْمِعُوا له ... قُواكم ، فإنَّ ٱلعِلْمَ خيرُ دَلِيْلِ[1]
ولا تَخْلِطُوهُ بالنِّفَاقِ تقيَّةً ... وجُبناً ، فَظَهْرُ ٱلحقِّ غيرُ ذَلولِ
فما لكمُ إلا الذي تَعْمَلُونَهُ ... وإنْ تُبْدِلُوا مِنْهُ فَشَرُّ بَدِيلِ
أَلَمَّا تزالوا قاصرينَ فأَمرُكُمْ ... ضياعٌ إذا لم يَعْتَصِمْ (بوكيلِ)
تَقُوا عارَها مِنْ سُبَّةٍ تَتْرُكُونَها ... لجيلٍ ، ويلقيها الزمانُ لجيلِ

(٥)

أرى فتيةً كالغانياتِ تَدَلُّلاً ... تَميلُ معَ الأهواءِ كُلَّ مُمِيْلِ
تخالُ ٱلفتىٰ مِنْهُمْ على ظُلْمَةِ ٱلنُّهى ... لألوانِ ثوبيهِ سَماءَ أَصِيْلِ[2]
مَلُولٌ كما شاءَ ٱلهَوَىٰ ، واقتداؤُه ... بمن حولَهُ مِنْ خلَّةٍ وخَلِيْلِ
وما وجدَ الأعمالَ يوماً ، وإنَّما ... لِيَسْتَحْسِنُوا فِيْهِ دلالَ مَلُولِ
وظَنَّ ٱلفتى أنَّ (ٱلتمدُّنَ أنْثَوِي) ... فتابعَ فِيْهِ كُلَّ ذاتِ حَلِيْلِ[3]
تَماجَنَ في أشكالِهَا مِنْ مُصبَّغٍ ... إلىٰ كُلِّ مَجْلُوٍّ وَكُلِّ صَقِيْلِ
إلى اللفظِ حتى ما تكادُ شِفاهُهُ ... تُبِيْنُ بلفظٍ منهُ غيرِ نَحِيلِ
إلىٰ اللَّحْظِ حتَّى ما تكادُ جُفُونُهُ ... تطارحُ لحظاً مِنْهُ غيرَ عَلِيْلِ
دلالُ جميلٍ بالجمالِ مُهَنَّأٌ ... فآهِ عليهِ مِنْ دلالِ جميْلِ

(٦)

أُولئكَ هُمْ شُبَّانُنَا لو عَرَفْتُمُ ... وَهُمْ كُلُّ مَنْ في مِصْرَ غَيْرَ قَلِيْلِ
مَظَاهِرُ نُبْلٍ نافَقُوا في اصْطِنَاعِهَا ... ألا قُبِّحَتْ مِنْ صَنْعَةٍ لِنَبِيْلِ

(٧)

أَحَلْنا على غَيْبِ ٱلقضاءِ هُمُومَنَا ... وَأَيَّةُ سَلْوَىٰ في ٱلقضا لِمُحِيْلِ
وما نَحْنُ (أَهلُ الحكمِ) ندفعُ دَفْعَهُم ... فإنْ لم يُنِيْلُونا فأيُّ مُنِيْلِ

---

(١) تخلَّى بالأمر: انفردَ به ، وأفرده بالعناية (ر).

(٢) الثوبان هنا هما الثوب الظاهر كله ، والثوب الباطن بعضه ، كالقميص وما إليه (ر).

(٣) الحليلُ: البعل ، وقد جرت كلمة «التمدُّنُ الأنثوي» مجرى الأمثال (ر).

هُمُ عَوَّدُوْنَا الذُّلَّ ، ثُمَّ تَطَوَّلُوْا ... فَمَنُّوا عَلَيْنَا بَيْنَ كُلِّ قَبِيْلِ
ومَنْ عَوَّدَ الذُّلَّ الرِّجَالَ حَلا لَهُ الـ ... ـفَخَارُ إذا ما قَابَلُوْا بِقَبُوْلِ
فيا مِصْرُ أَنتِ السَّيْفُ صَقْلاً وجَلْوَةً ... وَلكِنْ بلا حَدٍّ (وَلَوْ بِفُلُوْلِ)[1]
ويا كَفَّ مِصْرٍ ذَلِكَ السَّيْفُ والوَغَى ... فَإِنْ تَسْتَطِيْعِي بَعْدَ ذاكَ صُوْلِي

(٨)

فُجِعْنَا بِمَا لا تُضْمِرُوْنَ حِذَارَهُ ... وَأَكْثَرُنَا مِنْ عَالَةٍ وَمُعِيْلِ[2]
فَيَا شُؤْمَها مِنْ أَزْمَةٍ تَرَكَتْكُمُ ... وأَوْلاكُمُ بِالفَخْرِ كُلَّ بَخِيْلِ
وَكَمْ أُسْرَةٍ تُمْسِي المَضَاجِعُ مِنْهُمُ ... تُقَلِّبُ طُوْلَ اللَّيْلِ كُلَّ هَزِيْلِ
يُعَدُّ رَغِيْفُ الخُبْزِ فِيْهِمْ (وَليمةً) ... لدى كُلِّ مُنْضَمٍ هناكَ ضَئِيْلِ[3]
أخافُ على أَرْضِ البلادِ وَنِيْلِهَا ... ذَهَابَهُمَا رَهْناً لِكُلِّ نَزِيْلِ
فَتُمْسِي عَلى نِيْلِ البلادِ وأَرْضِهَا ... كأنَّا على ماءٍ (وبَعْضِ وُحُوْلِ)
جَرَيْتُمْ سِرَاعاً للغِنَى تَطْلُبُوْنَهُ ... بِكُلِّ طَرِيْقٍ ، فاهْنَأُوْا بِوُصُوْلِ[4]
وإمَّا أرادَ المُقْعَدُوْنَ سلامةً ... فما (لصعودٍ) بينهم (ونزولِ)[5]
تصيحونَ بالمُحْتَلِّ تَسْتَبْعِدُوْنَهُ ... مُراغَمَةً ما أَنْتُم بِعُدُوْلِ
ألا فاطلبوا إِبَّانَنَا في بلادِنَا ... فإنَّ ضَيَاعَ المُلْكِ بَدْءُ رَحِيْلِ
ومَنْ يطلبِ الأمرَ البعيدَ ويُهْمِلِ الـ ... ـقريبَ يُضِعْ أَمْرَيْهِ بَعْدَ حُصُوْلِ[6]
أَظْمأُ نَفْسِي الآنَ والماءُ في يَدِي ... وَأَتْرُكُ للأنهارِ بَلَّ غَلِيْلِي
فلا تَتَوانَوْا! إنَّما الوقتُ فُرْصَةٌ ... تَمُرُّ ، وَمَرُّ الوَقْتِ غَيْرُ ثَقِيْلِ

❑ ❑ ❑

---

(١) **الفلول**: الثُّلَمُ التي ترى في حدِّ السيف ، وذلك الذي يعبِّرُ عنه العامةُ بقولهم في وصفه (ثالم) وهي جمع (فَلّ) بالفتح (ر).

(٢) **العالةُ**: من أعاله غيره ، والمعيل: من أعال غيره (ر).

(٣) **المنضم**: الضامر البطن من الجوع (ر).

(٤) هذه التهنئة في أسلوب التهكم (ر).

(٥) إشارة إلى المضاربات التي هي سبب البلاء (ر).

(٦) أي بعد حصول القريب من أمريه ، في يديه (ر).

على البعد

وهو موشح للغناء

[من الرمل]

(١)

يا نَسِيمَ الفجرِ يا طِفْلَ الرُّبى لاهياً فوقَ أراجِيحِ الشَّجرْ
كُلّما اختالَ على الأرضِ كَبَا فتَرامَى بينَ أحضانِ الزَّهَرْ
رَضيَ الروضُ عليهِ أمْ أبى فَهو لم يَشْكُرْ ولا قَطُّ اعْتَذَرْ
خُذْ لِمَنْ أهوى على ٱلبعدِ نَبَا إنَّ جَهْدَ ٱلشَّوقِ في ٱلبُعْدِ خَبَرْ
أَنْتِ يا مَنْ فيكِ أنسَى مَنْ أنا بَعْدَ ذَنْبِ الدَّهْرِ فينا لا عليكِ[(١)]

(٢)

أُنظري الليلَ تَرَيْ هَمَّ ٱلهَوَىٰ يَتَلوَّى ظُلَماً في ظُلَمِ
والْحَظِي ٱلنَّجْمَ تَرَيْ مَعْنَىٰ ٱلنَّوَىٰ كابْتِسَامِ ٱلمَوْتِ مِنْ فَوْقِ ٱلفَمِ
وإذا ما مَلَكَ الحُبُّ لَوَىٰ في الكَرَىٰ مِفتاحَ بابِ الحُلُمِ
وَتَمَثَّلْتِ ٱلعَذِيبَ واللُّوى وعهوداً في أمانِ الذِّمَمِ
فاجْعَلي الصُّبْحَ سلاماً بيننا إنَّ فيهِ رِقَّةً مِنْ شَفَتَيْكِ

□ □ □

---

(١) أي لا ذنب عليك (ر).

كتب الزهر

قال في محب يتأمّل الزهرَ وقد مات حبيبهُ:

[من الخفيف]

يا مُحِبّاً يمشي عَلَى الأَرْضِ والأَرْ   ضُ تضُمُّ الحبيبَ تحتَ التُّرَابِ

تَحْتَوِي ٱلظَّرْفَ والجمالَ وَقَلْباً   فيهِ سِرُّ ٱلهَوَىٰ وَسِرُّ ٱلشبابِ

إنَّما الزَّهْرُ مِنْ حَبِيبِكَ هٰذا   كُتُبٌ عِطْرُها سَلامُ ٱلغيابِ

❑ ❑ ❑

الخلق العجيب

لمّا هاجتِ ٱلهممُ للاكتتابِ في
إنشاءِ الجامعةِ ٱلمصرية[1] ثم
سكنتْ بعدَها إلى ٱليوم:

[من البسيط]

كَمْ مِنْ عجائبَ في ٱلمِصْريِّ خادِعةٍ	حتّى يُكَذِّبَ فيها عَيْنَهُ الرّائي
خُذْ مِنْهُ ما شِئْتَ مِنْ لَفْظٍ يَهِيمُ بِهِ	(أَهْلُ المَجازِ) مَتى مَنّى بِإِعْطاءِ
فَإِنَّ كالماءِ فَوْقَ النّارِ كِلْمَتَهُ	وَإِنَّ أَفعالَهُ كالنّارِ في ٱلماءِ

❑ ❑ ❑

(١) كان ذلك عام ١٩٠٨ م.

يوم البين

[من الطويل]

أَطَلَّتْ عَلَيْنَا الشَّمسُ إِذْ هَمَّتِ النَّوَى ... بنا وَبِهَا ، والْيومُ يَهْوِي وَيرْتَقِي

وَبِي رَمَقٌ منها لمِيقَاتِ ساعةٍ ... تَفَرَّقَ فيها ظِلُّ نَفْسِي لِيَلْتَقِي

إذا خَطَرَ الماضِي عَلَى القَلْبِ التَوى ... مَخَافَةَ أَنْ يَمْضِي عَلَيَّ الذي بَقِي

فيا عَجَباً لِلْبَيْنِ من جَزَعِ الوَرَى ... لأَيَّامِهِ مَنْ لم يُلاَقِ وَمَنْ لَقِي[1]

وما كانَ يَوْمُ البَيْنِ قَطُّ عَجِيبَةً ... إذا لم يكنْ ذا مَغْرِبَيْنِ وَمَشْرِقِ[2]

❑ ❑ ❑

---

(١) يجزعون ليوم البين حتى بلغ من ذلك أن جعله العامة دعاة ونبزاً (ر).

(٢) المغربان: مغرب الشمس ومغرب الحسن النائي (ر).

صوت الحياة

[من الخفيف]

إرْضَ بـالأمْـرِ مـا أتـاكَ إذا الأمْـ ـــرُ تَعَدَّى مَشِيئَةَ الإخْتِيَارِ[1]
أنتَ فـي ألعـالمينَ فَـرْدٌ ضَعِيفٌ وَمِنَ ألضَّعْفِ مَنْشَأُ الإضطرارِ
قَطْرَةُ البَحْرِ حِينَ تُفْرَدُ مِنْهُ لَيْسَ فيها شَيْءٌ مِنَ ألتَّيَّارِ
تَتَمَنَّى وَأَيْنَ مـا منكَ أمْرٌ هُوَ فَوْقَ استطاعةِ الإقْتِدَارِ[2]

* * *

قُدرَةُ ألمرءِ في الحوادِثِ ميزَا نٌ لِما بَعْدَها مِنَ الأقْدارِ
غَيْرَ أنَّ الأسبابَ تَضْعُفُ حيناً فَيَعُدُّونها مِنَ الأخطارِ
وارتياعُ ألقلوبِ إنْ فَزِعَ الجيـ ـشُ تراهُ حقيقةَ الإنكسارِ

* * *

لا تخفْ إنْ عدا الرَّجاءُ بعيداً أوْ رأيتَ الرَّجاءَ في إدْبارِ
لا تَخَفْ إنْ حَوادِثُ الدَّهْرِ مرَّت هُنَّ يَجْرِينَ مثلما أنتَ جارِي
لا تخفْ غَيْرَ جَهْلِكَ الدَّهرَ إذْ لبـ ـسَ بِوَرْدٍ يُشَمُّ كُلُّ احْمِرَارِ
إنَّما الدَّهْرُ خِيفَةٌ وانْتِظَارٌ فدَعِ الخَوْفَ وَاحْيَ بالإنتظارِ

❑ ❑ ❑

---

(١) همزت المصادر الخماسية في هذه القطعة ضرورةً ، ومن الضروراتِ ما لا تحكمُ على الشعراءِ ، ولكنَّ الشعراءَ يحكمون عليها ، ولذلك أجازَ العلماءُ في بعضها الإضطراد. والمقامُ لا يحتملُ بسطَ هذا البحثَ (ر).

(٢) (ما) هنا في (أينما) زائدة ، وقد ورد مثلُ هذا الاستعمال في الشعر القديم. قال بعضهم:

تمنَّى أن يلاقيني قُيَيْسٌ وددتُ ، وأينَ ما منّي ودادي

و(قييس) تصغير (قيس) اسم رجل (ر).

معنى في الحياة

[من الكامل]

لمَّـا نَبَيَّنْـتُ الحيـاةَ وَجَـدْتُها ... أُنْـسَ ٱلنفـوسِ بمـا تَمِيْـلُ إِلَيْـهِ
دَرَجَ ٱلمَـرِيْـضَ ٱلمَـوْتُ فـي أكفـانِـهِ ... وَمَضَـىٰ ، فَلِـمْ حَـزِنَ ٱلطبيـبُ عَلَيْـهِ

❑ ❑ ❑

زهر الفول

[من الخفيف]

(١)

نائِمَاتٌ بِرَوْضِهَا في سَرِيْرِ ... بَيْنَ خَزٍّ وسُنْدُسٍ وَحَرِيْرِ
هَزَّها الفَجْرُ ، فاستفاقَتْ ، كما تَطْـ ... ـرِفُ بعدَ الكَرَىٰ جُفُونُ ٱلصَّغِيْرِ
جالَ فيها ٱلنَّدى كما حَيَّرَ الدَّمْـ ... ـعَ دَلالُ ٱلْهَوَىٰ بأَهْدَابِ حُوْرِ
وَتَرَىٰ إِثْرَهُ إذا ساقَطَتْهُ ... قُبُلاتٍ بَسَمْنَ فَوْقَ ٱلثُّغُورِ
لَفْتَةَ الجِيْدِ ثُمَّ يَنْفَجِرُ ٱلشَّرْ ... قُ ، فَيَنْفِرْنَ نَفْرَةَ ٱلمَذْعُوْرِ
وَيَضِيْعُ ٱلنَّدَىٰ كما ضاعَ دَمْعٌ ... صَبَّهُ ٱلظُّلْمُ مِنْ عُيُوْنِ ٱلفقيرِ

(٢)

زَهَرَ ٱلفُوْلِ أَنْتَ نَضْرَةُ عُمْرِ ... عَطِرٍ مِنْ هَوَىٰ ٱلشَّبَابِ قَصِيْرِ
تُشْبِهُ الأَرْضُ جَنَّةً أَنْتَ فيها ... زَغَبُ الرِّيْشِ ساقطاً مِنْ طُيُوْرِ[1]
وَلَوَ أَنَّ النُّجُوْمَ ذاتُ قُشُورٍ ... لَحَسِبْنَاكَ بَعْضَ تلكَ ٱلقُشُوْرِ
يَحْمِلُ الصُّبْحُ مِنْ شَذاكَ عِتاباً ... رَقَّ مِنْ هَاجِرٍ إلى مَهْجُوْرِ
ليتَ هَذِي الزُّهُوْرَ كُنَّ يُعِرْنَ الدَّ ... مْعَ دَفْعَ ٱلسُّرورِ للمُسْتَعِيْرِ
قَطَرَاتٌ كأَنَّها خَطَراتٌ ... نَوَّرَ اللهُ سِرَّهَا لِضَمِيْرِ
مِنْ دُمُوْعِ ٱلمُنَىٰ تَلألأُ للقَلْـ ... ـبِ تُضِيءُ الحياةَ فِيْهِ بِنُورِ

❑ ❑ ❑

(١) الزَّغَبُ: صغارُ الريشِ ولينُه (ر).

على القياس

[من البسيط]

يا ظبيةَ الرَّوْضِ هَلْ في الرَّوْضِ مِنْ زَهَرٍ   للحُبِّ يَنْبُتُ بينَ الوَرْدِ وآلبَانِ

إنَّ الدُّمُوْعَ آلتي تَسْقي صُدُوْدَكِ لي   هي آلتي أَنْبَتَتْ يأسِي وَأَحْزَانِي

❑ ❑ ❑

قيمة الذمة وخيانة الوطن

[من السريع]

يـا مَـنْ يَخُـونُ الـوَطـنَ ٱلمُقْتَـدَىٰ ... يَطْلُـبُ أَنْ يَغْنَـىٰ وَأَنْ يَغْنمـا

لـو وازنـوا الأَرْضَ وأَمـوالَهـا ... بـذمَّـةٍ مـا بَلَغَـتْ دِرهمَـا

أَوَّلُ مَـنْ يُـزْرِي علـى خـائِـنٍ ... مَـنْ يَـرْغَـبُ الخـائـنُ أَنْ يُكْـرِمَـا

وإِنْ تَـرَ ٱلمظلـومَ يَـزجُـوْ هَنَـا ... ظـالِمِـهِ فـاعْتَـدَّهُ أَظْلَمَـا

كصاحِبِ ٱلشَّاءِ سطا الـذِّئْبُ في ... قَطِيْعِـهِ بِغْيَـةَ أَنْ يُطعَمَـا[1]

فجـاءَهُ يَنْصَحُـهُ مُخْلِصـاً ... أَنْ يَطْبَـخَ ٱلشَّـاةَ لكـي تُهْضَمَـا

❑ ❑ ❑

---

(١) الشاء جمع شاة ، والقطيع جماعة الشاء (ر) .

إلى شبّان العصر

[من الوافر]

غَنِيٌّ مِلءُ خَدَّيهِ ٱلمُدامُ
وَمِلءُ يَدَيْهِ للْغِيدِ ٱلسَّلامُ
تَلَطَّفَ لَفْظُهُ فهو ابتِسامُ
ودَلَّ على تدَلُّلِهِ ٱلقَوامُ

(٢)

تَمَدَّنَ «والتمدُّنُ» ما رأيْنا
رذائِلَ تُشْتَرىٰ نَقْداً وَدَيْنا
وأَخلاقٌ بها ضَحِكَتْ علَيْنا
لَدُنْ ذَكَرَتْ تَمَدُّنَنا الأَنامُ

(٣)

رأى ورأتْهُ غانِيَةٌ فَهَاما
وكُلٌّ منهما رَامَ مَرَاما
كَسَتْهَا صُفْرَةُ الذَّهَبِ ٱلسِّقَاما
وذلكَ كُلُّ ما فيهِ سَقامُ

(٤)

أَحَبَّـــــهُ لِتَجْعَلَـــــهُ مُحِبَّـــا
وَبَغْــضُ ٱلشَّــرِّ مِــنْ بعــضٍ بُــرِبِّــي
فمـــا زالـــتْ تُطـــاوِعُـــهُ وتـــأبى
إلـــى أن قـــادَهُ هـــذا الـــزِّمـــامُ

(٥)

تُـــرِيـــهِ ٱلشَّهْـــدَ مِـــنْ حُـــبٍّ وَوَصْـــلِ
ومـــا هـــذي ٱلغـــوانـــي غَيْـــرُ نَحـــلِ
تـــريـــدُ زُهُـــوزُهَـــا ذَهَبـــاً لِتُحْلِـــي
مَـــذَاقَ الـــوَصْـــلِ إنْ مَـــرَّ ٱلغَـــرَامُ

(٦)

وَيَحْسَـــبُ ثَغْـــرَهـــا عَـــرْضَ الأَمـــانِـــي
عليـــهِ حُبُّـــهُ مَلِـــكُ الـــزمـــانِ
بتـــاجٍ مِـــنْ ثنـــايـــاهـــا الحِســـانِ
فَيَجْمَـــحُ فـــي الجنـــونِ ويُسْتَهَـــامُ

(٧)

لَـــدَى مُلْـــكٍ يَصِيـــرُ لـــه إمـــامـــا
ومِـــنْ وُزَرَائِـــهِ فيـــه ٱلنَّـــدَامـــى
متـــى أســـداهُـــمُ ٱلنِّعَـــمَ الجِســـامـــا
فكُـــلُّ (زجـــاجـــةٍ) منـــهُ وِســـامُ

(٨)

وَمِـــنْ كـــأْسٍ إلـــى كـــأْسٍ تُـــدَارُ
عليـــهِ يَضِيـــعُ فـــدَّانٌ وَدَارُ
ومـــا أَبْقَـــاهُ إنْ أَبقَـــى ٱلقِمـــارُ
تُضيِّعُـــهُ ٱلنَّـــدامـــى وٱلمُـــدَامُ

(٩)

وَكَـــمْ هَـــمٍّ عليـــه غَمَّـــا
فلـــم يَعْبـــأْ بـــهِ والحُـــبُّ أَعْمَـــى
وَمِـــنْ حَـــظِّ ٱلبَهيمَـــةِ أَنْ تُغَمَّـــا
لِتَحْسَـــبَ أَنَّ رَجْعَتَهـــا أَمَـــامُ[1]

(١٠)

وراحَمَـــهُ فتًـــى أَغنـــى قليـــلا
فمـــالَـــتْ مَيْلَـــةً أَقْصتْـــهُ مِيـــلا
تُمِيـــتُ الحـــيَّ كـــيْ تُحْيـــي ٱلقتيـــلا
فبِئْســـتْ ذي الحيـــاةُ وذا الحِمـــامُ

(١١)

تُـــدافِعُـــهُ وقـــد ملكَـــتْ قِيـــادَهْ
كعـــادتهـــا وبِئْســـتْ تِلـــك عـــادَهْ
«فَقِـــرْشٌ» واحـــدٌ فيهـــا زيـــاده
تَقُـــومُ عليـــه حَـــرْبٌ أَوْ سَـــلامُ

(١٢)

فَغَـــارَ وَعُـــذْرُه الحُـــبُّ ٱلقـــديـــمُ
وبـــاحَ لهـــا بشكـــواهُ ٱلسَّقيـــمُ
لِيَعْطِفَهـــا وعَـــاطِفُهَـــا كَـــرِيـــمُ
ونـــاحَ كـــأنَّمـــا سَجَـــعَ الحمـــامُ

---

(١) الهمُّ: الحزن للماضي والغم: الحزن للآتي. وغم البهيمةَ: وضع لها الغِمَامة بالكسر، وهي الخريطة التي تربط بها عيناها، والعامة تسميها «الغُمَى» بالضم (ر).

(١٣)

أماناً مِنْ جفونكِ لي أمانا
فقد صيَّرْنَ لحظكِ لي سِنَانا
بَلى صَوَّرْنَ لي أنَّ الزَّمانا
بِمَا فيهِ عَلَى كبدِي سِهامُ

(١٤)

لهجركِ لوعةٌ ليستْ تَهُونُ
فما نارُ الجَحِيْمِ ولا تكُونُ
كهجركِ إذ تنمُّ به ٱلعيونُ
فيَصْرِفَها وَيَعْطِفَها ٱلمَلاَمُ

(١٥)

تَغِيْبُ الشمسُ في ظُلُماتِ رُوحي
عَلَى شَفَقٍ من الجَفْنِ ٱلقَرِيحِ
وفي أُفُقٍ مِن ٱلقَلْبِ الجريحِ
لِيُطْلِعَ فجرُها مِنْكِ ابتسامُ

(١٦)

فَأَوْحَى لحظُها وَحياً خَفِيّا
إليهِ وَنِكَ هاتِ ثم هَيَّا
فبنَ يَدَيْكَ إنْ تملأ يديّا
وللسَّبّاقِ يَنْفَرِجُ الزِّحَامُ

(١٧)

وأمسِ مضى وماتَ ٱلهَجْرُ فيه
وهذا ٱليومُ حظٌّ نَصْطَفيهِ
وَيَومَ غدٍ غرامٌ نَجْتَلِيهِ
وَبَعْدَ غدٍ على الدُّنيا ٱلسلامُ

(١٨)

فما اصْطَلَحَا ودارَ ٱلبدرُ شَهْرًا
له حتّى اسْتَحَالَ الحظُّ فَقْرًا
فكيفَ رمَىٰ الحسابَ رآه صِفْرًا
وكيفَ أعادَهُ فهُوَ ٱلتمامُ

(١٩)

وقد قَطَعَتْ بهِ سَفَرَ ٱلشبابِ
سفينُ الكأسِ في بحرِ ٱلشَّرَابِ
وأَلْقَتْهُ عَلَى بَرِّ الخرابِ
كما طُرِحَتْ إلى ٱلقبرِ ٱلعِظَامُ

(٢٠)

رآهُ فَتًى فقالَ: علامَ هُنْتَا
وكَيْفَ عدَا الزمانُ وكيفَ أنتَا
فَهَذِي (ٱلبنتُ) قَدْ جعلتْكَ بِنْتا
فَأَشْبَهَهَا سلامُكَ والكَلَامُ

(٢١)

وقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ هذا ٱلبلاءِ
كأنَّكَ بعضُ أطيارِ ٱلهواءِ
تَعِيشُ مِنَ ٱلفضاءِ وفي ٱلفضاءِ
وثروتُها مِنَ الدُّنيا ٱلطَّعَامُ

(٢٢)

كَرُمْتَ عَلَى ٱلتي سَلَبَتْكَ جَدًّا
وكُنْتَ تَظُنُّ بُخْلاً أَنْ تعُدًّا
إذا أعطيتَ خِيفَةَ أَنْ تَصُدًّا
وأَنْ يَهْزَا بِكَ الصَّحْبُ الكِرَامُ

(٢٣)

وتكبِرُ أَنْ تُعَدَّ يداكَ ألفا
فقد أصبحتَ بَيْنَ ٱلناسِ خَلْقَا
تَعُدُّ أصابعاً وتعَضُّ كفَّا
كذلك ما تَسُومُ وما تُسَامُ

(٢٤)

فَقَالَ: إليكَ هَلْ أَبْصَرْتَ فيما
تحلَّى ذٰلكَ الحَجَرَ ٱلكريما
وذاكَ الدُّرَّ وٱلعِقدَ ٱلنظيما
وَرَاقَتْكَ الخَوَاتِمُ والحِزَامُ

(٢٥)

سَيُرْجِعُ كُلُّ هذا بَعْضَ مالي
رَمَتْ يُمْنَايَ ما لَقِفَتْ شِمَالي
فلا تُغْرُرْكَ حالي إنَّ حالي
كما يَغْرىٰ بِحَدَّيْهِ الحُسَامُ

(٢٦)

مَضَىٰ زَمَني وَحَانَ لها أَوَانُ
وَإنَّا إذ مَضَىٰ ذاكَ الزَّمَانُ
لَحَوَّاءٌ وآدمُ والْجِنَانُ
سَيُنْقِطُنَا جَمِيعاً الانْتِقَامُ

(٢٧)

فيا لَكَ فاسِقاً لَوْ أَنَّ نَجْمَا
رأى الشَّيطانَ ثُمَّ رآكَ ثَمَّا[1]
لغادَرَ ذاكَ واسْتَلْقَاكَ رَجْمَا
لِيُخْفي سوءَ نيتِكَ الظَّلاَمُ

(٢٨)

لئن سلبَتْكَ يا صَقْرُ الحمامه
فما أعطيتَها إلاّ الشهامه
وما قَدْرُ الحظوظِ بلا كرامه
لِحَظُّ الوَحْلِ قَدْ سَقَطَ الغمامُ

---

(١) ثم بالفتح أي هناك (ر).

(٢٩)

غَنِيٌّ ثُمَّ معشوقٌ فَصَبٌّ
فَسِكِّيرٌ يُقامِرُ ثُمَّ خَبٌّ[1]
فَلِصٌّ ذلكَ الرَّجُلُ المُحِبُّ
وحتَّى في رَذَائِلِهم نِظَامُ

(٣٠)

ملذَّاتُ الشبيبةِ بالحِسَابِ
وليس نَدَىٰ الأزاهرِ كالضَّبابِ
فيا شُبَّانُ رِفقاً بالشبابِ
متى ضعفَ الأَساسُ فالانهدامُ

(٣١)

حرامٌ أَنْ تُضِيعُوا مَجْدَ مِصْرِ
عَلَى حانٍ وغانيةٍ وقَصْرِ
ومَنْ يجمعْ رذائلَ كلِّ عَصْرِ
بلفظٍ واحدٍ فَهْوَ (الحرامُ)

❑ ❑ ❑

(١) الخب : الخدّاع الخبيث بالكسر وبالفتح (ر) .

مواصلة الذكرى

[من الطويل]

ذكرتُكِ في ليلٍ كهمّي تنفّستْ ... له كَبِدٌ ممّا عَلِمْتِ صَدِيعُ

ذكرتُكِ، والنجمُ اصطباري عَلَى النّوى ... يُرَوِّحُ عنّي ساعةً وَيَضِيعُ

ذكرتُكِ، والصُّبْحُ ابتسامي عَلَى الأسَى ... وقد مازَجَتْهُ مِنْ نَدَاهُ دُمُوعُ

إلى اللهِ أشكو أنني لم أزلْ أرَى ... عليَّ لأخلاقِ الغَرامِ خُشُوعُ

❑ ❑ ❑

في الشكوى

[من مجزوء المديد]

ضِعْتُ بينَ اليأسِ والأمَلِ ... لا إلى صَبْرٍ ولا مَلَلِ
أسْرَعَ الماضِي غداةَ جَرَىٰ ... ومَشَىٰ الآتي على مَهَلِ
وبَقِينَا نحنُ بَيْنَهُما ... في الأباطيلِ وفي العِلَلِ
أعْرِكُ الدَّهْرَ الشديدَ وما ... يَبْلُغُ الظُّفرُ مِنَ الجبَلِ
بَقِيَتْ في الدَّهرِ باقيةٌ ... وانتهتْ من قبلِهَا حِيَلي

❑ ❑ ❑

الدمع

[من البسيط]

إنْ كانَ في الأَرْضِ نهرٌ باتَ منفرِداً ... وما لـه شَـاطِـىءٌ بـالأَرْضِ يَتَّصِـلُ
وليـس يُنْبِـتُ لا عُشْبـاً ولا زَهَـراً ... فـذلـكَ ٱلنهـرُ دَمْعـي ليلـةَ ارْتَحَلـوا

❑ ❑ ❑

الغزل البدوي

[من مجزوء الكامل]

يا ظِلَّ بانَةِ ذي سَلَمْ ... هل مِلْتَ ناحيةَ ٱلْعَلَمْ

رَحلوا فَكَمْ تهتزُّ مُشْـ ... ـتاقاً إلى ظِلِّ الخِيَمْ

ولهمْ بأَرضِكَ وَحشةٌ ... جعلتْكَ أَشبهَ بالظُّلَمْ

أَظِبَا الخيامِ دَمي فلبْـ ... ـسَ سوى دَمي يُحيينَ دمْ

هي أَحْرَقَتْهُ بالسُّها ... دِ وبالبِعادِ وبالسَّقَمْ

فإذا قَضَيْتُ فإنني ... في غيرِ قبري لم أَنَمْ

□ □ □

ألا موعد؟

[من المتقارب]

ألا مَــوْعِــدٌ نَتَلَهَّــى بِــهِ ... لنحيـا عَلَـى أَمَـلِ ٱلمَـوْعِـدِ
إذا أدْبَـرَ ٱليـومُ قـالـوا غـداً ... فَتُمْسِـكُ أَنْفَسَنـا لِلغَـدِ
نُعَلِّلُهـا خَشْيـةَ أن تفيـضَ ... ولـم تَتَنَفَّـسْ عَلَـى الأَكْبُـدِ
فيـا روضـةَ الحُسْـنِ رفَّـافَـةً ... ويـا ظِـلَّ فجـرِ الحيـاةِ ٱلنَّـدِي[1]
إذا انفسـحَ ٱلبُعْـدُ مـا بَيْنَنـا ... وعهـدُكِ بـاقٍ فَلِـمْ تَبْعَـدِي
ومـا بسطـةُ الأرضِ بيـنَ ٱلقلـوبِ ... إلاَّ كَفَـوْتِ يـدٍ مِـنْ يَـدِ[2]

❑ ❑ ❑

(١) الرفافة : المتندية (ر).

(٢) فوت اليد من اليد : بعد ما بينهما (ر).

إلى القمر

[من المنسرح]

مَنْ قمرٍ أشتكي إلى قمرِ ... أنّي عَلَى النُّورِ لم تُضأْ ظُلَمي
آهِ من البَيْنِ آهِ مِنْ كَمَدِي ... آهِ من الحُبِّ آهِ من سقَمي
يا بدرُ هذا هَوَى التي تركتَ ... أهلُ الهوى بالوجودِ في عَدَمِ

❑❑❑

نظرة في الطبيعة

قال يصف موقعاً بديعاً في جبلٍ قامت في سفحه مدينةُ (طرابلس الشام) موطنُ أسرته ، وقد زارها في الصيف الماضي. وتظهرُ البلدُ للمشرفِ مِنْ هذا الموقعِ وقد انسحبت وراءها البساتينُ ، وجرى من خلفها البحرُ يرتجفُ ، وليس بينها وبين السماء في نظر العينِ إلا أن تتخطاه :

[من البسيط]

(١)

يـا صَخْـرَةً حملتنـا فـي ذُرَى جَبَـلٍ ... إليـهِ مَعْطِـفُ قلبـي حيـنَ يَنْعَطِـفُ

إنْ شبَّهُـوا بـكِ قلبـاً قـاسِيـاً فـأنـا ... أراكِ قلبـاً بنـا مِـنْ حُبِّـهِ شَغِـفُ

كـم فـي ليـاليـكِ أنْفَـاسٌ يكـادُ بِهَـا ... قلبـي وقـد ذَكَـرَ الأحبـابَ يُخْتَطَـفُ

آنستُ مِنْ مَسِّها في مُهْجَتِي سَحَراً ... مَـسَّ اللحـاظِ تحيِّينَـا وتَنْصَـرِفُ

كأنَّ أضواءَها في القَلْبِ مِنْ طَرَبٍ ... مـواقـعُ الأمَـلِ المظنـونِ تَنْكَشِـفُ

تَوَاقَفَتْ ، ومضتْ تهوي عَلَى عَجَلٍ ... كالطَّيرِ صَفَّ ولكنْ لم يكدْ يَقِفُ[1]

(٢)

أعْلَيْتَـا الجـوَّ نَسْتَجْلـي محـاسِنَـهُ ... كـأننـا لسمـاءِ اللهِ نَـزْدَلِـفُ

نلوحُ في «عينٍ» «راءٍ» نحوكِ اطَّلعتْ ... «كهمـزةٍ» رفعْتهـا فـوقَهـا «ألِـفُ»

نرى (طَرَابُلْسَ) تبدو كالحمامةِ في ... وَكْـرٍ لهـا أظهـرتْـهُ رَوْضَـةٌ أُنُـفُ[2]

والبحـرُ يَحْكِـي ذراعـاً للسمـاءِ بـهِ ... تُزَحْـزِحُ الأرضَ عنهـا فَهْـو يَرْتَجِـفُ

---

(١) صف الطائر : بسط جناحيه في الهواء (ر).

(٢) الروضة الأنف : الروضة التي لم ترعَ.

مناظرٌ ما اختلفنا في محاسِنِها والحُسْنُ أنواعُهُ فيهنَّ تَخْتَلِفُ
فيا (طَرَابُلْسُ) حَيَّتْكِ المُنَى بلداً بي مِنْ هَوَى الحُسْنِ فيه فَوْقَ ما أَصِفُ
أُحِنُّ بينَ ضلوعي كُلَّما خَطَرَتْ ذكراكِ أَنَّ إليكِ القَلْبَ يَنْحَرِفُ

❑ ❑ ❑

الفـــراغ مفســدة

[من الوافر]

(١)

مكــانَــكَ إنّمـا الــدنيـا زِحـامُ ... وغـايـةُ كـلِّ مَــنْ فيـهِ الأَمــامُ
وليـسَ لـدى ٱلطبيعـةِ مـن فـراغٍ ... وإلاَّ مــا استقــامَ لهــا نِظــامُ
فـإن ضـاقـتْ مـذاهبُهـا أَمـاتـتْ ... لـذاك الحـيُّ ليـس لـه دَوَامُ
ولـو أنَّ الـورى فيهـمْ فـراغٌ ... لتـمَّ بِعـوْدةِ ٱلمـوْتـى الـزِّحـامُ

(٢)

تـأمَّـلْ هـذه الـدنيـا تجِـدْهـا ... مــن ٱلسـاعـات آلَتُهـا الأَنـامُ
فليـس يُـرى لظـاهـرِهـا نظـامٌ ... إذا مـا كـانَ داخلَهـا اصطـدامٌ
فـلا تجعـلْ فـراغَـك غيـرَ نفـعٍ ... فـذاك ٱلصَّـدْعُ للعمـرِ انثـلامٌ[1]
فَضَعْـهُ كمـا تشـاءُ وَضَعـهُ أنّـى ... أردتَ بشــرطِ أنّــك لا تـلامُ
فعـامُـكَ فـي ٱلبطـالـة كـالثـواني ... وإنَّ دقيقــةً نفعتــك عــامُ
ولا تخـشَ ٱلمتـاعـبَ واحتملْهـا ... فليــس بهمَّــهِ يعيـا ٱلهمــامُ
إذا لانَ ٱلحُســامُ لعلّــةٍ لا ... يليــن لعلــةِ الــرَّأس ٱلحســامُ

(٣)

عجبتُ لمـن يـرى الـدنيـا ويحيـا ... بــلا عمــلٍ ولا أمــلٍ يـرامُ
تمُـرُّ بـهِ ٱلحـوادِثُ صـادعـاتٍ ... وليـس لـه بمـا يجـرِي اهتمـامُ
وفـي بحـر ٱلحيـاةِ تـراهُ صخـراً ... عَلـى جنبيــهِ للمــوجِ ٱلتطــامُ
ويـزعـمُ أنـهُ «يُفنـي الليـالـي» ... وليــس بنقصهــنَّ لــه تَمَــامُ

---

(١) يريد بالصدع الفراغ نفسه (ر).

يعِزُّ عليهِ أن يسعى لعِزٍّ فكيفَ تراهُ يَسْأَمُ ما يُسامُ
وإن يجدِ الفراغَ شبيهَ موتٍ فذلك كلّما فرغَ الطعامُ[1]

(٤)

فيا أهلَ الفراغِ أرى حياةً يشابِهُهَا بمعناهُ الحِمامُ
فأنتم في قصورِكُمُ «لحومٌ» وأنتم في قبورِكُمُ «عظامُ»

❑ ❑ ❑

(١) يريد موضع الطعام أي المعدة مجازاً (ر).

يا حمى ليلي

[من الرمل]

بـا حِمَـى لَيْلـي ويـا لَيْـلَ الحِمَـى　　هَـلْ لِشَمْـسٍ غَـرَبَـتْ مِـنْ مَطلـعِ

(١)

بَعَثَـــتْ أنـــوارَهـــا غُـــرَّتُهـــا

فـــي حَيـــاةٍ ذَبَلـــتْ زَهْـــرَتُهَـــا

ثُـــمَّ لمَّـــا سَطَعَـــتْ نضـــرَتُهَـــا

أَلقَـــتِ اليَـــأْسَ عليهـــا ظُلمَـــا　　وأَشَـــدُ اليـــأْسِ مـــا لـــم يُطْمِـــعِ

(٢)

وَيْـــحَ هـــذا البُعْـــدِ لا حِـــلٌ لـــدَيّ

يَحْمِـــلُ الأَشْـــواقَ عَنِّـــي أَوْ إلـــيْ

هـــل تُـــرَى لـــم يَبْـــقَ فـــوْقَ الأَرْضِ حَـــيْ

أَمْ تُـرىْ لـم يَبْـقَ غَيْـري مُغـرَمـا　　أَمْ أَنـا بَعْـدَ هَـوَاهَـا لا أَعِـي

(٣)

تَضْحَـــكُ الشَّمْـــسُ وتُـــزْهَـــىْ الأَنْجُـــمُ

وأَرَىْ الكَـــوْنَ جَمِيْعـــاً يَبْسِـــمُ

غَيْـــرَ قَلْبِـــي فَهْـــوَ لَيْـــلٌ مُظْلِـــمُ

نـــامَ فِيْـــهِ الحُـــبُ يَلْقَـــى الحُلُمـــا　　فَـــرَأَى فـــي الغَيْـــبِ مَـــا لَـــمْ يَقَـــعِ

(٤)

كِـــدتُ أَنسَـــىْ مَـــعَ أَمْـــسِ فـــي الـــزَّمَـــنْ

فـــاســـأَلـــوا هِجْـــرَانَهـــا رِفْقـــاً بِمَـــنْ

مَـــلأَتْ مُهْجَتُـــهُ كَـــأْسَ الحَـــزَنْ

وعليهـــا وضَـــعَ الحُـــبُ الفمَـــا　　وانْثَنَـــىْ يَمْـــزُجُهـــا بـــالأَدْمُـــعِ

□ □ □

النصيحة المردودة

[من البسيط]

أُصْفيكَ نُصْحِي ولا أنْفكُّ مُتَّهَماً ... بأنَّني لِهَوَى الإخوانِ خَوَّانُ
ظَلَمْتَ خِلَّكَ ما مَحْضُ النَّصِيحةِ لِلْـ ... ـمُسيءِ سيئةٌ تُخشَى وكُفْرَانُ
ظُلْمُ القبيحةِ لِلمِرْآةِ إذْ فَزِعتْ ... تَظُنُّ قد سَكَنَ المِرآةَ شَيْطَانُ

❑ ❑ ❑

الغيــرة البـــاردة

[من الطويل]

وَلي حـاسِـدٌ مـا زالَ يَسْخَـطُ كُلَّما ... رآني لا أَرْجُو الرِّضَا مِنْهُ كي يَرْضَىٰ

وأَوْهَمَـهُ الحُمْـقُ الـذي فِيْـهِ أَنَّـهُ ... طَبِيْبُ ٱلهُدَىٰ يَسْعَىٰ لأخلاقِيَ ٱلمَرْضَىٰ

إذا اجتنبَ ٱلطاغُوْنُ ثَوْرِي فهل تُرَىٰ ... أَخافُ عَلَىٰ ٱلثَّوْرِ الذي حَمَلَ الأَرْضَا[1]

❑ ❑ ❑

---

(١) من خرافات الأقدمين أنَّ الأرضَ محمولةٌ على ظهر ثور ، وقد أثبت العلمُ بطلانَ ذلك ، في تفصيلٍ ليس هذا محلُّه ، فالمراد بالأبيات أنَّ العيبَ إذا لم يكن حقيقةً فيمن يُرْمَىٰ به ، فليس يَضرُّه أن يكون خيالاً في وهمِ مَنْ يَعِيبُه (ر).

الحسن والإعجاب

[من الكامل]

أَنْعَمْتُ فِي سِرِّ الجمالِ خَوَاطِرِي ... إِنَّ الخواطِرَ أَعْيُنُ الأَلْبابِ
وَاهاً لِحُبٍّ لَيْسَ يَعْرِفُهُ ٱلفَتَىٰ ... إِلاَّ بِلَهْفَتِهِ على الأَحْبابِ
مِثْلَ ٱلشبابِ فليسَ يَوْمٌ بَعْدَهُ ... إِلاَّ يُذَكِّرُنِي بِعَهْدِ شبابِي
كثُرتْ وسائلُ ذا ٱلغَرَامِ وكُلُّها ... في لفظتينِ (الحُسْنِ) و(والإعجابِ)

❑ ❑ ❑

هيا إلى غيطك

نشيد الفلاحة المصرية[1]

[من الرجز]

(١)

الفجـــرُ قـــد غَبَّـــرَ ثـــم لاحـــا
والـــدِّيْـــكُ قـــد أذَّنَ ثـــم صـــاحـــا
وأطلقـــتْ حمـــامتـــي الجَنَـــاحـــا
والكَلْـــبُ بـــالبـــابِ غـــدا نَبَّـــاحـــا
واشتـــاقـــتِ ٱلبهـــائـــمُ ٱلسَّـــرَاحَـــا   هيَّـــا إلـــى غَيْطِـــكِ سُقْهـــا : حـــا حـــا

---

(١) النشيد في اللغة الشعرُ المتناشد. ولقد جهدنا أن لا يكون في هذه المقاطيع إلاّ المعاني المبذولة والألفاظ المأنوسة عند من يُقْصَدون بمثل هذا النشيد توفيةً لفائدتِهِ (ر).

قلت: أعاد الأستاذ محمد سعيد العريان رحمه الله نشر هذه القصيدة في «الرسالة» السنة الخامسة العدد (٢١٩) ١٣/ ٩/ ١٩٣٧م أي بعد وفاة الرافعي رحمه الله وقدّم لها بقوله:

لم يوفَّق شاعرٌ من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأناشيد، ولم يكتب لنشيد وطني من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ماكتب لأناشيد الرافعي، فكان بذلك خليقاً أن نسمّيه **شاعر الأناشيد**، وهذا نشيد الكشافة «**اسلمي يا مصر**» ونشيد شباب الوفد «**حماة الحمى**» ونشيد الشبان المسلمين «**إياك ندعو ربنا**»، ونشيد «**بنت النيل**»، ونشيد تلاميذ المدارس الثانوية «**مجداً مجداً مدرستي**» وكلُّها من تأليف الرافعي، وهي دائرة على كل لسان في كل حفل وناد.

وعرف الرافعي لنفسه هذه الميزة التي فاق بها شعراء العربية عامة في بابٍ هو من الشعر في هذا العصر صُلْبُه وقِوامُه، فأجمعَ أمرَه على إخراج ديوان «أغاني الشعب» يضع فيه لكل جماعة أو طائفة من طوائف الشعب نشيداً و أغنية عربية تنطق بخواطرها، وتعبِّر عن أمانيها.

وقد جرى الرافعي في هذا الميزان شوطاً بعيداً، وأنجز طائفةً كبيرةً من أغاني الشعب نشر بعضها، وما يزال سائرها في طي الكتمان، بين أوراقه الخاصة، ومؤلفاته التي لم تنشر بعدُ، ولا أدري متى يُقَدَّرُ لها أن تنشر...!

والذي أنشره اليوم نشيد من هذه الأناشيد، وضعه الرافعي على لسان الفلاحة المصرية، وسيجد القراء في أسلوبه ومعانيه شيئاً مأنوساً يحببه إلى الشعب، ويخفف وقعه على فؤاده ولسانه.

(٢)

أَرُوحُ والجـــارةَ نَمْـــلا الجَـــرَّه
نَمُـــرُّ بـــالغيـــطِ ٱلقَـــرِيـــبِ مَـــرَّه
نَـــرَىٰ ٱلهَنَـــا وٱلفَـــرَحَ وٱلمَسَـــرَّه
يـــا رَبِّ لا تُـــنـــزِلْ بنـــا مَضَـــرَّه

واكتـبْ لـداري ٱلعِزَّ والأفـراحـا   هيَّا إلى غَيْطِكِ سُقْها: حـا حـا

(٣)

ٱلبِنتْ يـا مَـولـى الـدُّعـا ٱلمُجابِ
إِحْفَـظْ عليهـا صِحَّـةَ ٱلشَّبـابِ
وافْتَـحْ علـى أَولادِيَ الأَحْبـابِ
مَـنْ راحَ للغَيْـطِ وللكُتَّـابِ

ذا يَقْـرأُ ٱلغَيْـطَ وذا الألـواحـا   هيَّا إلى غَيْطِكِ؛ سُقها: حـا حـا

(٤)

يـا نَخْلَـةَ ٱلغَيْـطِ احـذري ٱلغُـرَابـا
يـا نَعْجَـةَ ٱلغَيْـطِ احـذرِ ٱلـذِّئـابـا
يـا صـاحِـبَ ٱلغَيْـطِ احْـذَرِ ٱلعَـذَابـا
مِـنَ الـرِّبـا وٱلفقْـرَ والخَـرَابـا

إِنَّ الـرِّبـا لـيـسَ لنـا مُبـاحَـا   هيَّا إلى غَيْطِكِ؛ سُقْها: حـا حـا

(٥)

إيَّـاكَ أَنْ تَـذْكُـرَ لـي الْخَـوَاجَـا[١]
فَقَـدْ رأيـتُ جـارنـا ٱلمُحْتَـاجَـا
راحَ إِلَيْـهِ مـا لُـهُ وَمَـاجَـا[٢]

---

(١) الخواجا في عُرْف الفلاحين هو الذي يُقرِضُهم بالربا، واللفظة عندهم لقبٌ مالي (ر).
(٢) أي (وما جاء) حذفت الهمزةُ ضرورةً (ر).

وبـــاعَ حَتّـــى ألبَـــطَّ والـــدَّجَـــاجَـــا

لا خَيْـرَ فِيْمَـنْ جـانَـبَ ألصَّـلاحَـا هَيَّـا إلـى غَبْطِـكِ؛ سُقْهـا: حَـا حَـا

(٦)

إِيَّـــاكَ والـــرَّهـــنَ عَلَـــى ألغِيْطَـــانِ

فَتَنْـــزِلَ الـــدُّوْدَ عَلَـــى الأقْطَـــانِ

وتَفْتَـــحَ الأبْـــوابَ للشَّيْطَـــانِ

وتَجْعَـــلَ ألهَـــدْمَ عَلَـــى حِيْطَـــانـــي

(الشَّمْسُ)[1] جاءَتْ وألصَّبَاحُ رَاحَا هَيَّـا إلـى غَبْطِـكِ؛ سُقْهـا: حَـا حَـا

(٧)

أنَـــا ابنَـــةُ ألفَـــلاَّحِ أُمُّ ألنَّصْـــرِ

فَـــلاَّحَـــةٌ يـــا بنـــتَ هـــذا ألعَصْـــرِ

لكِـــنَّ كُـــوخـــي مِـــنْ أسَـــاسِ مِصْـــرِ

يُسْنِـــدُ فيهـــا رُكْـــنَ كـــلِّ قَصْـــرِ

هَلُـــمَّ غنّـــي معنـــا ألفَـــلاَّحَـــا هَيَّـا إلـى غَبْطِـكِ؛ سُقْهـا: حَـا حَـا

❑ ❑ ❑

---

(١) كذا يلفظها الفلاحون (ر).

بعض تباريح

[من الطويل]

(١)

حمامةَ هذا ٱلفَجْرِ وَيْحَكِ رَفْرِفِي ... لِتَلْتَقِطي حَبَّ ٱلنُّجُومِ وَطِيْرِي

لعلَّ ٱلصَّبَا تَنْدَىٰ على ٱلقَلْبِ نَدْوَةً ... تُنَفِّسُ وَجْدِي أو تَبُلُّ زَفِيْرِي

فلي في الصَّبَا شَكْوَى ولي في ٱلصَّبا هوًى ... وَبَعْضُ تباريحٍ ، وبعضُ أُمُورِ

تُحَرِّكُ نَفْسِي كُلَّما هَفْهَفَتْ وما ... تَظُنُّ بِأَنْفَاسٍ وَشُعْلَةِ نُوْرِ

فيا مَنْ لِنَفْسٍ كُلُّ شَيْءٍ يَهِيجُها ... إلى أَثَرٍ مِنْ لَوْعَةٍ وَسُرُوْرِ

تَلاَقَىٰ إليها الحُبُّ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ ... كما اسْتَهْدَفَتْ فيهِ لِكُلِّ مَصِيْرِ

فَأَنَّى انْثَنَتْ تَلْقَ ٱلْهَوَىٰ أو شُعاعَهُ ... لَحاظاً وألْفَاظاً وَنُوْرَ ثُغُورِ

(٢)

كَثِيْرٌ عَلَى نَفْسِي هُمُوْمِي وَحَسْبُهَا ... على عَنَتِ الأَيَّامِ حَمْلُ ضَمِيْرِي

سُهَادٌ وعُذَّالٌ وَوجْدٌ وَلَوْعَةٌ ... وشَرُّ ٱلعَنَا تَحْمِيْلُ غَيْرِ صَبُورِ

شَجِيْنا وَبَاتُوا قَدْ خَلَتْ مُهُجَاتُهُمْ ... على أُفُقٍ بادِي ٱلصَّفَاءِ مُنِيرِ

تَخالَجَني بالرَّغْمِ يَأْسٌ مُبَرِّحٌ ... سَوَاءٌ عَسِيْرِي بَعْدَهُ وَيَسِيْرِي

وما أَنَا مَرْدُودٌ إلى الرأْيِ بَعْدَ ما ... تَحَكَّمَ طَبْعِي ، واسْتَمَرَّ مَرِيْرِي[١]

وما في اكْتِئَابِ العِشْقِ ذُلٌّ وَإِنَّمَا ... لِمَعْنًى يُرَى في اللَّحْظِ بَعْضُ فُتُورِ

❑ ❑ ❑

(١) يقول الإنسانُ : (استمرَّ مريري) إذا استحكمَ أمْرُهُ عليه وألِفَهُ (ر).

الحظ العالي

[من الكامل]

إنَّ الحياةَ لِمَنْ تَأَمَّلَ حَاضِرٌ ... في حَالةٍ وَمُؤَمَّلٌ في حَالِ

بَيْنَا تَرَىٰ الأَطْفَالَ في طُرُقِ ٱلشُّيُو ... خِ إذا ٱلشيوخُ تَعُوْدُ كالأَطْفَالِ

والنَّاسُ في هٰذي الحياةِ جَمِيْعُهم ... يَسْعَىٰ لها وَجَمِيْعُهُمْ لِزَوالِ

كالنَّائِمِينَ تَنَوَّعَتْ أَحْلامُهُمْ ... شَتَّىٰ وما وُصِفَتْ بِغيرِ خَيَالِ

كُلٌّ لَهُ نَظَرٌ ، فَكُلٌّ نَاظِرٌ ... مِنْ بَهْجَةِ الدُّنيا لِنَوْعِ جَمَالِ

وإذا ٱلظَّوَاهِرُ في الأُمُوْرِ تَمَاثَلَتْ ... خَرَجَتْ بَواطِنُها عن الأَمْثالِ

ما ينظرُ الجُبَنَاءُ كالأَبطالِ لَـ ... ـكِنْ أعينُ الجبناءِ كالأَبطالِ

فَسُرُوْرُ هٰذا الجِسْمِ حَظٌّ سَافِلٌ ... وسرورُ هذي ٱلنَّفْسِ حَظٌّ عَالِي

❑ ❑ ❑

شمس الضحى

وقال يصفُ منظراً في ٱلبحرِ تنعكِسُ فيه أشعةُ الضُّحى عن الماءِ ، ثم يقطِّعُها ٱلموجُ بحركاته ، فتتفرّقُ ألسنةً صغيرةً ، تزهرُ كألسنةِ الشموعِ :

[من البسيط]

أَلْقَتْ أَشِعَّتَهَا شَمْسُ ٱلنَّهَارِ ضُحًى	في زُرْقَةِ ٱلماءِ فاذْكُرْ مَنْظَرَ العَجَبِ
كأنَّها مِنْ بقَايَا ٱلبَرْقِ في أُفُقٍ	أو ٱلسُّنٌ سَطَعَتْ في ٱلمَاءِ مِنْ لَهَبِ
وٱلبَحْرُ مِثْلُ بِسَاطٍ في الجِنَانِ غَدَا	فيه ٱلغُبَارُ قُرَاضَاتٍ مِنَ الذَّهَبِ[1]

❑ ❑ ❑

(١) القراضاتُ : جمع (قراضة) وهي ما سقط بالقَرْضِ (أي القطع) والمرادُ بها القِطَعُ الصغيرةُ من الذَّهَبِ (ر).

صباح اليائس المهجور

[من الطويل]

حَنَاناً بِمَنْ لا يَنْشُرُ ٱلبَدْرُ ضَوْءَهُ ... عليهِ ، ولا يَأْتِي حِمَاهُ نَسِيْمُ

يُكَابِدُ ليلاً في هَوَاكِ كَأَنَّمَا ... تَقَسَّمَ فيهِ ٱلصُّبْحُ فَهْوَ نُجُومُ

❑ ❑ ❑

فلسفة العذاب

[من الوافر]

(١)

أَمَا مِنْ حِيْلَةٍ والعَذْلُ بَيْنِي ... وَبَيْنَ الشَّمْسِ مُشْتَبِكُ الضَّبَابِ

وأَبْوابُ الهَوَى شَتَّى ولكنْ ... عَذُولي حَائِطٌ في كُلِّ بَابِ

ولولا هذهِ الأَحْجَارُ كانتْ ... بذُورُ الوَصْلِ تنبُتُ في العِتَابِ[1]

(٢)

تَرَىٰ خَطَأَ النَّوَى فِيْنَا فَتَبْكِي ... ولكنْ خَوْفَ تنبيهِ الصَّوَابِ

وتَنْظُرُ جانبِي نَظَرَاتِ حَسْرَى ... ولكنْ مِنْ مُحَاذرةِ التَّصَابِي

فقد وَصَلَتْ بِذَا وجَفَتْ بِهذَا ... ألا فاعْجَبْ لِفَلْسَفةِ العَذَابِ[2]

❑ ❑ ❑

---

(١) الأحجارُ هنا كنايةٌ عن العُذّالِ ، والبذورُ لا تنبتُ إذا أُلقيت على الحجر (ر).

(٢) يريدُ أنّ ما حكاه عنها قبل الاستدراك وهو بكاؤها وقد رأتْ خطأَ النوى ونظراتِ التحسّر إلى ناحيته ، كلُّ ذلك مما يفيد الرضا ، الذي يكونُ عنه وصلها . ثم كانت النباتُ المستدرَكُ بها مما يدل على الجفاء ، فقد وصلتْ وجفتْ بذلك جميعه (ر).

سماءُ الهوى

[من الطويل]

رَعَى اللهُ ليلاً زَيَّنَتْهُ بِقُرْبِهَا … فكانَ له مِنْ نُورِ مَبْسَمِهَا سَمَا
صَفَتْ ثُمَّ قُمْنَا للنَّوَى فَتَتَابَعَتْ … بِهَا قُبَلُ التَّوْدِيعِ يَطْلُعْنَ أَنْجُمَا[1]

❑ ❑ ❑

---

(١) صفت: أي السماء التي ذكرها (ر).

السريرة وفلسفتها

[من الطويل]

إلي مَوْطِنِ ٱلنيّاتِ غُمَّ على الوَرَىٰ ... طَرِيقُ هَوَىٰ الإنسانِ وٱلبَحْثُ طالِبُهْ[1]

فَلِلْقَلْبِ سِرٌّ جَانِبُ الروحِ عِنْدَهُ ... وللروحِ سِرٌّ أولُ ٱلغَيْبِ جانِبُهْ

وفي ذلكَ ٱلسِّرِّ اسْتَكَنَّتْ سَرِيرَةٌ ... إليها انتهتْ مِنْ كُلِّ فِكْرٍ مَذَاهِبُهْ

هي الحَدُّ بَيْنَ الأُفْقِ والأُفْقُ عالياً ... وأسْفَلَ والإنسانُ جَمٌّ عَجائِبُهْ[2]

فما دُونَها مِنْ ظاهِرِ ٱلكَوْنِ طَوْعُهُ ... وما فوقَها مِنْ باطِنِ ٱلغَيْبِ غالِبُهْ

ولو سَلِمَ الإنسانُ مِنْ ضَعْفِ قَلْبِهِ ... لأفْسَدَتِ الدُّنيا عَلَيْهِ مآرِبُهْ

وأشجعُ ما في قَلْبِهِ شَهَواتُهُ ... وأضْعَفُ ما فِيْهِ جَمِيْعاً مَوَاهِبُهْ[3]

هُما فِيْهِ مِرْآتانِ تلكَ تُرضي بها ... أوائِلُ ما يَهْوَى وَتِلْكَ عَواقِبُهْ

□ □ □

---

(١) موطن النيات: كنايةٌ عن السريرة (ر).

(٢) **الأفق العالي والأفق الأسفل**: من اصطلاحات المتصوفة، ويريدون بهما العالم العلوي والعالم السفلي (ر).

(٣) المرادُ (**بالمواهب**) الصفات النفسية الممتازة كالحِلْم ونحوه، وهي ليست من الفطرة الحيوانية، ولذلك كانت أضعفَ مما هو من هذه الفطرة في الإنسان إلا في الندرة، ولا حكمَ لها (ر).

عجباً يا هند

[من مجزوء المديد]

لَـــمْ تُعَلِّلْنــــي ولا وَعَـــدَتْ   وٱلهَـــوَى فِيْـــهِ تَعَـــالِيـــلُ
بَخِلَـــتْ حتَّـــى بِكِـــذْبَتِهَـــا   رُبَّ كِـــذْبٍ فِيْـــهِ تَـــأْوِيْـــلُ
عَجَبـاً يـا (هنـدُ) مـا سَهُلَـتْ   فـي ٱلهَـوَى حتَّـى الأَبَـاطِيـلُ؟

□ □ □

ليلةُ السّاهر على الطّفْل المريض

[من السريع]

(١)

يــا ليلــةً عُطْــلَ فيهــا ٱلمَــدَارْ ظـلامُها فَحْمٌ ، وفـي ٱلقَلْـبِ نـارْ
وشُهْبُهَــا طــائِــرَةٌ كــالشَّــرَارْ
وَيْحَــي متــى يُطْفيــكِ نهــرُ ٱلنَّهــارْ!

(٢)

قَـدْ رَفْـرَفَ ٱلنَّـوْمُ فيـا نَـوْمُ طِـرْ تَـرْقُبُـكَ الأَجْفَـانُ أَنّـى تَسِـرْ
وَانْــزِلْ عَلَــى رَوْضِ ٱلشبــابِ ٱلنَّضِــرْ
هنــاكَ أَحْــلامُ ٱلهَنَــا وٱليَسَــارْ

(٣)

بِجَــانِبِــي النَّجْــمُ مِــنْ سَنَــاه تُضِــيْءُ فِــي ظُلْمَــةِ قَلْبِـي مُنَـاه
نِضْــوُ سِقَــام كُلّمَــا قَــالَ آهْ
أَحْسَسْــتُ فَــي قَلْبِــي دَوِيَ انْفِجَــارْ

(٤)

يـا نَـوْمُ كَـمْ يُـرْجَى خَيَالُ الحَبِيْبْ وَذَا حَبِيبِــي كَخَيَــالٍ عَجِيــبْ
وَا حَيْـرَتــي بَيْــنَ ٱلضَّنَــى وٱلطَّبِيْــب
وبيــنَ آلامِ الــرَّجَــا والحِــذَارْ

(٥)

فَمَـــــرَّةً أَنْظُـــــرُهُ نَظْـــــرَةً وَمَـــــرَّةً أُتْبِعُهـــــا زَفْـــــرَةً
وَمَـــرَّةً أُعْقِبُهـــا عَبْـــرَةً
وما تُـرى يَحْلُـو بِهـذِي ٱلْمِـرَارْ

(٦)

وَكُـــلُّ يـــومٍ أَتَـــراآىٰ غَـــدَا ولـــو غَـــدَا العُمْـــرُ جَمِيعـــاً فِـــدَا
أَجُـسُّ بـالآمـالِ نَبْـضَ ٱلمَـدَى
وَحِيلَـــةُ الآمِـــلِ فـــي الانْتِظَـــارْ

(٧)

أَنْظُـــرُ لِلطِّفْـــلِ فـــلا أَصْبِـــرُ كـــأَنَّ عَيْنِـــي فـــي الَّـــذِي تَنْظُـــرُ
تَحَـــوَّلَـــتْ قَلْبـــاً غَـــدَا يَشْعُـــرُ
فَكُـــلُّ لَحْـــظٍ خَـــاطِـــرٌ يُسْتَثَـــارْ

(٨)

أَنْظُـــرُ مـــا يُبْقِيـــهِ ضَـــنُّ ٱلضَّنَـــىٰ أَنْظُـــرُ مـــا يُبْـــدِيـــهِ فَـــنُّ ٱلفَنـــا
أَنْظُـــرُ مـــا تُلْقِيـــهِ عَيْـــنُ ٱلعَنَـــا
مِـــنْ قَطَـــرَاتِ الـــوَعْـــظِ والإِعْتِبَـــارْ

(٩)

يـــا مُضْنِـــيَ ٱلطِّفْـــلِ بِـــآلامِـــهِ ولـــم يَـــزَلْ فـــي مَهْـــدِ أَحْـــلامِـــهِ
تُعِـــدُّ ذا ٱلطِّفْـــلَ لأَيـــامِـــهِ
أَمْ هـــذِهِ تَـــذْكِـــرَةٌ لِلكِبَـــارْ

(١٠)

يكــابِــدُ الهَــمَّ وَهُــمْ مِثْلُــهُ لكنَّهُــم لَيْــسَ لَهُــمْ عَقْلُــهُ

وَراحَـــةٌ للمُبْتَلـــى جَهْلُـــهُ

وَسَـاوِسَ الـدَّاءِ كَجَهْـلِ الصِّغَـارْ

(١١)

وَقَــدْ يُغَــرُّ المَــرْءُ حَتّـى يَـرى أَنَّ الــوَرَى إنْ عُــدَّ فِيْهِــم وَرَا[1]

فَمَـا يَـرَى فِـي مَـرَضٍ أصغَـرَا

أَوْهَـامَـهُ إلاَّ معـانـي احْتِقَـارْ

(١٢)

والمَــرْءُ يَهْــوَى العَيْــشَ لكنَّــهُ يَتْــرُكُ مــا نَــالَ ومــا ظَنَّــهُ[2]

فَحَسْبُنَـــا مَـــوْعِظَـــةً أنَّـــهُ

نـالَ اختيـاراً ، وتَخَلّـى اضطِـرَارْ

❑ ❑ ❑

---

(١) أي وراء (ر).

(٢) هنا محذوفٌ تدلُّ القرينةُ عليه ، أي وما ظنَّه يُنالُ (ر).

إلى صديق الوجه

هذه الأبيات في الصديق الذي لا يمسكُ في قلبه البغضَ ولا المحبةَ ، بل هو يودُّ أنْ يكونَ مخلصاً ، لولا طبعٌ فيه يكونُ عن الحسدِ ، أو يكونُ الحسدُ عنه ، ولذلك ذكر الحسودَ في البيت.

أما الذي يتكلّف الصداقةَ لغرضٍ من السوء يضمره فذلك العدو.

[من الوافر]

تَكَلَّـفُ ذلـكَ الثَّغْـرَ ابتِسـامـا ... لِيَعْكِسَـهُ عَلَـى مَـاءِ الخُـدُودِ[١]

وَتَلْبَـثُ مُسْتَضِـيءَ الـوَجْـهِ بِشْـراً ... كـأَنَّ البِشْـرَ عِنْـدَكَ فـي قُيُـودِ

تُصَلِّبُـهُ علـى شَكْـلٍ فَيَقْـوَى ... كـأَنَّ عُـرُوقَ وَجْهِـكَ مِـنْ حَـدِيْـدِ

ألا قُبِّـحَ الصَّـدِيْـقُ إذا استعـارَتْ ... صَـدَاقَتُـهُ لَـهُ وَجْـهَ الـوَدُوْدِ

تَـوَهَّـمَ أنَّهَـا ذَهَبَـتْ بِعَيْـبٍ ... وقـد دَلَّـتْ علـى عَيْـبٍ جَـدِيْـدِ

كـم لَبِـسَ الفقيـرُ حِلـىً غنـيٍّ ... فـراحَ بِتُهْمَـةِ اللِّـصِّ الشَّـرِيْـدِ

حَـذَارِ أخـا «صـديقَ الـوَجْـهِ» إنّـي ... أرى شَـرَّ الصَّـدَاقـةِ فـي الحَسُـوْدِ

مَتَى يَنْضَحْـكَ يُصْمِـكَ مِنْ قَـرِيْـبٍ ... وَقَـدْ تَنْجُـو مِـنَ الـرَّامِـي البَعِيْـدِ[٢]

❑ ❑ ❑

---

(١) الضميرُ المستتر في (يعكس) عائدٌ على الثغر ، والضميرُ الظاهرُ عائد على الابتسام ، أي ليعكسَ الثغرُ الابتسامَ (ر).

(٢) نضحه بالنبل : رماه ، وأصمى الصيد : رماه فقتله في مكانه (ر).

لسان البنت الفقيرة اليتيمة

[من الطويل]

قَدِمْتُ على الدُّنيا فَعَدُّوا وِلادَتِي ... كما زَادَ في ٱلمَرْضَىٰ قُدُوْمُ سَقِيْمِ
وَكُنْتُ لهم همًّا ثَقِيْلاً علَى الوَرَىٰ ... وهذا الوَرَىٰ لو يُنْصِفُونَ هُمُوْمِي
نَسُوا بُؤْسَنَا حتَّى نَسِيْنَا نَعِيْمَهُم ... فيا رَبِّ ما حُكْمُ ٱلقَضَا بِظَلُوْمِ
ويا ربِّ إنْ كانَ ٱلنَّعِيْمُ كما أَرَىٰ ... فَساداً فإنَّ ٱلبُؤْسَ خَيْرُ نَعِيْمِ

❑ ❑ ❑

حكمة

[من المجتث]

حَقِيقةُ الشَّرِّ خَيْرٌ — أَسْبَابُهُ فِي انقلاَبِ
كالبَدْرِ في الليلِ نُورٌ — ملءُ الفَضَا والحِجَابِ
وفي النَّهارِ تَرَىْ البَدْ — رَ رفعةً في السَّحَابِ

❑ ❑ ❑

في الغزل

[من الوافر]

فَتاةٌ مِنْ تَدَلُّلِهَا علينا تَلَطَّفَ لَفظُها فَهُو ابْتِسَامُ
يُطاوِعُ خَصْرُها والرِّدْفُ يأبى فَتَحْسِبُ إنْ مَشَتْ فيها انْقِسَامُ

❑ ❑ ❑

نور بغير لهب

قال في منارة بورسعيد وهي ترمي بالنورِ في دورتها من ثلاث جهات:

[من البسيط]

بـاتـتْ تَلُـوحُ لِتـأْتـمَّ ٱلسَّفِيـنُ بهـا ... وأَشْـرَقَتْ كـالهُدَى نُوْرٌ بغيرِ لهَبْ
تُعَذِّبُ الليـلَ تعـذيـبَ الجَحِيْم لِـذا ... ترمي عليهِ بِظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبْ[1]
كـأنَّما الليـلُ ذَنْـبٌ وَهِـيَ تـوبَتُـهُ ... فمـا تـزالُ بـهِ حتَّـى تَـرَاهُ ذهـبْ

❑ ❑ ❑

(١) اقتباسٌ من قوله تعالى في أهل الجحيم: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ ـ ٣١] (ر).

معجزة المرأة المستحسنة(1)

[من مجزوء المديد]

إنَّ ذاكَ الحُسْـــنَ يُعْجِـــزُنـــا ... أَنْ نُمَـــارِيَ فـــي شَـــرَائِعِهـــا

وَرْدَةٌ مِـــنْ كَفِّهـــا نَبَتَـــتْ ... فَـــوْقَ خَـــدَّيْهـــا لِقَـــاطِعِهـــا

فَـــاعْجَبُـــوا مِـــنْ سِحْـــرِ أَعيُنِهـــا ... كيْـــفَ أَمْسَـــىٰ فـــي أَصَـــابِعِهـــا

❑ ❑ ❑

---

(1) التي تضع المحسّنات كالمساحيق المعروفة ونحوها (ر) انظر فصل الحسن المصنوع ص ٢٠٠ من هذا الكتاب.

باي يـا بابا

وهي قصةٌ عن ابنتِهِ وهيبةَ

[من مجزوء الرمل]

(١)

طِفْلَتِــي فــي ٱلعُمْــرِ مَــرَّتْ ... مِــنْ سِنِيهــا بــاثْنَتَيْــنِ

ليسَــا فيمــا غــدَتْ تَعْـ ... ـقِــلُ إلاَّ ضِحْكَتَيْــنِ

جِئْتُهــا يَــوْمــاً فَــأَلْقَيْـ ... ـتُ عليهــا قُبْلَتَيْــنِ

وآمــالــتْ عُنُقــاً آ ... لَمتْــهُ مِــنْ غَمْــزَتَيْــن

فمضــتْ غَضْبــى وقــالــتْ: ... «بَـايْ يَـا بَـابَـا بَـايْ يَـا بَـابَـا»[1]

(٢)

أَعِتَــابــاً يــا ابنتــي أَمْ ... ذاكَ مِــنْ غَيْــظِ الحبيبــه

بَــدَأَتْ دنيــاكِ مُنْــذُ الـ ... ـيــومِ والــدُّنيــا عَجِيبَــه

وغــريــبٌ مِنْــكِ أن تــدْ ... ري معــانيهــا ٱلغَــرِيْبَــه

نَجْمَــةٌ أبعــدُ مــا تُلْـ ... ـقَــى إذا لاحَــتْ قَــرِيْبَــه

مِثْلُهَــا حُبُّــكِ لِلْبَــا ... بــا ومعنــى «بَــايْ يــا بــابــا»

---

(١) يراد بكلمة (باي) عند العامة ، وأحياناً ينطقونها (يا باي) التكره ومعنى النفرة ، فإنَّ أصلها يا أباه من نداء الاستغاثة. فهذا المعنى الذي يظهر قريباً من اللفظة هو أبعدُ مع حُبُّ البنت لأبيها من النجمة التي تلوحُ قريبةً ، وهي ما هي في بُعْدِها (ر).

قلت: قد أعاد العريان رحمه الله نشر هذه القصيدة في الرسالة (العدد: ٢١١ ، والسنة الخامسة ١٩/ ٧/ ١٩٢٧ م ص (١١٩١) وقدم لها بقوله: «في سنة (١٩٠٤) تزوج المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وفي سنة ١٩٠٥ ولدت له (وهيبة) ، فلما صارت بنت ستتين جلس إليها يقبلها ، فقالت له الطفلة وقال لها ، فكانت هذه القصيدة.

(٣)

نَغْمَــــةٌ كـــالبُلْبُـــلِ اسْتَعْـــلـــى على الـــوَرْدِ فغنَّـــى
أتمنَّـــــى أنْ تُعِيـــدي مِثْلَهـــــا إذْ أتمنَّـــــى
قَـدْ غَـدَا يُـذْهِـبُ فـي الـدُّنْـيــا ألْعَنَـا لفْظُـكِ عنَّـــا
وأرى الشِّعْـــرَ فنـــونـــاً صِـــرْتُ لـــي مِنْهُـــنَّ فَنَّـــا
حكمـــةٌ مـــا مِثْلُهـــا الحِكْـــمـةُ عنـدي «بـايْ يـا بـابـا»

(٤)

لـــو أتتنـــي كُـــلُّ بُشْـــرَى مِـــلْءَ أنحـــاءِ البـــلادِ
أوْ أتـــانـــي السَّعْـــدُ يَـــوْمـــاً هـــاتفـــاً بـــاسمـــي يُنـــادِي
أو سَعَـــىٰ بـــالمَـــدْحِ والتَّمْـــجيـــدِ لـــي كُـــلُّ العبـــادِ
أو شـــدا فـــي كُـــلِّ أرْضٍ بِقَـــرِيْضِـــي كُـــلُّ شَـــادِ
لـــم يكـــن أحْلـــى بِسَمْعِـــي كُـــلُّ ذا مِـــنْ «بـــاي يـــا بـــابـــا»

[سنة ١٩٠٧]

❑ ❑ ❑

دعوى العلياء

يؤرِّخ ميلاد ولدِه ألمُؤَمَّلِ له في كَرَم الله وتوفيقه محمود سامي الرافعي:

[من البسيط]

خَطُّوا اسْمَهُ في كِتَابِ المَجْدِ واتَّخَذُوا ... مِـــدَادَه مِـــنْ ضِيـــاءٍ فيـــهِ بَسَّـــامِ

وعنْـــدَهـــا دَعَـــتِ ألعُلْيَـــا تُـــؤْرِخُـــهُ ... (محمودُ عِشْتَ بِجَدٍّ في الوَرَىٰ سَامِي)

سنة ١٣٢٦ هـ

❑ ❑ ❑

أرجوحة سامي

نظمها له أيضاً :

[من الرجز]

(١)

إنعَمْ بها أُرْجُوحَةً يا سَامِي
تنامُ فيها أهْنَأَ ٱلمَنَامِ
في قِطْعَةٍ مِنْ رَوْضَةِ الأَيَّامِ
يأوِي إليها طائِرُ الأَحْلامِ
في وَكْرَي ٱلنهارِ وٱلظلامِ
على غصونِ العُمُرِ ٱلنَّوامي
أزهارُها ما زِلْنَ في الأكمامِ
قامَتْ على ذاكَ ٱلغديرِ ٱلطَّامِي
في شاطِىءِ ٱلمُسْتَقْبَلِ ٱلبَسَّامِ
كأنَّها خَوَاطِرُ الأَفْهَامِ

(٢)

مَا هِزَّةُ ٱلثناءِ في ٱلكِرَامِ
وٱلبِدِ في الأشواقِ وٱلسَّلامِ
وَصَلَفِ ٱلمَلِيكِ في ٱلقِيامِ[١]
وَطَرَبِ ٱلشاعِرِ للإلْهامِ

---

(١) الصلَف : مجاوزةُ قدر الظرف ، والمراد وما هزة صلف المليك (ر).

كمـــا أرى أُرْجُــوحَـــةَ ٱلهُمَــامِ
تَهتــزُّ فخــراً بــالفتــى ٱلمِقْــدَامِ
بِمَلِـــكِ ٱلبيـــانِ وٱلكـــلامِ
وصــاحــبِ ٱلعــرشِ مــن الأقــلامِ
وقــائــدِ الجيــشِ مــن الأَعــلامِ

(٣)

يــا ســامِيــاً وأَنْــتَ فــي الأَقــوامِ
مــن (رافعــي) الحكمــةِ فــي الأنــامِ
مِــنْ عِتــرَةِ الخليفــةِ الإمــامِ
مِــنْ (عُمَــرَ) ٱلمُعِــزِّ لــلإسْــلامِ[1]
إنَّ جَمِيْـــعَ ٱلسَّـــادَةِ ٱلعِظَـــامِ
أَهْــلِ ٱلعُلَــىٰ وٱلهمــمِ ٱلجِسَــامِ
وَمَــنْ أَضَــاؤوا أُفُــقَ الــدَّوامِ[2]
لــم يــولــدوا أكْبَــرَ فــي ٱلمقــامِ
منــكَ ولا فــي ٱلعقــلِ والأَجســامِ
فــلا تكــنْ أَصْغَــرَهُــمْ يــا (سامــي)

❑ ❑ ❑

---

(١) من فضل الله على أسرتنا أنّ نسبنا يتصل بعمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ورضي عنا بهم (ر).

(٢) الدوام: الخلود يريد أبطال التاريخ الخالدين بأقوالهم وأعمالهم (ر).

الشّعر والحسان

[من الكامل]

(١)

فاضَ ألبيانُ على فمي وتَحَيَّرا — حتّى لَهَمَّ ألقلبُ أنْ يَتحدَّرا

حَسِبَ ألبيانُ فمي سَيَلْفِظُ قُبْلَةً — فَجَرَىٰ إلى ألشَّفَتَيْنِ ثم تعثَّرا

وكذاكَ إنْ يبكِ الحزينُ رَأَيْتَ أدْ — مُعَهُ تُغشّي عَيْنَهُ أنْ تنظُرا

إنَّ ألعواطِفَ هُنَّ أصواتُ ألنفو — سِ فلا يُحِسُّ الجسمُ حتّى تَظْهَرا[1]

(٢)

أفمي تَبِزُّ عليكَ عثرةُ مَنْطقي — وهو ألمُبادِرُ للخواطِرِ إنْ جَرَىٰ

رَفَّتْهُ آفاقُ المحاسِنِ بالنَّدى — حتّى لأَوْشَكَ زَهْرُهُ أنْ يَقْطُرا

وَتَنَفَّسَتْ فيهِ المَحَبَّةُ فاغْتَدَى — مِنْ نَفْحِهِ جَوُّ ألحياةِ مُعَطَّرا

وإذا رأيتَ النَّبْتَ أزْهَرَ فاعْتَبِرْ — أنَّ ألمَلائِكَ يَبْسِمُونَ فأزْهَرا

وإذا رأيتَ ألشِّعْرَ نَوَّرَ فاعتقِدْ — أنَّ الحِسانَ ضَحِكْنَ فيهِ فنوَّرا[2]

ما ألشِّعْرُ لولاهنَّ إلاّ ما ادَّعى — مَنْ ليس يَشْعُرُ بالجمالِ وزَوَّرا

والزرعُ مِنْ حَظِّ ألبهائمِ إن يكُنْ — لا مُجْنِياً زَهَراً ولا مُسْتَثْمَرا

إنَّ الحِسانَ سَفائِنُ الأفكارِ إنْ — ماجَ ألقَرِيضُ على الخَواطِرِ أبْحُرا

فيهنَّ معنًى مثلُ سِرِّ الرُّوحِ لا — عَرَضاً تَراهُ ، ولا تراهُ جَوْهَرا

يَعشَنَ منهُ نُورُهنَّ يُضِيءُ مِنْ — ليلِ ألحياةِ لنا فَيَسْطَعُ مُقْمِرا

نورٌ متى وَجَّهْنَهُ جهةَ ألقلو — بِ تَرَ الدُّمَا غَشَّتْهُ ضَوْءاً أحْمَرا

---

(١) يحسُّ يشعر بالحوّاس المعروفة ، وهذا المعنى واقعٌ تثبته المشاهدة (ر).

(٢) نَوَّرَ الشجرُ: أخرجَ نَوْرَه ، بفتح النون ، وهو الزهر (ر).

ومتى صَرَفْنَ شعاعَهُ جهةَ ٱلنَّوى ... يُلْقِ ٱلسَّقامُ عليهِ لوناً أصْفَرا

ومتى بمِلْنَ بهِ إلى جِهَةِ الرِّضا ... تَرِمِ الحياةُ عليهِ لوناً أَنْضَرا

هذا هو ٱلشِّعْرُ الذي غَنَّتْ بهِ ... رُوْحِي على لَحْنِ ٱلشبابِ مُكَرَّرا

إنْ ألْقِهِ رَنَّ الوجودُ بلَحْنِهِ ... وتنفَّستْ لِصَداهُ أفئدةُ الوَرَىٰ

يا لحظةَ الحسناءِ لولا لَمْعَةٌ ... للفِكْرِ منكِ لما اهْتَدى وتَصَوَّرا[1]

يا لفظةَ الحسناءِ لولا رِقَّةٌ ... في ٱلقَلْبِ منكِ تُذيبُهُ لاستَحْجَرا

يا مَبْسَمَ الحسناءِ لولا بارِقٌ في اللحظِ ... منكَ لما أضاءَ وأسْفَرا

يا حُسْنَها لولا الأمانيُّ ٱلتي ... عَمَرَتْ بِكَ ٱلكَوْنَيْنِ قَبْلُ لأَقْفَرا

(٣)

الطِّفْلُ أوَّلَ ما يُفكِّرُ في ٱلتي ... هِيَ أُمُّهُ حتى يَشِبَّ وَيَكبُرا

وتَراهُ يُفكِّرُ بعدَ ذلكَ في ٱلتي ... هِيَ قَلْبُهُ حتى يُحِبَّ وَيَشْعُرا

وَيَظَلُّ يُفكِّرُ بعدَ ذلك في ٱلتي ... هِيَ زوجُهُ حتى يَزيدَ ويَكْثُرا[2]

ويعودُ يُفكِّرُ بعدَ ذلِكَ في ٱلتي ... هي رُوحُه حتى يموتَ ويُقبَرا

يا هذِهِ حَسْبُ ٱلنساءِ ، فهنَّ أوْ ... وَلُ مَنْ رأىٰ رَجُلٌ ، وآخِرُ مَنْ يَرَىٰ

❑ ❑ ❑

---

(١) أي تصور واهتدى ، فإنّ الواو عندهم لا تفيدُ الترتيبَ (ر) .

(٢) يزيد ويكثر كناية عن انتشار النسل منه (ر) .

معرض طنطا

رُفعتْ إلى سموِّ الجناب العالي الخديوي حفظه الله[1] حين زار المعرِضَ الذي أُقيم في مدينة طنطا سنة ١٩٠٧ م.

[من الطويل]

نَراكَ فَيُنْسِينَا الجلالُ ٱلَّذي نَرَىٰ ... محامِدَ ما يُرْوَىٰ لِكِسْرَىٰ وَقَيْصَرا
نَراكَ فتهتَزُّ ٱلقُلُوبُ كَأنَّها ... شُعَاعٌ تلاقى في ٱلْمَرَائي فَنَوَّرَا
وفيكَ لها معنًى هو الحُبُّ طاهراً ... تَمَثَّلَ في لفظٍ هو الْخُلْقُ أَطْهَرا
فحبُّكَ حيٌّ في ٱلقلوبِ وَكَمْ رأَوْا ... على صُحُفِ الأَلبابِ حُبّاً مُصَوَّرَا
وشَتَّانَ ما بينَ الكبيرِ جَلالُهُ ... وما بينَ منظورِ الجلالِ مُكَبَّرا
فما أُفْقُ ليلٍ بالمصابيحِ ساطعٌ ... كآخَرَ تجلوهُ ٱلطبيعةُ مُقْمِرا
نَهَضْتَ بِمِصْرٍ نهضةً في ابتدائِها ... تَخَطَّتْ علَى ٱلدُّنيا دُهُوراً وأَعْصُرَا
عُنِيتَ بها حتَّى رأينا تُرابَهَا ... يعودُ حياةً وَهْوَ قد كان عُنْصُرَا
وَكِدْتَ متى تمشي على الأَرضِ يَنْبَعِثْ ... بِمَوْطِىءِ نَعْلَيْكَ ٱلنباتُ على ٱلثَّرَىٰ
فَمَنْ خَصَّ بالدُّرِّ ٱلبحارَ فإنَّنا ... رأَينا تُرابَ الأرضِ في مِصْرَ جَوْهَرَا
(أَعَبَّاسُ) قد غَضَّ الزمانُ جُفُونَهُ ... فألْقَيْتَ فيها مِنْ سناكَ فأَبْصَرا
رأى أُمَّةً تَشْتَقُّ للعزِّ وٱلْعُلَى ... مَعَانِيَ في «أفعالِها» كُنْتَ «مَصدَرَا»
رَأَى ٱلمَجْدَ فينا بادياً في جَلالِه ... وقدْ كانَ في ٱلتَّاريخِ مِنْ قَبْلُ أَسْطُرا
وما إنْ يَرَى في «مَعْرِضِ ٱليوم» ناظرٌ ... سِوَىٰ رَسْمِ هاتيكَ الحياةِ مُصَغَّرا
يُحِبُّكَ أقوامٌ تكافأَ حُبُّهُمْ ... فلستَ ترى فيه أقلَّ وأكْثَرا

❑ ❑ ❑

---

(١) هو عباس حلمي الثاني بن توفيق بن إسماعيل (١٢٩١ ـ ١٣٦٣ هـ = ت ١٨٧٤ ـ ١٩٤٤ م) أحد من حكموا مصر من أسرة محمد علي.

مالك في معنى الكمال مبار

إلى صاحب السعادةِ الأستاذِ الحكيم أحمد فتحي باشا زغلول:

[من الطويل]

حمَلْتُ إليكَ ٱلمَدْحَ غيرَ مُدَاري ... ومـا رَيْـبُ عينـيْ مُبْصِـرٍ بنهـارِ
أرى لك في قومي مفاخرَ أنكرَتْ ... عليـكَ، وقـالـوا: غيـرُ ذاتِ فَخـارِ
دَرَارِيُّ مـا أخفيتُهـا فـي سمـائهـا ... وليسـتْ إذا أظهـرتُهَـا بِـدَرَارِي
أَرُوني جنَاحَ ٱلطيرِ من أينَ تَخْتَفي ... قـوادِمُـهُ إنْ هَـزَّهَـا لِمَطَـارِ[1]
يُـاريكَ قـوْمٌ أنـتَ فـوْتٌ لِجَهْدِهِـمْ ... فمـا لـكَ فـي مَعْنـى ٱلكمـالِ مُبَـارِي
ومَـنْ سـابـقَ ٱلأطيـارَ يـأْخُـذُ سَمْتَهَـا ... علـى الأرضِ لا يجـري بِـدُوْنِ عِثَـارِ
مَضيْتَ مَضَـاءَ ٱلسيفِ لاقَى ضَرِيبَـةً ... فمـا لاحَ مِنْـهُ رَوْعُهـا بِغِـرَارِ[2]
وتُقْـدِمُ وٱلأمْـرُ ٱقْتحـامٌ وغَمْـرَةٌ ... يُصَـاحُ بجنبيهـا حَـذَارِ حَـذَارِ
عَـزِيمَـةُ حُـرٍّ لا يُعـارِضُهَـا هَـوىً ... صـدورٍ وأكبـادٍ عليـهِ حِـرَارِ[3]
وفي ٱلناسِ مَنْ يَرْجُو الخيالَ فإنْ رَأى ٱلـ ... ـحقيقـةَ يَضْـرِبْ دُوْنَهـا بِسِتَـارِ
وَمَـنْ يتَمَثَّـلْ فـي النُّجُـوْمِ سفـائنـاً ... يَظُنُّ ٱلسمـا وٱلسُّحْـبَ مَـوْجَ بِحَـارِ
وَمَنْ يَنْعَطِفْ للغيِّ في طُرُقِ الخَطَا ... فـأَهْـوِنْ بـأَنْ يُفْضِـي لِمَسْلـكِ عَـارِ
نَبَلْـتَ لهـاتِيـكَ ٱلمكـارِمِ نَيْلَهَـا ... فدعْ عنك مِنْ ماري ومن سيماري
وكم مِنْ حَسُوْدٍ ذِي شَذَاةٍ طَرَحْتَهُ ... فلـم تَـكُ إلاَّ نَفضـةٌ لِغُبَـارِ[4]
يـرى حِطَّـةً أنْ يُـرْغِـمَ الحَـقُّ أنفَـهُ ... وَللـرَّغـمُ دونِ الحـقِّ خيـرُ وَقَـارِ

---

(١) القوادمُ والقدامي ريشاتٌ في مقدّم جناحِ الطائرِ، قيل أربع، وقيل عشر، وعكسها الخوافي (ر).

(٢) الغرار: حدُّ السيف (ر).

(٣) الحرار: جمع حار، والمراد بذلك التخيُّظ (ر).

(٤) الشذاة: الأذى (ر).

وكُلُّ جبانِ ٱلطَّبْعِ يُعْذَرُ إنْ يَكُنْ تصوَّرَ أخلاقَ ٱلكرامِ ضَوَارِي

(٢)

أرى شِيَماً غُرّاً كَمَطْلُولَةِ الرُّبىٰ وفيهنَّ أشعارِي خُلقنَ قَمَارِي

وَحَسْبِيَ مِنْكَ ٱلفَضْلُ كَعْبَةَ آمِلٍ يَطُوفُ نِظَامِي حَوْلَهَا ونِثَارِي

لِهَذَا ٱلبيانِ الجَزْلِ قُطْبانِ كُلَّما لَمَسْتُ يَرَاعِي آذَنَا بِمَدَارِ

يَرَاعٌ متى يَجْرِ استَبَدَّ بِغَايةٍ تُساوِي كِباراً دُونَهَا بِصِغَارِ[1]

تَؤُمُّ ٱلمغانِي ضَوْءَهُ كيفما أَضَا بِشُعْلَةِ نُورٍ أو بِجِذْوَةِ نَارِ

إذا أغضبوه ذابتِ الشَّمْسُ مَدَّةً له وإذا يَرضَى فرَشْفُ عُقَارِ[2]

بلغتَ بِهِ سِرَّ ٱلعُلَىٰ وصَمِيمَهَا يحفُّ بِيمِيني مَجْدُها ويَسَارِي

❑ ❑ ❑

---

(١) استبدَّ بالغاية : انفرَدَ بها ، فلم يشاركْ (ر).

(٢) المَدَّة : القطرةُ يستمدُّها القلمُ (ر).

موضع الخير

[من البسيط]

إنْ كنتَ تَرْجُو ثَوابَ الخَيْرِ مِنْ أَحَدٍ ... فكُنْ بِهِ لِكَرِيْمٍ خَيْرَ مِعْوَانِ(١)

يرى الكَرِيْمُ جَمِيلاً في الجَمِيْلِ كما ... يُرِيكَ لوناً جديداً مَزْجُ أَلْوَانِ(٢)

وحاذِرِ اللُّؤْمَ إنَّ اللُّؤْمَ مَضْيَعَةٌ ... ولو رَمَى الخيرَ فيهِ كُلُّ إنسانِ

لا يُورِقُ العُوْدُ في نارٍ وإنْ سُقِيتْ ... ماءً، وجاءَ عليها شَهْرُ نَيْسَانِ(٣)

❑ ❑ ❑

---

(١) فكن به: بالخير (ر).

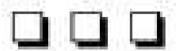
(٢) من المعروف أنّ اللونَ إذا امتزج بلونٍ آخرَ أنتجا لوناً جديداً متشابهاً أو مغايراً، كاللون الأصفر إذا مزج بالأزرق انتجا اللون الأخضر (ر).

(٣) نيسان رابع الشهور الرومية، وفيه يبتدئ توريقُ الشجرِ (ر).

الكسلان والكسل

[من الطويل]

ذليـلٌ كَفَتْـهُ ذِلَّـةُ ٱلنَّفْـسِ همَّـهُ   فأَخْلَدَ لا يَرْجُوْ على الدَّهْرِ مَغْنَما
إذا ذكَّـروه بـالمَعَـالـي رَنَـا لهـا   فـأُوْهَـمَ أَنْ قَـدْ نَـالَهَـا فَتَـوَهَّمـا
كـرؤيـا ٱلفتى إذ بـاتَ يُجْهِـدُ نَفْسَـهُ   ومـا زالَ مُلْقًى فـي ٱلفراشِ مُنَوَّما
ثقيـلٌ لـدى الأعمـالِ تَحْسَـبُ قلبَـهُ   حوَى مـاءَ ثلجٍ مُؤْذِيَ ٱلبَـرْدِ لا دَما
فـلا مِـنْ حيـاءٍ أو حيـاةٍ بـهِ دَرَى   معـانـي ٱلمعـالـي مـرَّةً فتقـدَّمـا
ألا إنَّ لـلإنسـانِ عُمْـراً مُحـدَّداً   وليـس بِمَـرْدودٍ لـه مـا تَصَـرَّمـا
فـإن مَـرَّ يـوْمٌ أنـتَ لـم تنتفـعْ بـهِ   فقد مُتَّ يوْماً في حياتِكَ فاندَما
وإنَّ ٱلقضـا سَعْـيٌ فلـم يـكُ واقـفٌ   لِيُوْقِفَ سَعْيَ الأَرضِ يوماً ولا ٱلسما



الغزل والذكرى

[من الكامل]

(١)

لـو أبصـرَتْ عيناكِ مِنْهُـم مـا لقـوا ... والحُبُّ قـاتِلُهُـمْ رَثَيْـتِ لِمَـنْ بَقُـوا
لا تعـذُلـي قـومـاً بِحُبِّكِ أصبحـوا ... فـي ٱلهـالكيـنَ كـأنَّهُـمْ لـم يُخْلَقُـوا
عـاشـتْ قلـوبُهُـمُ ومـاتـوا ظـاهِـراً ... مَـوْتَ ٱلغصـونِ إذا تَجِـفُّ وتُـورِقُ
كـونـي الـرَّبيعَ لهـم فَـوَرْدُكِ نـاضِـرٌ ... فِي الوجنتينِ ورَوْضُ حُسْنِكِ مُونِقُ[1]

(٢)

أطـرقـتُ أنظـرُ فـي زمـانِ شبيبتـي ... وٱلنـاسُ قـد عَجِبُـوا لِمَـاذَا أُطـرِقُ
فـرأيـتُ أيّـامَ الصبـابـةِ أبْعَـدَتْ ... فـي ٱلغيـبِ حتّـى شأْوُهـا لا يُلْحَـقُ
ورأيْـتُ هـاتِيْـكَ الـوعـودَ حمـائِمـاً ... فـي رَوْضَـةِ ٱلعَتْـبِ الشجيَّـةِ تَنْطِـقُ
وهنـاكَ مـن قُبُـلاتِ هِنْـدَ أزاهِـرٌ ... مـا زالَ ذاكَ ٱلطِّيْـبُ فيهـا يَعْبَـقُ[2]
فيهـنَّ مِـنْ فَـرَحِ اللقـاءِ مَـدَامِـعٌ ... هـي كـالنَّـدى مُتَسـاقِطـاً يَتَـرَقْـرَقُ
وكأنَّ مـا ابتسمتْ ومـا ضَحِكَتْ غداً ... شيبـاً علـى تلـكَ الليـالـي يُشْـرِقُ

(٣)

وَاهـاً لِظُلْـمِ الحُـبِّ يَنْهَـدُ ٱلفتـى ... فـي لَيْلِـهِ ، ويُقـالُ: أمسـى يـأْرَقُ[3]
ويُنـازِعُ الـوَجْـدَ ٱلمُبَـرِّحَ نَفْسَـهُ ... وشبـابَـهُ ، فيُقَـالُ عَنْـهُ: شَيِّـقُ
وتَـرُجُّ زَلْـزلَـةُ ٱلعـواطِـفِ قلْبَـهُ ... فيُقَـالُ إنْ وصفـوه: قَلْـبٌ يَخْفُـقُ
صبـراً فقـد ظَلَمُـوْكَ حتـى لا أرى ... مَـنْ يُنْصِـفُ ٱلعُشّـاقَ يـا مَـنْ يَعْشَـقُ

❏ ❏ ❏

---

(١) آنقه بالمد فهو مُونق: أعجبه(ر).

(٢) عبق الطيب كفرح لزق ، فكانت فيه ريحُه (ر).

(٣) يرادُ بهذا البيتِ وما بعده تصويرُ الفرقِ بين حقيقة العواطف والألفاظ التي اصطلحَ الناسُ على أن يعبروا بها عنها(ر).

الحسن الميت

[قال] يرثي حسناء ماتت في نضرة الصبا بلسان مُحِبٍّ لها:

[من الطويل]

(١)

أظبيةَ نَجْدٍ إنْ يَبِتْ مِنكِ خاليًا ... فلا وَصَفُوا بالحُسْنِ بَعْدَكِ وَادِيا

ويا نَفْحَةَ الأحْبابِ إنْ لم تُرَوِّحِي ... عليَّ فلا هَبَّ النَّسِيمُ يَمانِيَا

ويا حُبُّ إنْ لم يَبْقَ لي مَنْ أُحِبُّهُ ... فلا نظرتْ عيني على الأرْضِ باقِيَا

ويا قَبْرَها بيني وبينَكَ عالَمٌ ... فيا ضَعْفَ صَوْتي إنْ دَعَوْتُ مُنادِيا

أَيَخْتَرِقُ الغَيْبَ البَعِيدَ تَنَفُّسِي ... ولمَّا يَكَدْ يبدو مِنَ القلبِ خافِيا

يموتُ حَبِيبُ المَرءِ والمرءُ بعدَهُ ... يَعِيشُ كأنَّ المَوْتَ أصبحَ ناسِيا

فيا حَسْرَةَ الأحْبابِ حتَّى الرَّدَى لهمْ ... عَذولٌ فما اسْطَاعُوا لديه التَّلاقِيا

ويا حُسْنَها بيني وبينكَ مُهْجَةٌ ... أَبَتْ للتَّعازِي أنْ يَكُنَّ مَعازِيَا

كأنَّ دُمُوعي إذ بكيتُ رَثَيْتَنِي ... فَلَهْفِيَ مَبْكِيًّا عليَّ وباكِيا

(٢)

سَتَنْبُتُ أَزْهارٌ هناكَ جَدِيدَةٌ ... بما كانَ في ذاكَ الفؤادِ أمانيا[1]

فَإِنْ مَسَّها دَمْعُ النَّدَى اضطربتْ لهُ ... متى ذَكَرَتْ مِنَّا الهوى والتَّصابِيا

فَمِنْ طَرَبِ الغيداءِ ما كانَ ناصِعاً ... ومِنْ خَجَلِ العَذْراءِ ما كانَ قانِيا[2]

---

(١) هناك أي على القبر (ر).

(٢) الناصع: شديد البياض، والقاني: شديدُ الحمرة (ر).

(٣)

وبا «هَذِهِ» والحُبُّ واليأسُ والجَوَى — عَلَى «هـذِهِ» فَـرَّقْـتُـهُـنَّ معـانيـا

غَـدَا للهـوى قَبْـرَانِ ضَمَّـكِ واحـدٌ — وضَمَّنْتُ مِـنْ قلبـي جمـالـكِ ثَـانِيـا

فَـوَيْـحَ الليـالـي حيـنَ تُطْلِـعُ بَـدْرَهَـا — إذا لـم يُضىءْ هـذا الجَمَـالُ اللَيَـالِيَـا

❑ ❑ ❑

الصبر المنفي

[من مجزوء الرجز]

بَعَثْتُ صَبْرِي لَيْلَةً ... مُسْتَعطِفاً لِلْوَسَنِ
فَمَرَّ بالأَطفالِ أَهـ ... ـنا ما يُصَادَفُ ٱلهني
وأَبصرَ الأشياخَ كالـ ... أَمواتِ تحتَ الكَفَنِ
وأَفزعتْهُ نظرةٌ ... في اللَّيْلِ مِنْ عينِ غَنِي[1]
واستكشَفَ الأَحلامَ وَهـ ... ـيَ في ظُنُونِ الزَّمَنْ
فاختَطفَتْهُ لَوْعَةٌ ... عِنْدَ طريقِ ٱلشَّجَنِ
وحاكَمَتْهُ في هَوَى ٱلـ ... ـغيدِ قُضاةُ ٱلفِتَنِ
فأَجمعوا أَن يُبعِدُو ... هُ في قِفارِ ٱلمِحَنِ
وٱلصبرُ إن يَبْعُدْ فَبَعْـ ... ـدُ ٱلصَّبْرُ قُرْبُ الحَزَنِ
هذا ٱلهَوَىٰ أو بَعْضُهُ ... ليتَ ٱلهَوَى لم يكُنِ

❑ ❑ ❑

(١) لأنَّ الأغنياء الذين يثبت معهم هذا اللقب هم الذين يسهرون في هَمِّ أموالهم (ر).

ما أحلى الزمان قديماً!

[من الطويل]

وقال:

ألا هَلْ أرى يوماً كَعَهْدِي وعهدِهَا ... قديماً ، ومَا أَحْلَى الزَّمَانَ قَدِيْما

لِيالٍ مَحَاهَا الدَّهرُ إلاَّ صَحِيْفَةً ... بِقَلْبِي حَوَتْ مِنْ وَصْفِهِنَّ رُسُوما

إذا الْتَفَتَتْ نَفْسِي إليها تَحَرَّكَتْ ... فَأُمْسِكُهَا أَنْ تَستَطِيرَ نَسِيْمَا

وَبَعْضُ مَسَرَّاتِ النفوسِ إذا مضى ... زمانُ هَوَاها يَسْتَحِلْنَ هُمُوما

فَوَيْحِي كأَنَّ الدَّهْرَ والحُبَّ والنَّوى ... قد اتَّفقتْ أَنْ لا أزالَ سَقِيْما

❑ ❑ ❑

دموع الحبيبة

[من الكامل]

(١)

ما شئتِ ـ إلاّ أن تَصُدّي ـ فافعلي وارمِي الهوى في غيرِ هذا المَقْتَلِ
وتَعَلَّلي فيما جَنَيْتِ فإنّني لَيَلَذُّ لي في الحُبِّ أنْ تَتعلّلي
لِلْوَجْدِ آلامٌ إذا هِيَ لم تكُنْ فالحُبُّ عن تلكَ القلوبِ بِمَعْزِلِ
وَلَئِنْ تَجِدْ زَهْراً بلا عِطْرٍ يُشَمْ مُ فلا تَرَى حُبّاً بِغَيْرِ تَذَلُّلِ

(٢)

يا ظبيةَ الوادِي متى لكِ ذا النّفا رُ وَحَيْرَةٌ في لَحْظِكِ المُتَنَقِّلِ
الحُسْنُ فِيكِ طبيعةٌ نشأَتْ وقد كَمُلَتْ لِهِنْدٍ على تَرَقِّي الأفضَلِ[1]
يا هِنْدُ حَسْبُكِ فالظِّباءُ كما تَرِ يْنَ بجنبِ حُسْنٍ في المقامِ الأسْفَلِ
هَبَطَتْ مِنَ الجنّاتِ يوماً نَسْمَةٌ لِمَحَاسِنِ الدُّنيا تَزُوْدُ وتَجْتلي
فَتَفَتَّحتْ كُلُّ الزُّهورِ لها تريـ ـدُ نُزُولَها فيها ولم تَتنزَّلِ
حتّى إذا مَرّتْ بِوَجهِكِ آنَسَتْ رَوْحَ الجِنانِ وَبَرْدَ ذاكَ المَنْهَلِ
وَقَفَتْ على شفتيكِ لا الخَدِّ الّذي فَاحْمَرَّ مِنْ حَسَدٍ ، وقالَ لها: ادْخُلي

(٣)

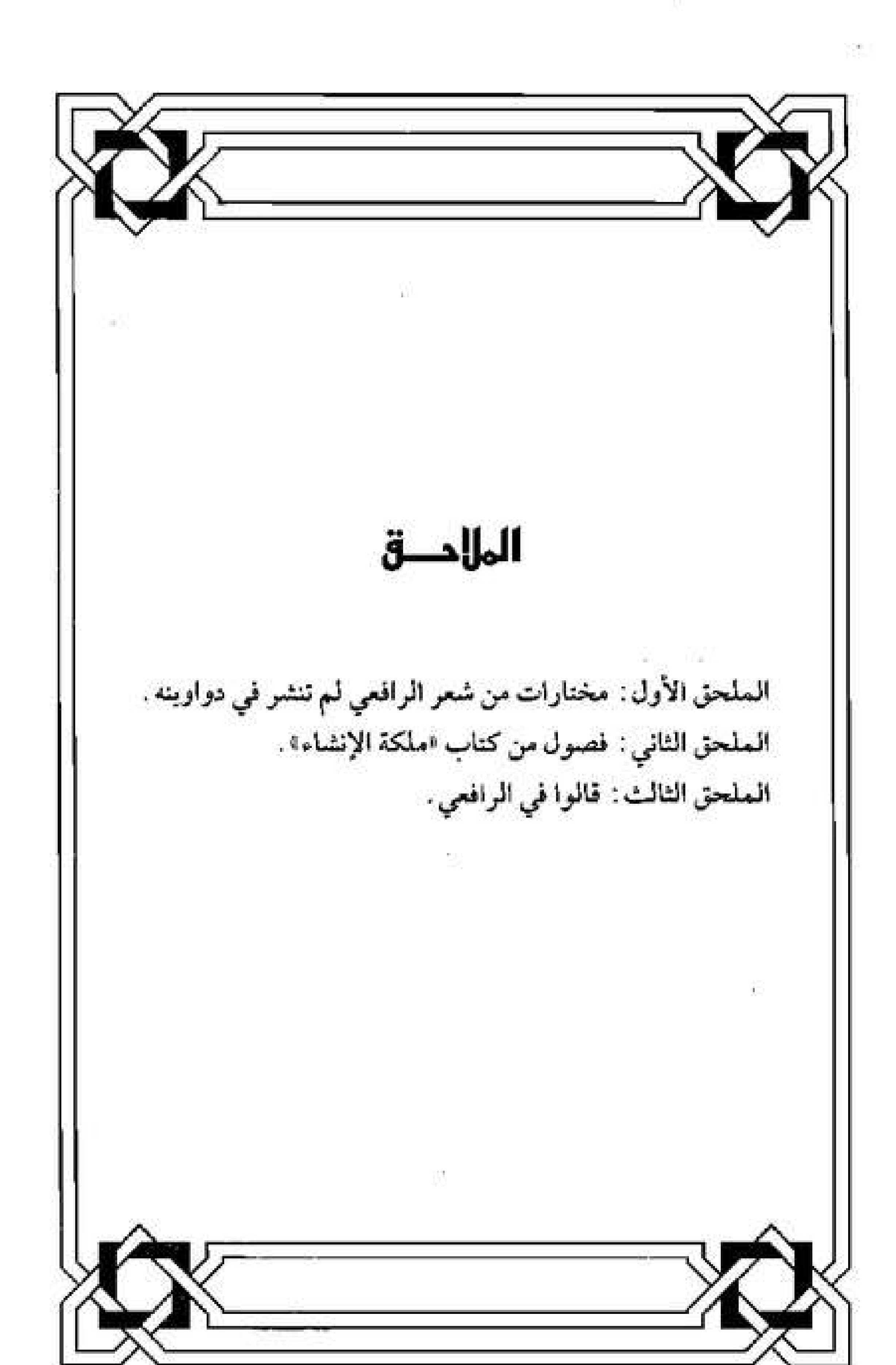
يا دمعةً يَوْمَ العِتابِ لَمَحْتُها في ذلكَ الطَّرْفِ الغَضيضِ الأكْحَلِ
سَقَطَتْ من الأهدابِ بَعْدَ تَرَدُّدٍ كالنُّورِ في ظِلٍّ يَغِيبُ ويَنْجَلي
مَثّلْتِ لي مِرآةَ أحلامي إذا انْـ ـعكَسَ الهوى فيها بِنُوْرِ تَخَيُّلي

---

(١) يريد مذهب النشوء والارتقاء: وهو يقضي بترقي الأحياء من نوعٍ إلى نوعٍ منه (ر).

أَلآنَ أُمْطِـرُ رَوْضُ آمـالـي ، ومـا   مَسَّتْـهُ أَدْمُـعُ حُبِّهـا لـم يَـذْبُـلِ
دَمْـعُ الحَبِيْبَـةِ فَـوْقَ أهـواءِ ٱلقلـو   بِ نَـدًى تَـرِفُ بـه عَلَـى ٱلمُسْتَقْبَـلِ

❑ ❑ ❑



الملاحق

الملحق الأول: مختارات من شعر الرافعي لم تنشر في دواوينه.

الملحق الثاني: فصول من كتاب «ملكة الإنشاء».

الملحق الثالث: قالوا في الرافعي.



الملحق الأول:

مختارات من شعر الرافعي
مما لم ينشر مما دواوينه

١ ـ زمن الدراسة . . بعد المدرسة .

٢ ـ قلبي . . قلبي .

٣ ـ أنا ونفسي .

٤ ـ التبرج .

٥ ـ التخنّث .

٦ ـ كمايرى مُفْرَغاً في جسمه السبعُ : رثاء أحمد تيمور باشا .

٧ ـ ربنا إياك ندعو .

٨ ـ لك يا مصر السلامة .

٩ ـ لسان الصحراء .

أيام الصّبا

«انقطع الرافعيُّ عن التعلُّم في المدارس بعد حصوله على الشهادة الابتدائية لعلّة أصابته في أذنيه ، فكانَ لذلك أثرٌ شديدٌ في نفسه ، وكان بذلك يرى نفسَه ، وهو في العشرين كأنّما ودّعَ الشبابَ ، فهو كثيرُ الالتفاتِ إلى الماضي ، والحنينُ إليه ، وما كان له من ماضٍ بعدُ إلا المدرسة التي هجرها برغمه من جرّاء العلّة التي نالته.

فاستمعْ إليه في القطعتين التاليتين يتحدّثُ عن المدرسةِ وعهدِ الدراسةِ كما يتحدّثُ الشيخُ الهِمُّ عن ماضيه البعيدِ ، والقطعتان من أوّلِ ما قال الرافعيُّ من الشعرِ وهو ابنُ عشرين سنة»[1].

محمد سعيد العريان

زمن الدراسة

[من الخفيف]

زَمَــنٌ كـــالــرَّبيــعِ حَــلَّ وزالا ... ليــتَ أيــامَــهُ خُلِقْــنَ طِــوالا!

يَحْسَبُ الطفــلُ أنّــه زَمِــنُ الهــمِّ ... ومــا الهَــمُّ يَعْــرِفُ الأطفــالا

يا بَني الدَّرْسِ ، مَن تَمنّى الليالي ... كليــالِيكُــمُ تمنَّــى المُحــالا

ليلــةٌ بعــدَ ليلــةٍ بَعْــدَ أُخــرى ... وليــالــي الهَنــا تَمرُّ عِجَــالا

قــد خَبِــرْنَــا الأنــامَ فــي كــلِّ حــالٍ ... فــإذا الطفــلُ أحســنُ النــاسِ حــالا

وهــو إنْ جَــدَّ لــم يــزلْ فــي صعــودٍ ... وكــذا البَــدْرُ كــان قَبْــلُ هِــلالا

(١) نشرت في الرسالة السنة الخامسة ٢/٨/١٩٣٧ العدد ٢١٣ ، ص١٢٧٤ .

غَيْرَ أنَّ الكَسُولَ في كلِّ يومٍ ... يَجِدُ اليومَ كُلَّهُ أهْوَالا
ويرى الكُتْبَ والدفاترَ والأقْـ ... ـلامَ وأوراقَ دَرْسِهِ أحْمالا
وإذا ما مَشَى إلى قاعةِ الدَّرْ ... سِ ذِراعاً يظنُّه أميالا!
مَنْ يَقُمْ في الأمورِ بالجِدِّ يَهْنَا ... والشَّقَا للذين قاموا كُسالى
وزَمانُ الدُّرُوسِ أضيقُ مِنْ أنْ ... يَجِدَ الخاملونَ فيه مَجَالا
أيُّها الطِّفْلُ لا تضيِّعْ زماناً ... لَسْتَ تَلْقَى كَمِثْلِهِ أمثالا
ربَّما نِلْتَ ما يفوتُ، وهيها ... تَ إذا فاتَكَ الصِّبا أنْ تنالا!

بعد المدرسة[1]

[من الخفيف]

ما لأيَّام ذا الصِّبا تتفانَى؟ ... وقديماً عَهِدْتُها تَتَوانَى
ذَهَبَتْ بالصِّبا، سلامٌ عليها ... مِنْ فؤادٍ بحبِّها ملآنا
كلُّ ذي حالةٍ سيُمْنَى بأُخرى ... ويلاقي بعدَ الزمانِ زمانا
والفتى مَنْ إذا تَغَيَّرَ حالٌ ... لم يَقِفْ في وجوهِهِ حيرانا
هذهِ ساعةُ الحصادِ، فَمَنْ كا ... نَ تَعَنَّى أراحَه ما عانَى
والذي يَزْرَعُ التهاوُنَ في الأشْـ ... ـياءِ لا يَجْتَنِيهِ إلا هَوَانا
ليس يُجْدي الإنسانَ أنْ يأمَلَ النَّا ... سُ فلاناً مِنْ قومِهِ وفلانا
فاشْعَ في الأرضِ، إنَّ عِقبانَ هذا الـ ... ـجوِّ لا يرتضينَ فيه مكانا
واحذرِ الناسَ، إنَّما يأمَنُ النا ... سَ صَبِيٌّ يظنُّهم صبيانا
واركبِ الجِدَّ في الأُمورِ ولا تَجْـ ... ـبُنْ إذا فاتَ بعضُها أحيانا
إنَّ هذا الوجودَ كالحربِ: لا يُكْـ ... ـرَمُ في الحَربِ مَنْ يكونُ جبانا

سنة ١٩٠١م

□ □ □

(١) هذه القطعة ألقاها في الحفلة السنوية لجمعية الاتحاد والإحسان السورية المصرية بطنطا في ٢٢ أبريل ١٩٢١ م (سعيد).

قلبي.. قلبي

[من البسيط]

قلبي أأنتَ نصيري في محبَّتِها ... أمْ أنْتَ يا قلبُ فيها بَعْضُ أعدائي
كلُّ الذي فيكَ مِنْ بُرئي وعافيتي ... هو الذي فيكَ مِنْ سُقمي ومن دائي
يا رحمتا لكَ مِنْ قلبٍ كَصَوْمَعَةٍ ... في رأسٍ شاهقةٍ في جوفِ صحراءِ
شِيْدَتْ مَنَ الصَّخْرِ لكن في طهارتها ... هي الغمامةُ قد شِيْدَتْ مِنَ الماءِ
فالموتُ فيها بلا معنًى يميتُ كما ... فيها الحياةُ بلا معنًى لأحياءِ
يا حسرتا لكَ مِنْ قلبٍ تقلَّبَ مِنْ ... جوعٍ لجوعٍ وإظماءٍ لإظماءِ
عندَ الأحباءِ لا يألو منازعةً ... وإن تكنْ روحُهُ عندَ الأحبّاءِ
ناءٍ قد ازْوَرَّ عن ناءٍ وما ابتعدا ... لكنْ معانِدُ مَنْ يهوى هو النائي
يظلُّ ذاكرَ حبٍّ غيرَ مُحْتَفِلٍ ... ذكرى وناسِيَ حُبٍّ غيرَ نَسّاءِ
أوفى بك الحبُّ يا قلبي على زمنٍ ... كالأرضِ بعدَ حصادِ الزَّرْعِ للرائي
سوداءُ شعثاءُ مغبرًّا جوانِبُها ... مِنْ بعدِ لُقْاءَ ريّا النبتِ خضراءِ
قلبي إنْ بِتُّ مطوياً على حُرَقٍ ... مِنَ الصبابةِ تُطْفِئُها بإطفاءِ
ويكَ أتئِدْ إنَّ نيراناً تحرّقني ... في حُبِّها هي نيراني وأضوائي
يا بؤسَ للقلبِ مِنْ هجرٍ عرفتُ به ... ثِقَلَ الزمانِ على قلبي وأحشائي
يمرُّ يومٌ فيومٌ في تسلسلِهِ ... والحبُّ جالسني في يومِ أخطائي
مثل الضَّبابِ على الأنوارِ يتركُها ... مرضى من النورِ قد حُمَّتْ بظلماءِ
وشُقَّةُ الهجرِ تمضي لا انتهاءَ لها ... إذ الدلالُ مشى فيها بإبطاءِ[1]

❑ ❑ ❑

---

(١) الرسالة ، السنة الخامسة ١٩٣٧/٨/٢٣ العدد ٢١٦ ص ١٣٩٠ .

أنا ونفسي

[من البسيط]

أَعْنَتْ نفسيَ حتّى مضَّها السَّأَمُ ... وكـدَّها عُمُرٌ في الجِدِّ يَنْصَرِمُ

قالتْ تُحاوِرُني: يا ويحَ قلبِكَ مِن ... قلبٍ بنى ما بناه وهو يَنْهَدِمُ

أذابَ أكثرَه إبداعُ أيْسَرِه ... كالسِّنِّ مِنْ قلمٍ فيه انبرى القَلَمُ

مقيَّدٌ في وَثاقٍ مِنْ خلائقِهِ ... فما له لَذَّةٌ إلاَّ لها أَلَمُ

يناشِدُ المثَلَ الأعلى وفيه إلى الـ ... أدنى مُجاذَبةٌ ما دامَ فيه دَمُ

يا مُفنيَ العُمْرِ في التفتيشِ عَنْ حُلُمٍ ... لو كانَ يُدرَكُ ما كانَ اسمَه الحُلُمُ

ما لَذَّةُ العيشِ إمَّا كُنْتَ مُنْقَسِماً: ... ففيكَ قاضٍ وسجّانٌ ومُتَّهَمُ

دأْباً تَظَلُّ سَجِيناً لا انطلاقَ لَهُ ... ما دامَ لِلْعَقْلِ قاضٍ فيكَ يَحْتَكِمُ

إنَّ الصَّبيَّ صَبِيٌّ في طَبائِعِهِ ... فالنَّهْيُ والأمْرُ في أخلاقِهِ هَرَمُ

والقَيْدُ قَيْدٌ، وإنْ قالوا اسمُهُ خُلُقٌ ... والهمُّ همٌّ، وإنْ قالوا اسمُهُ هِمَمُ

كم لفظةٍ في لغاتِ النّاسِ مُجْرِمَةٍ ... لو حاكَمُوْهَا أماتوها وما رَحِمُوْا

ففي القبورِ لسفّاكي الدِّمَا رِمَمٌ ... وللشهامةِ في أجْداثِها رِمَمُ

موْتى كموتى، فلا زادوا ولا نَقَصُوْا ... وإنْ تَكُنْ قتلَتْ إحداهُما الذِّمَمُ

واثنانِ لِصانِ في الأموالِ قد رتعا: ... اللصُّ تَعْرِفُهُ، والآخَرُ... الكَرَمُ

فقلتُ للنَّفْسِ تَأْساءً وتَعْزِيَةً ... إنَّ الصَّواعِقَ ممّا تَجلِبُ الدِّيَمُ

* * *

يا نفسُ ويحَكِ ما في السَّهْلِ مِنْ قِمَمٍ ... وإنَّما شَمَخَتْ في طَوْدِهَا القِمَمُ

مَنْ كانَ في نفسِهِ أرضاً مُوطَّأةً ... تَطَأُهُ مِنْ كُلِّ شيءٍ حَوْلَهُ قَدَمُ

ومَنْ تَكُنْ نَفْسُهُ بحراً - تُرجرِجُهُ ... أمواجُهُ - لم يَزَلْ يَدْوِي وَيَلْتَطِمُ

وَمَنْ يَكُنْ طامِيَ البركانِ مُنْفَجِراً فَوَّارُهُ طاشَ مِنْهُ الجَمْرُ والحِمَمُ

الخُلْقُ ما الخُلْقُ إلاَّ ما يُنَوِّعُهُ في الناسِ مِنْ دهرِهِم ما شاءَتِ الحِكَمُ

مِنْهُم زجاجٌ وَمِنْهُم جَنْدَلٌ عَسِرٌ فحاطِمٌ في تلاقيهم وَمُنْحَطِمُ

حالٌ تُلائِمَ حالاً في مناسبةٍ والضِّدُّ لِسَ بغيرِ الضِّدِّ يَلْتَئِمُ

إنْ لم يَكُنْ عِنْدَهُمْ لَوْحُ الوجودِ فما عساكَ تَحْسَبُهُمْ في اللَّوْحِ قد رُسِمُوا

هي الروايةُ أحداثٌ يجيءُ بها ممثلوها على ما صَوَّرَ القَلَمُ

وكُلُّ لفظٍ لمعناهُ ، فإنْ تَكُ لا تجري المعاني فلنْ تَجْرِي بها الكَلِمُ

يا حَيْرَةَ العقلِ ، هَلْ للظلمةِ انبثقتْ أنوارُها أم على أنوارِها الظُّلَمُ

والخيرُ والشرُّ أيُّ اثنيهما هو مِنْ خيرٍ ، وأيُّهما الشرُّ الذي زَعَمُوا

هل الأُلى حُرِمُوا إلاَّ بِمَنْ رُزِقُوا أمِ الأُلى رُزِقوا إلاَّ بمن حُرِموا

يجني على الشاءِ نابُ الذئبِ ويحكَ أمْ تجنى على الذئبِ مِنْ لُحْمانها الغَنَمُ

* * *

لم يُخلَقِ الناسُ إلاَّ خَلْقَ مُشكلةٍ بما به افترقوا تَلْقَاهمُ انْتَظَمُوا

لكانتِ الأرضُ لا همٌّ ولا تَعَبٌ لو أصبحَ العُمْرُ لا موتٌ ولا سَقَمُ

ممّا وُلدتَ رضيعاً ، وانْتَشأْتَ فتًى وَعِشْتَ مِنْ بعدُ كهلاً جاءَكَ الهَرَمُ

فما الذي أنتَ راضيه فحامِدُهُ إلاَّ الذي أنتَ شاكِيهِ فمتَّهِمُ

هَمُّ الحياةِ كمثلِ الجَمْرَةِ اضطرمتْ فما الرَّمادُ سِوَى ما كانَ يَضْطَرِمُ

* * *

يا نفسُ ويحَكِ أرضي الجدَّ مِنك فتًى ماضي العزيمةِ وَثَّابٌ فَمُقْتَحِمُ

لا تعرضي ليَ لَذّاتِ الهوَى أبداً ما للهوى في لساني «لا» ولا «نَعَمُ»

كأسُ المُدامةِ في بعضِ الخطابِ فَمٌ وَمَدْفَعُ الحَرْبِ في بعض الكلامِ فَمُ

ما لَذَّتي أنا إلاَّ أنْ أكونَ فتًى كما يُرَفْرِفُ في أعلى الذُّرى عَلَمُ

كأنَّهُ صفحةٌ منشورةٌ قَرَأَتْ فيها ضمائرَها العُلْوِيَّةَ الأُمَمُ

سِلْمٌ وَحَرْبٌ له في سِلْمِها عِظَمٌ يخشَوْنَهُ، ولهُ في حَرْبِها عِظَمُ

* * *

أنـا المقيّدُ فـي نفسِـي وفـي خُلُقـي ... كـأنّنـي عَهْـدُ حُـرٍّ قيـدُهُ القَسَـمُ
لا كـالخليـعِ يـرى الأخـلاقَ تَمْنَعُـهُ ... جُـرْمـاً عليـكِ ، فيلقيهـا وَيَجْتَـرِمُ
شتّـانَ بيـنَ امـرىءٍ فـي نفسِـه حَـرَمٌ ... قُدْسٌ ، وبينَ امرىءٍ في نفسِهِ صَنَمُ
لا تحسبـوا كُـلَّ قيـدٍ قيـدَ حـامِلِـهِ ... بَـلْ قُيِّـدَتْ نِقَـمٌ فيـهِ أو النِّعَـمُ
كيفَ السِّبَاقُ غداةَ السَّبْقِ إنْ جُمِعَتْ ... لَـهُ الجيادُ ولـم تُـوضَـعْ لها لُجُمُ؟
والعُـوْدُ أوتـارُهُ إن لـم تَشَـدَّ بِـهِ ... شَـدَّ المقيَّدِ لـم يَصْدَحْ لها نَغَـمُ[1]

❑ ❑ ❑

---

(١) نشرت في مجلة الزهراء التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب بمصر عدد جمادى الآخرة عام ١٣٤٥هـ ص ٣٨١ ـ ٣٨٣.

التبــــرج

عثرنا على قصيدةٍ مِنْ شعرِ نابغةِ الأدبِ وحجةِ العربِ الأستاذ السيد مصطفى صادق الرافعي رحمه الله وصفَ فيها تبرُّجَ النساءِ وصفاً بليغاً لاذعاً ، وقد أخرَجها على هذا الرويِّ اللَّيِّنِ الناعمِ الظريفِ ، حتى يكونَ خطابُه للجنسِ اللطيفِ في أسلوبٍ دقيقٍ يوافِقُ مزاجهنَّ ورقتهنَّ ، وهي من القصائدِ التي لم تنشر في ديوانه .

محمود أبو رية

[من الوافر]

دلالُكِ في التبرُّجِ مِنْ ضَلالِكْ   وما عابَ الدَّلالَ سوى دلالِكْ

كَمُلْتِ تبرُّجاً فَكَمُلْتِ حُسْناً   ولكنْ جاءَ نقصُكِ مِنْ كمالِكْ

لِمَنْ تتبرَّجينَ وذي سبيلٌ   وما هي أفْقُ شمسِكِ أو هلالِكْ

أما تخشينَ أنَّكِ في طريقٍ   يُزَفُّ بها الحرامُ على حَلالِكْ

وأنَّ ذئابَ هذا الحُسْنِ تمشي   مُسَعَّرَةَ اللحاظِ على غَزَالِكْ

وأنَّ الناسَ قد شَهِدوا نساءً   سواقطَ كلُّهُنَّ على مِثَالِكْ

عرضْتِ لكي نرى فلقد رأينا   هناكَ الحُسْنَ إلاّ في فِعَالِكْ

أهذي مشيةُ الخَفِرَاتِ أمْ قَدْ   غدا الشَّرَفُ المفدَّى في فِعَالِكْ

كأنَّكِ لستِ بنتَ أبٍ وإلاّ   فما لأبيكِ لم يخطرْ بِبَالِكْ

ألختٌ أنتِ أمْ زَوْجٌ وَأمٌّ   فما منهنَّ واحدةٌ كذلِكْ

وحالُكِ للأبوَّةِ كلُّ عارٍ   وعارٌ للبنوَّةِ كلُّ حالِكْ

«برزتِ» لِقَتْلِ ذلك أمْ لهذا   فما هذا وذلِكَ «مِنْ رجالِكْ»[1]

وماذا في اختيالِكِ مِنْ معانٍ   يصوِّرُها شبابُكِ في اختبالِكْ

أيثبتُ ذا الحياءُ على أساسٍ   وقد مَلَكَتْهُ زلزلةُ اخْتِيالِكْ

قبيحٌ أنْ تسيري في اعوجاجٍ   على أنَّ العدالةَ كاعتدالِكْ

نقابٌ ذاكَ أمْ لونٌ رقيقٌ[2]   نراه بينَ ألوانِ احتيالِكْ

كأنّكِ إذ صبغتِ الوجْهَ رَوْضاً   جعلتِ لنا نقابَكِ مِنْ ظِلالِكْ

وما هذا (الدِّهانُ) لناظِرِيْهِ   سوى روحُ التلوُّنِ في خِلاَلِكْ

ألا إنَّ الغبارَ أذًى فمن ذا   يظنُّ «غبارَ وَجْهِكِ» مِنْ جَمالِكْ

عليكِ حجابُ دينكِ فالزميهِ   فإنَّكِ في الحياةِ حياةُ آلِكْ

وقارُ أبٍ وعرضُ أخٍ وزوجٍ   ومرآةُ السجايا في «عيالِكْ»

وأنتِ إذا هفوتِ فكلُّ مَجْدٍ   لهم طُرًّا يؤولُ إلى مَآلِكْ

ولم يُحْجُبْكِ دِيْنُ اللهِ إلا   لِيَحْجُبَ كُلَّ سُوْءٍ عَنْ جَلالِكْ

فإنَّ الناسَ ناسٌ حيثُ كانوا   وأعينُهم وألسُنُهم مَهَالِكْ

ومالَكِ تسألينَ الحقَّ مِنّا   وَخِلْقَتُكِ الجوابُ على سُؤَالِكْ

يريدُ اللهُ مِنْكِ الأمَّ أمّاً   سواءٌ في رضاكِ وفي ملالِكْ

وخصَّكِ في الطبيعةِ بالمزايا   تُعينُ كلَّ ما هُوَ في احتمالِكْ

فلا تتعلّقي بمُحَالِ أمرٍ   سَيُذْهِبُ ممكناتِكِ في مُحالِكْ

سهولُ الخصبِ أنتِ لذا سهول   ألا فدعي التخشُّنَ في جبالِكْ

أغرَّكِ فتيةٌ هُمْ عارُ قومٍ   إذا قِيْسُوا بفتيانِ الممالِكْ

حِبَالُهُمُ مهيَّأةٌ لكيدٍ   فكيفَ إذا التففنَ على حِبَالِكْ

تراهم هاهنا وهناكَ دَعْوَى   وهم ليسوا هُنَاكَ ولا هُنَالِك

---

(١) يقال: (ليس فلان من رجالك) إذا لم يكن من أكفائك في القتال ، ورجالُ المرأةِ زوجُها وأهلُه ، فالتورية ظاهرةٌ ، وكذلك «برزت» فإنّ العربَ يسمّون المرأةَ المسفِرة التي تتحدَّثُ إلى الناس (بَرْزَةً) وهي كلمةٌ أثقلُ مِنْ معناها .

(٢) قال ذلك منذُ ثلاثينَ سنةً يوم أنْ كانَ للنساءِ نقابٌ رقيقٌ شفّافٌ ، ولو نظر إليهنّ اليومَ ، وهنّ شبه عارياتٍ ، لكان له رأيٌ غيرَ هذا الرأي ونظمٌ غيرَ هذا النظم!

وكــلٌّ قــائــلٌ فــالقــولُ حــيٌّ وكــلٌّ عــاجــزٌ فــالفعــلُ هــالِــكْ
وظَنُّوا الـدِّيْـنَ قـد أمسى (طـريقاً) فَكُلُّ (شارِعٍ) في الـدِّينِ «سَالِكْ»
وَفِقْـهُ «الشـافعـيِّ» بـلا شفيـعٍ ولا نُعْمَـى «النعمـانِ»[1] بـذلِـك
أهـمْ أحـرارُ هـذاالـدِّيْـنِ فينـا وما بلغـوا عبيـداً عِنْـدَ «مالِكْ»؟[2]
أأعمـى ثُـمَّ يفتـي فـي طـريـقٍ بفتوى (عن يمينِكِ عَنْ شِمالِكْ)؟
بـرِبِّـكَ يـا مُهَنْـدِسُ إن حمـدنـا حسـابَـكَ وافتـاتَـكَ فـي مجـالِـكْ
وقِيْـلَ الـدِّيْـنُ ضـاقَ بِسَـالِكِيْـهِ فـلا تَقُـلْ: افتحـوا فيـه مَسَـالِـكْ[3]

□ □ □

(١) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠ ـ ١٥٠ هـ).
(٢) هو إمام أهل المدينة مالك بن أنس الأصبحي (٩٣ ـ ١٧٩ هـ).
(٣) نشرت في الرسالة السنة الثامنة عشرة ٢٢/ ٥/ ١٩٥٠، العدد: ٨٨١.

التخنث

وهذه قصيدة أخرى لنابغة الأدب وحجة العرب الأستاذ السيد مصطفى صادق الرافعي رحمه الله لم تنشر في ديوانه نتحف بها قراء «الرسالة» الغراء.

محمود أبو رية

[من الوافر]

أفي الشبّانِ قد مُسِخَ الشبابُ ... أم الدّنيا اعتراها الانقلابُ
غصونٌ في رياض العلمِ تنمو ... وتثمِرُ بعدَ ذاكَ بما يُعابُ
فلا يَغْرُرْكَ شَكْلُ العودِ وانظرْ ... فإنَّ لنارِهِ صُنِعَ الثقابُ
أمِمَّا عُلِّموا أنْ يَسْتَمِيتُوا ... على كسلٍ، ودنيانا اكتسابُ
أمِمَّا عُلِّموا أنْ يَسْتَكِينوا ... لِدَهْرِهِمُ، وَدَهْرُهُمْ غلابُ
أمِمَّا عُلِّمُوا أنْ يَسْتَهِينوا ... بما قدأخطأوا وبما أصابوا
لنا دينٌ يقومُ بهِ كِتاب ... وفيهم كلُّ ذي رأيٍ كتابُ
وقد جمعوا العلومَ وقد أُجِيزُوا ... وقد زاروا مَواطِنَها وآبوا
وَمِنْهُمْ مَنْ أتانا مُسْتَضِيئاً ... كما يهوي ليحترقَ الشِّهابُ
«شَهاداتٌ» ولا عملٌ يزكّي ... كأنَّ حضورَ حاضِرِهم غيابُ
وإنْ خَبَرَتْهُمُ الأعمالُ يوماً ... رأينا السيفَ تَكْبِرُهُ الرقابُ
أرى قُفْلاً على بابٍ كبيرٍ ... ولكنْ خلفَه أرضٌ خرابُ
فما علمُ الحسابِ وهم قعودٌ ... وما للوقتِ عِنْدَهُمْ «حسابُ»
وما عِلْمُ اللُّغاتِ وهمْ بلاءٌ ... على اللغةِ الكريمةِ بل مُصابُ
وما نفعُ اليقينِ بما عَلِمْنا ... وفي الآدابِ شَكٌّ وارتيابُ
وأفضلُ مِنْ علومِ المرءِ خُلُقٌ ... تُحَبُّ به الفضيلةُ أو تُهابُ

بـأيِّ مُعَلِّـمٍ فـي الطيـرِ هـذا	حَمَـامٌ يَسْتَعِـزُّ وذا غُـرَابُ
بنفسِـكَ لا بِعِلْمِـكَ أنـتَ مِنَّـا	وأنـتَ لنـا ثـوابٌ أو عِقـابُ
ألا إنَّ الشـرابَ لـه إنـاءٌ	فـإنْ دَنَّسْتَـهُ دنـسَ الشـرابُ
وأليـنُ مـا يكـونُ زمـانُ قـومٍ	إذا احتملتْـهُ أخـلاقٌ صِـلابُ
لكـانَ الليـثُ أسهـلَ مـا ركبنـا	إذا لـم يَحْمِـهِ ظفـرٌ ونـابُ

* * *

ألا يـا قـومِ للفتيـانِ فينـا	وزينتُهـم ومـا حمـدوا وعـابـوا
رأيـتُ لبعضِهِـم أمـراً عجـابـاً	وليـسَ كمثلِـهِ أمْـرٌ عجـابُ
يسيـلُ تخنُّثـاً ويـذوبُ لطفـاً	فهـل فـي أرضنـا رجـلٌ مـذابُ
(ولانَ) كـأنّـه فينـا اعتـذارٌ	تقـدِّمُـهُ حـوادِثُنـا الصعـابُ
(وهـذّبـه) الـزمـانُ لمصـرَ شِعْـراً	رقيقـاً مِنْـهُ بينهمـا عِتـابُ
علـى خـدَّيْـهِ للمـرآةِ نـورٌ	فهـل فـي الحُسْنِ بينهما انتسابُ؟
ويحملُهـا المخنَّـثُ أيـن يمشـي	وبيـنَ الشَّكْـلِ والشَّكْـلِ اصطحابُ
ويطـرحُ وجهُـهُ فيهـا سـؤالاً	ليـأتيـهِ «علـى الـوَجْـهِ» الجـوابُ
وفيـهِ مِـنَ الـذكـورةِ نَـوْعُ خُشْنٍ	يتـمُّ بـه أنـوثتهـا الكعـابُ
ومطمحُـهُ الـذي يـرنـو إليـهِ	مِـنَ «العليـاءِ» نـافـذةٌ وبـابُ
وهِمَّتُـهُ الثيـابُ فليـس يمشِـي	إذا مـا سـارَ بـل تمشـي الثيـابُ
ملـوَّنـةٌ مصبَّغـةٌ لـوجـهِ	لـه فـي لـونـهِ منهـا اقتـرابُ
ولا عجـبٌ فـذا قمـرُ المعـالـي	«تسفَّـلَ» والثيـابُ لـه سحـابُ
يُسَـائلُنـي أتـمَّ الـزيّ حسنـاً	وظـرفـاً قلـتُ: بـل نقـصَ النِّقَـابُ.
كـأنَّ بـلادنـا قَفْـرٌ فمنهـم	وَمِـنْ أثـوابِهِـمْ فيهـا سَـرَابُ
كـأنَّ فخـارَ مِصْـرَ عـادَ أنثـى	قعيـدةَ بيتهـا ولهـا حِجَـابُ
فـأسْـودُهـم وأحمـرُهُـم جمـالٌ	فـذا كُحْـلٌ لمصـرَ وذا خِضَـابُ

* * *

ومـا يمشـي الفتـى المغـرورُ منهـم	لأمـرٍ فـي عـواقِبِـهِ ثـوابُ
تـراهـم تـابعيـنَ لكـلِّ أُنثـى	وبيـنَ الشِّبْـهِ والشِّبْـهِ انجـذابُ
إذا طلعـتْ طلـوعَ الصبـحِ فيهـم	بـدا مِـنْ بَـرْدِ أوجُهِهِـم ضبـابُ

ومـدوا فـي «حـلاوتهـا» لحـاظـاً أخــفُّ طيعــةً منهــا الــذبــابُ
وفــي أفــواهِهِــم لفــظٌ خبيــثٌ وهــلْ أفعــى وليــس لهــا لُعــابُ
إذا كــان التــرَابُ قــذًى لعينــي فبعــضُ القــولِ فــي أذنــي تــرابُ

* * *

أذى أفعـــال مـــن ولـــدتـــهُ أمٌّ وهـل أخطـي وفـي بيتـي الصـوابُ
أمــا فــي هــذه الــدُّنيــا أمــورٌ سوى الشهواتِ تحـرزُهـا الطِلابُ
أمـا فـي هـذه الـدُّنيـا أسـودٌ كمـا فـي هـذه الـدنيـا كِـلابُ
أمـا خـافـوا الطبيعـةَ فـي صَغَـارٍ ستـورِثهـا الطبيعـةُ مـا استعـابـوا
وكـم طفـلٍ يعـاقَـبُ عَـنْ ذويـه ولـم ينفعْـهُ أنَّ ذَوِيْـهِ تـابـوا
كمـا خبـثتْ أصـولٌ واستطـابـتْ كـذاكَ فـروعُهـم خبثـوا وطـابـوا
وأيــةُ ذئبــةٍ ولــدتْ خِــرَافــاً وَمِــنْ أيِّ النعــاجِ أتــتْ ذئــابُ
رويــداً يــا بنــي مِصْــرَ رويــداً وكـونـوا خيـرَ مَنْ شَبُّوا وشـابـوا
متى ذهـبَ الشبـابُ سـدًى أقـامـت معــايبُــهُ فليــسَ لهــا ذَهــابُ
طفــولتُكُــم لمصــرِكــمُ ديــونٌ وعهــدُ وفــائهــا هــذا الشبــابُ[1]

□ □ □

(١) نشرت في الرسالة السنة الثامنة عشرة ١٢/ ٦/ ١٩٥٠ العدد ٨٨٤.

كما يرى مفرغاً في جسمه السبع

القصيدة الخزاء التي نظمها نابغة الأدب وحجة العرب الأستاذ السيد مصطفى صادق الرافعي في رثاء فقيد العربية والإسلام أحمد تيمور باشا .

[من البسيط]

لا الصبرُ عنه يُعزِّينا ولا الجَزَعُ ... ولا التجلُّدُ مُغْنِينا ولا الفَزَعُ

مَصائِبُ الموتِ كالتقليدِ في نَسَقٍ ... أمَّا مصيبتُنا هذي فَتُخْتَرَعُ

يا ضَرْبَةَ الموتِ ما باليتِ أنْ تَقَعي ... على امرىءٍ فيه بُنْيانٌ لنا يقعُ

على الذي كان حِصْنَ (الضادِ) يمنَعُها ... إنْ لم تجِدْ صدرَ حُرٍّ فيه تمتنِعُ

حِصْنٌ بأسوارِه أنصارُها احتَشَدُوا ... وحولَ أسوارِه أعداؤُها انصرَعوا

راسَ على الصَّخْرِ من دينٍ ومن خُلُقٍ ... فليس يُعْرَفُ صَخْرٌ منه يُقْتَلَعُ

وما الهُوَيْنا لذاكَ الدينِ غامِزَةٌ ... ولا التَّراخِي بذاكَ الخُلْقِ ينصدِعُ

ومَنْ يكنْ لدفاعِ (الضادِ) مُنْجَرِداً ... فلينتصِبْ كالرَّواسي فيمن اتَّضَعُوا

ولْيَجْفُ مثلَ جَفاءِ القَفْرِ ممتَنِعاً ... على المَذَلَّةِ في أخلاقِ من خَضَعُوا

وليَدَّرِعْ صدرُهُ الصحراءَ كاسِرَةً ... لمن بسَفْسافِ أوربا قد ادَّرَعوا

* * *

قالوا: أتى الليثَ حلاَّقٌ يُعَلِّمُهُ ... قَصَّ الأظافِرِ تجميلاً كما ابْتَدَعُوا

يا ليثُ قُلْها لذا الحلاَّقِ زَمْجَرَةً: ... إنَّ المخالِبَ في كفِّي هي الشَّبَعُ

يا ليثُ قُلْها لذا الحَلاَّقِ هَمْهَمَةً: ... زِدْني مِقَصَّكَ ظُفْراً منه أنتفِعُ

يا ليثُ قُلْها لذا الحلاَّقِ دَمْدَمَةً: ... الظُّفْرُ للَّيْثِ بالدُّنيا وما تَسَعُ

* * *

لو كلُّ مِزْمارِ فَنٍّ عندنا خَنِثٌ ... لنا بـهِ مِدْفعٌ فنّانُهُ بَشِعُ
إذَنْ لكانتْ لنا بينَ الورى لُغَةٌ ... مَتَى تَقُلْ قولَها في العالَمِ اقْتَنَعُوا
قُلْ للعصافيرِ في مِنْقارِها نَغَمٌ ... مِنقارُ نَسْرِكَ ما غَنّى ويَبْتَلِعُ
وَيْحَ الفضائِلِ مِنْ باغِينَ لَوَّنَهُمْ ... هوى أوربّا فهم ناسٌ وهم بُقَعُ
يَجَدِّدُونَ لنا أخلاقَنا زَعَمُوا ... ضَرُّوا لِنَفْعٍ ، فقد ضَرُّوا وما نفعوا
يا من يُحَطِّمُ بَلُّوراً ليسمَعَ مِنْ ... أنْغامِهِ ، ويلَكَ اسمَعْ إنه قِطَعُ

* * *

(تيمورُ) لو قلتَ في إنْسانِهِ مَلَكٌ ... لكانَ حسبُكَ منه الطُّهرُ والوَرَعُ
من الرجالِ المَصابيحِ الذين هُمُو ... كأنّهم مِنْ نُجُومٍ حَيّةٍ صُنِعُوا
أخلاقُهُمْ نورُهم ، مِنْ أيِّ ناحيَةٍ ... أقْبَلْتَ تنظُرُ في أخلاقِهم سَطَعُوا
يحقِّقُ العِلمُ في إنسانِهِ مَثَلاً ... مِن قوّةِ الدِّينِ لا زَيْغٌ ولا بِدَعُ
دِينٌ تَفَرَّغَ في جِسْمٍ فوَقَّرَهُ ... كما يُرَى (مُفْرَغاً في جسمِهِ السَّبُعُ)
يا جَهْلَ مَنْ ظَنَّ أنَّ العِلْمَ غايتُهُ ... شكٌّ وزَيْغٌ وإنكارٌ لما شَرَعُوا
ما العلمُ إلا حُدُودُ العقلِ تَحْبِسُهُ ... والدِّينُ من خَلفِها بالعقلِ يَتَّسِعُ

* * *

أيُّ العجائبِ في ضِدَّيْنِ قد جُمِعَا ... في العقلِ والسّلبُ بالإيجابِ مُجْتَمِعُ
للناسِ أخضعتِ الفاني عقولُهُمو ... والناسُ للخالدِ الباقي بها خَضَعُوا

* * *

يا رايةَ اللغةِ الفُصْحى تُقَدِّسُها ... على مَنابِرِها (الآحادُ) و(الجُمَعُ)
ففي قلوبٍ يقَوِّمُ الدِّينُ يَحرُسُها ... وفي قلوبٍ يقومُ الحبُّ والوَلَعُ
فَدَتْكِ نفسيَ قرآنيةً رُفِعَتْ ... بِكفِّ جبريلَ ما في مَسِّها طَمَعُ
وللنبيِّ عليها لم يَزَلْ نَفَسٌ ... حَيٌّ ومِنْ وجهِهِ في نورِها لُمَعُ
لَكَادَ واللهِ في التنزيلِ قارِئُهُ ... يُحِسُّ صوتَ رسولِ اللهِ يَرْتَفِعُ
إنَّ النبيَّ لَحَيٌّ في ضمائِرِنا ... على الزَّمانِ يَرَى منها ويَسْتَمِعُ
فكيفَ تَفْتِنُنَا الأيامُ عن لغةٍ ... كتابُها فيه صوتُ الوحيِ مُنْطَبِعُ
صَحَائِفٌ (كفَنُغْرافٍ) الملائِكِ إنْ ... أنطقتَها أقبلوا في الصَّوْتِ واطَّلَعُوا
تاللهِ ما ناصَبَ الفُصْحىْ سوى رَجُلٍ ... بالمكرِ يَخْدَعُ أو بالجهلِ ينخدِعُ
وَقَاحَةُ المَكْرِ تَأْبىْ مِنْ طَبيعَتِها ... رَدْعاً وللجَهْلِ طبعٌ ليسَ يَرْتَدِعُ

كَـم أجنَبِـيٍّ غَـريـبٍ بـاتَ يحفظُهـا ... كحفـظِ عينيـه أنْ يَغْشـاهمـا الـوَجَعُ
وكَـمْ نـرى مِـنْ بنيهـا ذا مُكـاشَـرَةٍ ... لسـانَـهُ كلِسـانِ النـارِ ينـدلِـعُ
يـا قـومِ لـن يَنتَحـي مُستَنْقَـعٌ وَخِـمٌ ... إذا جَـرَتْ حَـوْلـه الأنهـارُ والتُـرَعُ[1]

□□□

(١) الفتح السنة الخامسة العدد ٢٠١ . غرة المحرم ١٣٤٩ .

ربنا إياك ندعو

نشيد جمعية الشبّان المسلمين

عهدت جمعية الشبان المسلمين في القاهرة إلى كبار الشعراء بوضع نشيد لها يرتله الشباب الإسلامي في جميع أنحاء المعمور، فورد عليها نشيدٌ من أمير الشعراء أحمد شوقي بك، وآخر من شاعر النيل حافظ بك إبراهيم، وثالث من الشاعر الكبير أحمد أفندي محرم. وترى الزهراءُ أنّ نابغة الأدب وحجة العرب السيد مصطفى صادق الرافعي كان موفقاً جداً في وضعه النشيد الآتي لجمعية الشبان المسلمين:

[من الرمل]

(١)

رَبَّنــا إيّــاكَ نَــدْعُــو؛ ربنــا　　آتِنــا النَّصْــرَ الــذي وَعَــدْتَنــا

إنّنــا نبغــي رِضــاكَ؛ إننــا　　مــا ارتَضَيْنــا غيرَ مــا تـرْضـى لنـا

أنْفُســاً طــاهــرَةً طُهْــرَ الحَــرَمْ

تمْــلأُ التــاريــخَ مجــداً وكَــرَمْ

وافيــاتٍ بــالعُهــودِ والــذِّمَــمْ

راقيــاتٍ للمعــالــي والهِمَــمْ

العُـــلا ، إنَّ العُـــلا　　واجبـــاتُ المُسْلِـــمِ

خيـــرُ عـــالِـــمٍ خَـــلا　　كـــانَ فينـــا يتنمـــي

للعُـــلا فـــإنَّنـــا　　أُمَّـــةُ التقَـــدُّمِ

للعُـــلاَ وهـــا أنـــا　　بحيـــاتـــي ودَمـــي

(٢)

يـا شبـابَ العـالَـمِ المُحَمَّـدِي　　يَنْقُـصُ الكَـوْنَ شبـابٌ مهتـدِي

فـأرُوْهُ دِينَكـمْ ليقتـدِي　　دِيـنَ عَقْـلٍ ، وضميـرٍ ، وَيَـدِ

يـا شبـابَ العَـزَمـاتِ المُبْـرَمَـةْ

عـرِّفـوا الكـوْنَ العُـلاَ والمكـرُمَـةْ

عـرِّفـوا الكـونَ الْهُـدى والمـرْحَمـةْ

عـرِّفـوا الكـوْنَ النفـوسَ المُسْلِمَـةْ

العُـلا ، إنَّ العُـلا　　واجبـاتُ المُسلـمِ

خيـرُ عـالِـمٍ خَـلا　　كـان فينـا يتمـي

للعُـلا ، فـإنَّنـا　　أُمَّـةُ التقَـدُّمِ

للعُـلا ، وهـا أنـا　　بحيـاتـي وَدَمـي

(٣)

إنَـا الطُّهْـرُ الأمَـاجيـدُ الأُلـىٰ　　نَـزَلَـتْ لنـا السَّمـا مُـذْ أُنْـزِلا

ذلـكَ القـرآنُ أخْـلاقـاً علـى　　كـوكـبِ الأَرْضِ «مُحَمَّـدٍ» العـلا

لَيْسَ كـالمُسْلِم في الخُلْقِ أَحَدْ

لَيـسَ خُلقَ اليومِ بلْ خُلقُ الأَبدْ

إنّمـا الإِسلامُ فـي الصحـرا اتّهَـدْ

ليجـيءَ كـلُّ مسلـمٍ أسَـدْ

العُـلا ، إنَّ العُـلا　　واجبـاتُ المُسْلـمِ

خيْـرُ عـالِـمٍ خـلا　　كـان فينـا يتمـي

للعُـلا ، فـإنَّـا　　أُمَّـةُ التَّقـدُّمِ

للعُـلا ، وهـا أنـا　　بحيـاتـي وَدَمـي

(٤)

فـي ضميـري دائمـاً صَـوْتُ النبـي آمِراً: جاهِـدْ ، وكـابِـدْ ، واتْعَـبِ!
صائحاً ، غالِبْ ، وطالِبْ ، واذأبِ صـارخـاً: كُـنْ أبـداً حـرًّا أبـي

كُـنْ سـواءً مـا اختفى ومـا عَلَـنْ
كُـنْ عـزيـزاً بـالعَشيـر والـوَطَـنْ
[كُنْ قـويـاً بـالضميـرِ والبَـدَنْ][1]
كُنْ عظيماً في الشّعوبِ والزَّمنْ

العُـــــلا ، إنَّ العُـــــلا واجبـــــاتُ المسلـــــمِ
خيـــرُ عـــالِـــم خـــلاً كـــانَ فينـــا يتمـــي
للعُـــلا ، فـــإنّنـــا أمَّـــةُ التقّـــــدُّمِ
للعُـــلا ، وهـــا أنـــا بحيـــاتـــي ودَمـــي

(٥)

رَبِّ بـــالإسلام قـد هـدَيْتَنـي ربِّ مِـنْ نُـورِكَ قـدْ آتيتَنـي
فعلـيَّ العَهْـدُ ـ مـا أحْيَيْتَنـي أحْـرُسَ الكنـزَ الـذي وهَبْتَنـي

أو أمـوتَ دُونَـهُ مَـوْتَ البَطَـلْ
ثـابتـاً أحْيـا بقلْـبٍ مـن جَبَـلْ
نَيِّـراً أحيـا بـرُوحٍ مِـنْ شُعَـلْ
جـاهـداً أحيا بجِسْمٍ مـن عَمَـلْ

العُـــــلا ؛ إنَّ العـــــلا واجبـــــاتُ المُسلـــــمِ
خيْـــرُ عـــالِـــم خـــلا كـــانَ فينـــا ينتمـــي
للعُـــلا ، فـــإنّنـــا أُمَّـــةُ التقـــدُّمِ
للعُـــلا ، وهـــا أنـــا بحيـــاتـــي وَدَمـــي[2]

---

(١) كذا في الأصل : والزيادة من كتاب «أناشيد فتية الحق» ص (٧٢).

(٢) نشرت في الزهراء عدد ذي الحجة ١٣٤٦ هـ ص ٦١٣ ـ ٦١٤ .

لك يا مصر السلامة

[من الرمل]

(١)

إسلَمي يا مِصْرُ إنني الفِدا
ذِي يَدِي إنْ مَدَّتِ الدُّنيا يَدا
أَبَداً. لَنْ تَسْتَكِيني أبَدا
إنني أرجو مَعَ اليَوْمِ غَدا
وَمَعِي قَلْبِي وَعَزْمِي لِلْجِهَاد
وَلِقَلْبِي أَنْتِ بَعْدَ الدين دِيْنْ
لَكِ يا مِصْرُ السَّلاَمَهْ وَسَلاَماً يا بِلاَدِي
إنْ رَمَى الدَّهْرُ سِهَامَهْ فَاتَّقِيها بِفُؤَادِي
واسْلَمي في كلِّ حِينْ

(٢)

أنا مِصْرِيٌّ بَنَانِي مَنْ بَنَى
هَرَمَ الدَّهْرِ الذي أعْيا الْفَنا
وَقْفَةُ الأَهْرَامِ فيما بَيْنَنا
لِصُرُوفِ الدهرِ وقْفَتِي أنا
في دِفَاعِي وجِهادي لِلبلادْ
لا أمِيلُ، لا أمَلُّ، لا أَلِينْ
لكِ يا مِصْرُ السلامه وسلاماً يا بلادي
إنْ رَمَى الدَّهْرُ سِهَامَه فَاتَّقِيْهَا بفؤداي
واسلمي في كلِّ حِينْ

(٣)

وَيْكَ يَا مَنْ رَامَ تَقْيِيدَ الفَلَكْ
أيُّ نَجْمٍ في السَّما يَخضَعُ لَكْ
وطَنُ الحُرِّ سَماً لا تُمتَلَكْ
والفَتى الحُرُّ بأُفْقِهِ مَلَكْ
لا عَدَا يا أرضَ مِصْرٍ بِكِ عادْ
إنَّنا دونَ حِمَاكِ أجمَعِينْ

لكِ يا مِصْرُ السَّلامَه وسلاماً يا بلادي
إنْ رَمَى الدَّهرُ سِهَامَه فأتَّقيها بفؤادي

واسلمي في كلِّ حين

(٤)

لِلعُلاَ أبْنَاءَ مِصرٍ للعُلا
وبِمِصْرٍ شرِّفوا المُستَقْبَلا
وفِداً لِمِصرِنَا الدُّنيَا فَلا
تَضَعُوا الأوطانَ إلاَّ أوَّلا
جَانِبِي الأيْسَرُ قَلبُهُ الفُؤَادْ
وَبِلادِي هِيَ لي قَلبِي اليَمِينْ

لكِ يا مِصْرُ السَّلامَه وسلاماً يا بلادي
إنْ رَمَى الدَّهرُ سِهَامَه فأتَّقيها بفؤادي

واسلمي في كلِّ حين [١]

□ □ □

---

(١) نشيد سعد باشا زغلول ص١٦ ـ ١٧ .

لسان الصحراء

لمناسبة الرحلة الملكيّة في الصحراء الغربية :

«في شهر أكتوبر من سنة ١٩٢٨ قام المغفور له الملك فؤاد برحلةٍ إلى الصحراء الغربية وواحةِ سيوة ، وكان المرحوم مصطفى صادق الرافعي يومئذٍ شاعرَ جلالته ، وحاديَ ركابه ، فأنشأ هذه القصيدة يتحدَّثُ فيها عن الصحراء لمناسبةِ هذه الرحلة الميمونة . وفي اليوم - وبعد عشرِ سنين كاملةً - يقومُ جلالة الملك فاروق الأول برحلته إلى الصحراء ليرودَ المعالم التي رادها من قبلُ والدهُ العظيم ، فلعلَّ في نشر هذه القصيدة لهذه المناسبة ما يقومُ بواجبِ الولاء ، ويبعَثُ طيِّبَ الذكرى» .

سعيد العريان

[من البسيط]

تَسَاءَلَ القَفْرُ إذ حَلَّ المليكُ بِهِ ... أدارَ بي موضعي أم حانَ تجديدي

أم بعد زرعي دُهُوْراً لا حصيدَ لها ... مِنَ التواريخِ ، آنَ اليومَ مَحْصُوْدِي

رَمْلِي على الأرضِ كالدِّينارِ مِنْ ذهبٍ ... مُلْقَى ضَياعاً وموجوداً كمفقودِ

أَمْ غَيَّرَ اللهُ أيامي فأسعدني ... مَلِيْكُ مصرَ بيومٍ مِنْهُ مسعودِ

كأنَّ لي زمناً ما كانَ مِنْ زَمَنٍ ... وَلا مَشَى بحسابٍ أو بتعديدِ

والوقتُ يخضعُ للساعاتِ تُمْسِكُه ... بِكلِّ ثانيةٍ مِنْ غيرِ تبديدِ

وساعةُ القَفْرِ قفرٌ ، فالثلاثُ بها ... كالخَمْسِ، كالتِّسعِ، لا معنًى لتحديدِ

أَم طُولُ صبري على الفِقدانِ عوَّضني ... بأنْ يزورَ قِفارِي خَيْرُ موجودِ

شَمْسٌ مِنَ اللهِ في صدري وما كَمَلَتْ ... إلا بشمسٍ مِنَ الإنسانِ في جيدي

أَمْ ما لقيتُ مِنَ الحرمانِ كافأني ... بأنْ يحلَّ بأرضي سَيِّدُ الجودِ

مَلْكٌ كأنَّ نَبَاتَ العِزِّ في يدِهِ ... تجنيهِ مِنْ ذَهَبٍ أيدي المجاهيدِ

وَيَسْحَرُ الأرضَ حتّى الأرضُ مِنْ أُفُقٍ ... وَيَسْحَرُ الوقتَ حتّى الوقتُ مِنْ عِبْدِ
أَم ذاكَ حُلُمُ الصحارَى بالنعيم سَرَى ... وَمَرَّ منطلِقاً في هَجْعَةِ البيدِ
في القفرِ دنيا ورا الدنيا نَفِرُّ لها ... على مطايا الكَرَى مِن عيشٍ تنكيدِ
إنّي كقطعةِ وحشٍ صُوِّرَتْ بلداً ... أرْضِي سواءٌ وإنساني وجُلمودي
وَعُودُ آدمَ عُريانٌ بلا ثمرٍ ... وَزَهْرُ حواءَ محطومٌ بلا عودِ[1]
فلا بَنِيَّ لهم دنيا تَعُدُّهمو ... فيها ، ولا أنا في الدُّنيا بمعدودِ
لو أنزَلَ اللهُ سقفاً مِنْ كواكبِهِ ... لهم ليبْتَغُوا لما هَمُّوا بتشييدِ
لو أمسكوا ظِلَّ طيرِ الجوِّ في قفصٍ ... ما أمْسَكوا ظِلَّ عُمْرانٍ بمجهودِ
وفي عريضِ فجاجِي الشمسُ طالعةٌ ... تزيدُ في ظُلماتي الحَيةِ السودِ
في الجذبِ في الوَحْشِ في الأحياءِ في زمني ... وفي طبائعِ أرضي ، في تقاليدي
فاليومَ أعرِضُ آمالي على ملكي ... وهو الكفيلُ بمرجُوِّي ومقصودي
لعلّني خطَّ لي مِنْهُ كتابُ هُدًى ... وما زيارتُه إلاَّ كتمهيدِ
لبَيْكِ يا مُعضِلاتِ القَفْرِ قد بَعَثَتْ ... لكِ العنايةُ صنديدَ الصناديدِ
آباؤه الصِّيدُ هِمّاتٌ مُجَمّعَةٌ ... فيه ، وزادَ على آبائِهِ الصِّيدِ
رَحْبُ الأمانيِّ وثّابٌ على فُرَصٍ ... ماأطمعتْ غيرَه في غيرِ تزهيدِ
يرمي بحَبْلَيْهِ: محلولٍ ومُنعقِدٍ ... فيها على كلِّ محلولٍ ومعقودِ
سرُّ اللُّيوثِ بعينيه ، فنظرتُهُ ... فيها اكتشافُ فريساتِ المواعيدِ
وتحتَ راحتِهِ سرُّ السيوفِ ، فإنْ ... أشارَ راعَ كسيفٍ عندَ تجريدِ
وفي أنامِلِهِ سِرُّ الأعنّةِ: لا ... ينفكُّ يطلُبُ مَيْداناً لتأييدِ
مليكُ معجزةٍ في أرضِ معجزةٍ ... مخلَّدُ الحمدِ في تاريخِ تخليدِ
وما يُسَدُّ طريقٌ دونَ غايتِهِ ... طريقُ كلُّ سعيدٍ غيرُ مسدودِ

* * *

(١) عُوْدُ آدم: كناية عن الرجل، وزهر حواء: كناية عن المرأة.

ستستفيضُ على الصحراءِ همتُه ... ثجّاجةً بالمشاريعِ المحاميدِ

فَيُولَدُ الزَّمَنُ المشبوبُ مِنْ زمنٍ ... فإنْ تَكلَّحَ في تلكَ التجاعيدِ

هيهاتَ هيهاتَ ما يبني القفارَ سوى ... صبرٍ كصبرِ (فؤادٍ) غيرِ محدودِ

هُمْ الأعاريبُ في تلهبِ جمرتهم ... مثلُ البراكينِ لن تحيا بتبريدِ

يا لَلعزيمةِ لو أخرجْتَهم عرباً ... تحتَ القوانينِ أحراراً بتقييدِ

إذَنْ لضاعفَ مِصراً سحرُ ساحرِها ... وَابتزَّ ممدودَها مِنْ غيرِ ممدودِ

النيلُ كنزٌ مِنَ الخضراءِ مُنكَشِفٌ ... في جنبِ كنزٍ من الصحراءِ مرصود

عَزَّ الذي جَمَعَ الكنزينِ في يدِهِ ... يَحمْي بكنزٍ زئيرٍ كنزَ تغريدِ[1]

❑ ❑ ❑

---

(١) نشرت في الرسالة، العدد (٢٧٣) السنة السادسة ٢٦/٩/١٩٣٨.



الملحق الثاني

فصول
من
كتاب ملكة الإنشاء

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

- وصف البحر .
- رسالة فكاهية .
- الحسن المصنوع .

كتاب ملكة الإنشاء

بقلم

محمد سعيد العريان

بلغ الرافعيُّ الشاعرُ مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ م ، ونزل منزله بين شعراء العصر ، وجرت ريحُه رُخاءً إلى الهدفِ المؤمَّلِ ، فامتدَّ نظرُه إلى جديدٍ . . .

وأخذ يَرُوضُ قلمه على الإنشاءِ ، لعلّه يبلغُ فيه مبلغَه في الشعر ، فأنشأ بِضْعَ مقالاتٍ مصنوعةٍ فتنتْه ، وملكتْ إعجابه ، فتهيّأ لأنْ يصدِر كتاباً مدرسياً في الإنشاءِ سماه (ملكة الإنشاءِ) يكونُ نموذجاً للمتأدّبين وطلابِ المدارس ، يحتذون فنَّه ، وينسجون على منواله ، ووعد قرّاءه أن ينتظروه ، وأحسبه كان جادّاً فيما وعد ، لولا أمور نشأت مِنْ بعدُ ، صرفته عن وجهه ، فظلَّ الوعدُ قائماً بينه وبين قرائه حتّى نسيه ونُسوه .

وحسبُ الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبيِّ أنْ يقرؤوا من هذا الكتاب الذي لم يُنْشَر ، مقالاتٍ ثلاثاً نشرها الرافعيُّ في الجزأين الثاني (ص: ٦٧ ـ ٦٨) والثالث من ديوانه (ص: ٨٠ ـ ٨٢) ، وفي الجزء الأول من (ديوان النظرات ٩٢ ـ ٩٦)؛ إعلاناً ونموذجاً لكتابه؛ فإنّ في هذه المقالات الثلاث كُلَّ الغَناءِ للباحثِ ، تدلُّه على أوّل مذهب الرافعيِّ في الأدب الإنشائي ، وطريقتِه ونهجِه[1] .

---

(١) حياة الرافعي ص (٦٤) . وقد جمعت هذه المقالات الثلاث هنا في هذا الملحق .

وصف البحر

فصل كتبه في رمل الإسكندرية يصف به ساعةً أقامها هناك يوم الأحد ، وهو نموذج من كتاب (مَلَكة الإنشاء) الذي يضعه الآن قال:

يومُ الأحدِ ما يومُ الأحد؟!

كأنَّ بناتَ الأرضِ قد حسدنَ بناتَ السماء .

فلا تزالُ كلُّ مليحةٍ تنظرُ إلى نفسِها .

وتنتظرُ ما بعدَ أمسِها .

حتى تقومَ سوقُ الحُسْنِ فيه على ساقِها .

وتشتبِكُ أنجمُ السماءِ والأرضِ بأحداقِها .

فتدورُ رحى القتال .

بينَ ربّاتِ الجمالِ .

ويقفُ الحُسْنُ والهوى بينَ السماءِ والأرض .

وِقْفَةَ الملكينِ للشهادةِ في يومِ العَرْض .

ولَو خُلِقَ الشهرُ إنساناً

لما كانَ موضعُ عينيه .

وبين جنبيه .

غيرَ أربعةِ أيّامِ الآحاد .

* * *

هبَّ النسيمُ .

وتوارتِ الشمسُ عاصبةَ الجبين .

صفراءَ من الجزعِ على بناتها .

كأنّما أرادتْ أن تحتجبَ عن الأرضِ حتى تضعَ تلك الحربُ أوزارها .

وتفضَحُ نسماتُ الصبحِ أسرارَها .

فانكفأَت إلى الغربِ .

وغادرتْ مِنْ إشفاقِها على الأُفق شفقاً .

ونثرت أقداحَها التي تحسو بها النورَ على السماءِ فكانت حدَقاً .

وكأنَّ الغواني خِفْنَ على جمالهنَّ من الليل .

خوفَ الغبار على الذيل .

وأشفقنَ أن تُزْهِرَ في ظلمتِهِ نجومُ السماء .

وتتبيّنَ بضدّها الأشياء .

فنسخنَ آيَته بآيةِ الكهرباء .

وأوحينَ إلى الأُفقِ بألسنةِ الضياء .

وقلنَ للقمرِ : أينَ أنتَ من ذُكاء؟

وللنجومِ : أين خِرافُ الخضراءِ من الظِّباء؟

* * *

وإذا كان في يومِ الجمعةِ ساعةٌ تُستجابُ فيها الدعوات .

فإنّ في يوم الأحدِ ساعات .

يدعو فيها العشّاق .

ويَضْرَعُ بنو الأشواق .

فمن ساقٍ تلتف .

وعينٍ تلتفَت .

ومن نحرٍ على نحر .

وبنانٍ رَخْصٍ على خَصْر .

وغنيٍّ يميل على غانيه .

وعانٍ يشكو بثَّه إلى عانيه .

وقد كفى البحرُ العيونَ .

إذا كان لا بدَّ في الهوى من عينٍ تدفع .

وطلع القمرُ .

إذا لم يجدِ العاشقانِ مفرّاً من رقيبٍ يمنع .

* * *

ونمَّ النسيم .

بجنّاتِ النعيم .

أنْ لا لغوَ فيها ولا تأثيم .

ولقد رأيْتُني بينَ الحورِ والولدان في جنان .

أتقلبُ من يمنةٍ إلى يسرة .

بين غُصَّةٍ وحسرة .

وإن كان لي من ذواتِ الدلال .

جنّتانِ عن يمينٍ وشمال .

وهكذا الشاعر ينظرُ .

ولا يقدِرُ .

ويشتهي .

ولا ينتهي .

ويعفُّ حين يقفُ .

وعليه الوصفُ .

ولغيرِه ما يصف .

* * *

أمّا السماءُ ، فقد أسفرتْ عن بدرِها .

وهي كالفِكْرِ تلألأتْ فيه المعاني .

وكشفتِ الأرضُ عن صدرِها .

وهو كالقربة ارتقتْ فيه من ثديها الأمواجُ كالمباني .

فأقبلَ البدرُ .

يَضْحَكُ من البحرِ .

وما كاد يفترُّ ثغرُه .

حتى ضاءَ بنوره الأفق .

وظهر وجهُهُ حَسَنَةً في صحيفةِ الغَسَق .

فإن كانتِ الملاحةُ في الأعينِ السوداء .

فقد جمعها البدرُ في عينِه البيضاء .

ورعاها البحرُ في مقلته الزرقاء .

ولكلٍّ حسن .

وكلُّ طائرٍ على غصن .

* * *

وخرجَ بعد ذلك صدرُ البحر .

فهو يقومُ ويقعد .

ويرغي ويزبِد .

يضربُ موجةً بموجة .

ويلفُّ إلى لجةٍ لجة .

يحاوِلُ أن يُوَلِّدَ منهما كهرباء .

يصفرُّ لها وجهُ القمر .

ومن السفاهةِ أن يناظِرَ المِلْحُ السُكَّر .

وإن كان كلاهما أبيض .

وكم بينَ المِسْكِ والفحمِ .

وهما من جلدةٍ سوداء .

* * *

ثم حنقت عليه السماء .

فما برحت ترسِلُ من أنجمها إلى كبدِه سهاما .

تحاول أن تخرجَ الشمسَ التي ابتلعها .

وتردَّ إلى تاجِها[1] الجوهرةَ التي انتزعها .

فتستكمِلَ بذلك جمالَها .

وتسحبَ على هامةِ الأرضِ أذيالها .

والماءُ يطفِىءُ النارَ ، لكن لا يطيقُ خيالها .

* * *

ولقد وقفَ الليل .

وهو يحدّجُنا بمقلةِ سُهيل .

فلا يرى إلا قلباً يرفُّ على حُسْن .

وطائراً يقفُ على غصن .

وفرحاً يبعثُـهُ فرح .

وقدحاً يمشي به قدح .

فما زالَ يتميّزُ حتى كادَ ينشقّ .

وحينئذٍ زفرَ زفرةً غادرتِ الهناءَ كالهباء .

وعصفت بها ريحٌ شابَ لهولها رأسُ البحر .

وقذبتْ برمالها عينُ البرّ .

فانتشرتْ هنالك أذيالُ الغانيات كالطواويس .

---

(١) في الأصل : (تاجه) .

ودقَّت قلوبُ العاشقينَ كالنواقيس .

وانفلتَ القَنْصُ من حبالةِ القنّاص .

وتبدَّدَ الدُّرّ من يدِ الغوّاص .

وتحتّم الفراق .

فنادَوا ولاتَ حينَ مناص[1] .

❑ ❑ ❑

---

(١) ديوان الرافعي : ٢/ ٦٧ ـ ٦٨ .

رسالة فكاهية

وهذا فصلٌ من كتابه «ملكة الإنشاء» بعثَ به لصديقِهِ الأديب إلياس أفندي العجّان أحدِ الصيادلة، وكان استبدل نور الغاز بالكهرباء، في المكان الذي هو فيه، ثم كان يعبثُ باللولبِ كلما زارَه صديقٌ، فيُطفِىءُ النورَ فجأةً، ويبعثُه فجأةً لدعابة فيه. قال:

ما هذا؟

صرفَ الله عنك شِدَّةَ البياضِ.

في غيرِ الأعراض.

أسئمتَ الليلَ فأذريتَه صُبْحا؟

وأوريتَه قَدْحا؟

أم زهدتَ في السواد.

لغيرِ الحداد؟

وللعيونِ والأهداب.

لا الفنونِ والآداب.

فأطلعتَ من سقفِكَ الكواكبَ تتألّق.

كالعيونِ السواكبِ تتدفق.

وعقّت تلكَ المصابيح.

وهي كالحظِّ تميلُ مع الريح
فإنْ كنتَ أشفقتَ أنْ تَطُوْلَ ألسنُها .
فتسوِّدَ عُرْضَ الحائط .
فإنَّ قطعَ اللسانِ بالإحسان لا بالهجرانِ .
وما الذي جنتْهُ ـ عفا الله عنك ـ حتّى تجفِّفَ من الهَجْرِ لَهَواتِها .
وتأخذَها بغيرِ هفواتِها .
وتطرحَها جانباً .
وتنأى عنها مغاضِباً .
فلا كلمةَ مواساةٍ تطفِيءُ من لوعتِها حتّى ولا «أف» .
ولا نفخةَ من صدرِكَ إلى صدرِها .
تخفِّفُ مِنْ حَرِّها .
ولا عنايةَ مِنْ أمرِكَ بأمرِها .
تجْبُرُ مِنْ كسرِها .

* * *

وهل عميَ الليلُ وسألكَ العلاج
فتضعَ له أعيناً من زجاجٍ؟
أم سألك الناسُ آيةً تخرِقُ العادة .
فمثلتَ لهم بعدَ الغروبِ الشروق؟
أم انتجعَ غيثُك بعضَ المُجْدِبِيْنَ فخيَّلْتَ له البروق؟
وما أشكُّ أنّكَ أمسيتَ تحاوِلُ تجزئةَ القمر .
فتكون منكَ لكلِّ أمةٍ «فلقة» إلى آخر العُمُر .
لا أعجبُ واللهِ مِنْ فرعونَ حين قال : هذهِ الأنهارُ تجري من تحتي .
إلا أنتَ حين تقولُ : هذه النارُ أجري مِنْ تحتِها .

وليتني أعلمُ أهيَ استعارةٌ أم مجاز؟

ومن مناهلِ الغاز أم من مسائلِ الألغاز.

وكأنّي بأصابعِكَ وقدْ عرفتُ أنّ لها خواتِمَ في الهواء.

فهي تلعبُ بها كيفَ تشاء.

مرّةً تحبّبُ لجليسِك العمى.

وتتركُه لا إلى الأرضِ ولا إلى السما.

«يأسفُه ليلٌ كلّما شئتَ أظلما».

ومرّةً تذكّره بيومِ النشور.

فتبعَثُ عليهِ النور.

بعدَ أنْ يكونَ في ظُلْمَةِ القبور.

هذا على أنّ كواكبَكَ منَ الزجاج.

لا من الأبراج.

فكيف لو كنَّ كما لا تظن.

أكنتَ تبتلعُ الشمس.

لتقولَ: أنا اليومُ والأمس؟

أم كنتَ تلفُّ الأرض بالأرضِ.

لتُنْزِلَ علينا آية ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.[1].

* * *

وإنّي لأنتظرُ لكَ ليلةً يخفِتُ فيها زفيرُ الكهرباء.

فينقطعُ بعضُ الأسلاك.

ويقعُ وحشُ الظلمةِ في تِلْكَ الشّبَاك.

هنالِكَ إذا استوحشتَ فرفعتَ رأسَك غنّتْكَ القناني لا القيان.

---

(١) هنا سجعاتٌ أهملناها لأنّها مما تقتضيه المداعبة (ر).

وترامتْ على قدميكَ تفدِّيكَ بدمائها المختلفةِ الألوان .

وإذا مددتَ رجلَكَ إلى الباب .

ليكشِفَ لكَ النقاب .

ويميطُ هذا الجلباب .

حسبكَ تُحَيّيهُ فحيّاك .

وأبى - أدامَ اللهُ عليه العافيةَ - إلا أن يقبِّلَ جبينَك ، ويلثَمَ فاك .

وربّما مَدَّ ذراعَه إلى الطَّوْق .

والظلمةُ تدعو إلى شِدَّةِ الشوق .

فيظنُّه عناقاً .

وتظنُّه خناقاً .

ثم تلتمِسُ المخرجَ فتحسبُ الحيطان .

أنّكَ تسألُها الحنان .

فتضمُّك إشفاقاً إلى صَدْرِها .

وتأخذُ رقبتَك لنحرِها .

وهكذا مِنْ حبيبٍ إلى حبيب .

ومِنْ نصيبٍ في هذا الهوى إلى نصيب .

حتى يُوَفَّى الكيل .

ويُكشَفُ عنك الغطاءُ فتبْصِرَ آيةَ الليل .

والسلام[1] .

❑ ❑ ❑

---

(١) ديوان الرافعي ٣/ ٨٠ - ٨٢ .

الحسن المصنوع

من كتابنا «ملكة الإنشاء» نسوقه لوجه المناسبة بينه وبين هذه الأبيات[1]:

حسناءُ قد نزعتْ لونَ الوردةِ بخدِّها .
وتركتْ في الوردةِ ٱلطِّيب .
ومثَّلتْ هَيَفَ ٱلغُصنِ في قدٍّ غيرِ رطيب .
وانتحلتْ دلالَ الحُبِّ ، ولكنْ مِنْ غيرِ حبيب .
فما أَحْسَنَ الوَجْهَ وهو روضةٌ مُصَوَّرَه .
وزجاجةٌ منوَّرَه .
وشهادةٌ على اللهِ مُزَوَّره .
كيف لا ، وقد امتازَ بينَ ٱلناسِ .
بالقياس وغيرِ ٱلقياس .
فتلكَ صُوَرٌ مخلوقٌ أهلُها مِنَ ٱلطين .
وهو لكثرَةِ ما عليهِ مِنْ شَبَهِ الدَّقِيقِ ، كأَنَّهُ صُورَةٌ مِنَ العجين .
حاجِبٌ يكادُ يَسِيلُ حِبْراً .
وعُنُقٌ كَصَفْحَةِ الوَرق .
تكادُ تَكْتُبُ فيهِ الألحاظُ بِمَدَامِعِ الحَدَق .

(١) انظر : قصيدة المرأة المستحسنة ص (١٣٩) من هذا الديوان .

وجِسْمٌ يميلُ إذا وقفتْ عليهِ طيورُ ٱلنواظِر .

ويكادُ يَتعثَّرُ إذا رَفَّتْهُ أجنحةُ الخَوَاطِر .

وربَّما كانَ يتحسَّرُ عليهِ عُلماءُ الآثار .

لأنَّهُ مِثَالٌ حيٌّ للاحترام .

ولا غَروَ أَن يَكونَ لعَظَمةِ صاحبتِه من هياكل ٱلعِظام .

تنظرُ بعينٍ مِنَ الجمودِ .

لا يَقْرأُ فيها ٱلتأْويل .

ولا يشرحُ منها ٱلتعليل .

* * *

عهدي بالعينِ أنها مصباحُ الرُّوحِ في طريقِ ٱلغيوب .

تُضِيءُ بينَ الخَوَاطِرِ .

فينعكسُ نورُها علَى ٱلقلوب .

وقد تبدَّلَتِ (الحسناءُ) مِنْ هَمْسِ ٱلشَّجيِّ .

بلمسِ الحُلِيِّ .

وهو في حُسْنِهَا ـ يعلمُ اللهُ ـ كالمعنى ٱلمَظْلُوم .

لأنَّهُ في غيرِ موضِعِه .

وٱلمنظومُ ٱلضائع .

لأنَّ ٱلشِّعْرَ يُعْرَف مِنْ مَطْلَعِه .

لعلَّ ٱلطبيعةَ بالَغَتْ في مساعدَتِها على ٱلتقليد .

فأَقامتْ لها الجبالَ مقامَ ٱلعُذَّال .

وأَجْرَتِ الأنهارَ في مكانِ الدُّموعِ ٱلغِزار .

فلم يبقَ إلاّ ٱلمُحِبُّ الذي تجعلُ غضبَهَا منه علَى طَرَفِ الأنف[1].

* * *

وفي خيالِهَا عالَمٌ مِنَ ٱلعُشّاقِ يُمِيتُ فيهم لَحْظُها.

ويُحْيي مِنْهُم لفظُها.

على أنّها لا تَرْفُقُ بهم.

ولا تُشفِقُ لِكَرْبِهِم.

وشَكْوَاهُمْ من جَورِها إلى ربِّهم.

فإنْ لم تَرَهُم أهلاً لصدقِها في الدَّلال.

أفليسَ ٱلمساكينُ أهلاً لصَدَقتِها في الجَمَال؟!

* * *

قد اقترنَ ٱلغُرورُ بالغَيْرةِ في قلبِها.

فما يزالانِ يُرسِلانِ مِنْ «بركاتِ ٱلعَسَلِ[2]» إلى لسانِها.

فإذا تكلَّمَ ٱلناسُ عن الجمالِ قالت: مرآتي.

وكفىٰ بها كلمةً تجمعُ كلَّ الكلام.

وتصوِّرُ الحُسْنَ في تمثالِها من ٱلفَرْقِ إلى الأقدام.

وإذا وصفوا الحِسَانَ.

وقفَ الرأيُ على ثَغْرِها وِقفةَ ٱلبُومِ على ٱلطَّلَل.

فما يطيرُ إلاّ في ظلامٍ.

وهي في حقيقتِها كعروسِ ٱلمنام.

جمالٌ حاضِرٌ ولكنّهُ خيال.

وحُسْنٌ موجودٌ.

---

(١) أي قريباً (ر).

(٢) شهرُ العسلِ عند الغربيين هو الشهرُ الذي يلي ليلة الزفاف، وقال فيه بعضُ ظرفائهم: إنّه سُمّي كذلك لأنّ ما بعدَه مُرٌّ كُلُّه (ر).

ولكنّهُ بينَ طَرْفَةِ عَيْنٍ «وانتباهتها» ينقلِبُ إلى الزوال .

* * *

على أنّها تزعمُ أنّها نجمُ ألسماء .

ودُرَّةُ ذلكَ ألماء .

بل هي مثلُه عنوانُ الأشواق .

في صحيفةِ ألعُشّاق .

وتعزيةُ ألبعاد .

في كتابِ ألسُّهاد .

وما أراها معَ ذلكَ تفكّرُ في الحُسْنِ والحَسَن .

إلاّ كما يَفْتَكِرُ ألمنفيُّ في الأَهْلِ والوطن .

وإنّما تُمَثِّلُ للناسِ روايةَ الجمال بفصولِهَا .

وتقيسُ عرضَها بطولِها .

فهي ملكةٌ ذاتُ تاج .

ثم نجمٌ في أبراج .

ثم قمرٌ في جُنْحِ ليلٍ داج .

ثم هي رَوْضَةٌ رفّافةٌ ، وزهرٌ قد أخذَ ألوانه .

واشتملَ أوصافَه .

وسأله ألنسيمُ من طيبِهِ فهزَّ أعطافَه .

* * *

وهكذا حتّى إذا انتهى ألتمثيل .

وفترَ عن ضبطِ الحقيقةِ ذلك ألتخييل .

رأيتُ منظراً كلُّ آمرىءٍ يرميهِ بلحظةِ ازدراء .

وضحكة استهزاء .

ورأيتُ ٱلتاج .

والنجمةَ من زجاج .

وٱلقمرَ شعلةً من ضوءِ ٱلسراج .

والروضةَ وأزهارَها ألواناً في أدراج .

ورأيتُها وقد نُفِضَ عنها ذلك ٱلصّبغُ نفضَ ٱلترابِ عن الذيل .

ومُحيَ من ثغرِها الابتسامُ محوَ ٱلنجوم من آخرِ الليل .

ولم يبقَ إلاّ مسْحَةٌ في مَقْطِبِ الوَجْهِ[1] مِنْ أنفاسِ ٱلشّيطان .

يسمّيها بالهموم والأحزان .

وإنّي أُقْسِمُ «بأَفريلَ» وعجبه .

أنّها أول من جاءَ للناسِ شاهدٌ علَى كذبه[2] .

فهي تكذِبُ في نفسِها .

ولا يكذّبها ٱلناسُ إلا في وجهها .

وأعجبُ ما فيها أنَّ كُلَّ شيءٍ يزيدُ حسنُهُ بالماء .

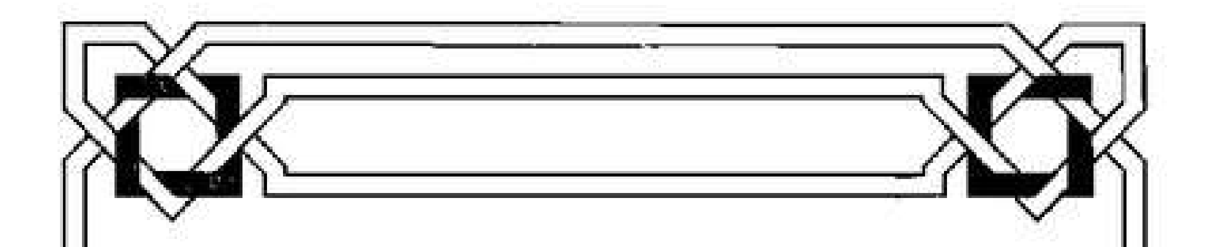
ووجهها لا ينقصُ حسنُه أيضاً ولكن . . . يزولُ .

❑ ❑ ❑

---

(١) المَقْطَبُ: ما بين الحاجبين (ر) .

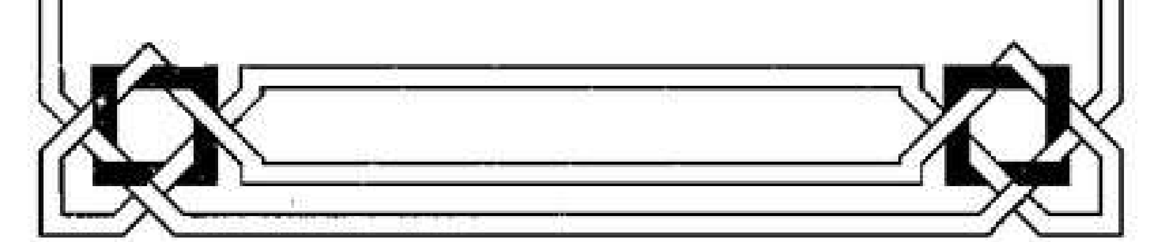
(٢) - من العوائد الغربية شيوعُ الكذبِ والافتراءِ بين الناس في أول شهر أفريل (نيسان) وفي أصل هذه العادة أقوالٌ متضاربةٌ لا يبنى عليها نصٌّ ، وهي في ذاتها من أنواع الجنون ، حتى إنّ الإنكليز يسمّونها جنونَ أفريل ، أو يومَ الجنون ، ويقال: إنّ عند الهنود أصلاً لهذه العادة وذلك أنّهم (يكذبون) في آخر مارس (آذار) ويسمون ذلك اليوم عيد الهيولىٰ ، فكأنّهم أساتذةُ القوم في هذه السخافة (ر) .



الملحق الثالث

قالوا في الرافعي

- تحية للرافعي: للأستاذ منصور فهمي.
- ارتحال الصديق مصطفى صادق الرافعي: للأستاذ إسماعيل مظهر.



تحيـة للرافعي

للأستاذ منصور فهمي[1]

مات مصطفى صادق الرافعي ، وما لقيته إلا مرات قليلة ، قد لا تتجاوز أصابعَ اليد عدّاً ، ولم ترتبط بيني وبينهُ عقدةُ الصداقةِ الخاصةِ التي طالما يكونُ من شأنها أن تؤلّفَ بين قلوب الناس على الأنس والمودة في الحياة ، وطالما يكون من شأنها في الممات أن تؤوي الأسىٰ في القلوب.

على أنه إذا كان قد قلَّ لقائي بالرافعي في الحياة ، ولم تربطني بهِ علاقةٌ وثيقةٌ من حقّها أن تدفعَ القلمَ في سبيلِ الرثاءِ ، فإنَّ في حقِّ الوفاء لما قدَّمَ الرافعيُّ من خيرٍ متّسعاً يفسحُ لقلمي ولغيرِهِ من الأقلام الوفية أن تذكرَ ذلكَ الراحل العظيم.

وعظمةُ الرافعيِّ التي أنوّهُ بها الآنَ على عجل إنّما مرجِعُها اتصاله الوثيقُ بتراثنا الأدبي القديم دونَ غيرِهِ ، فَنَهلَ من شرابِهِ العذبِ ، وتغذّىٰ من خلاصاته القوية الصالحة. فإذا بها تتمثّل في أسلوبه ، وتتغلغلُ في أدبِهِ وتهذيبه ، وتتمازجُ في تفكيرِهِ وتعبيره ، وتندمجُ في تقديره وتدبيره. فاستطاعَ أن يشقَّ للأدبِ القديمِ التليدِ سبيلَه في الأدبِ الحديثِ العتيد.

---

(1) منصور فهمي (١٣٠٣ ـ ١٣٧٨ هـ = ١٨٨٦ ـ ١٩٥٩ م) من آل البقلي المغاربة ، الدكتور ، مفكر مصري من الخطباء ، له علم بالفلسفة والتربية والأدب ، من أعضاء المجامع العلمية العربية الثلاثة ، ولد في شنقاش التابعة لطلخا بمصر ، وتعلم بالمنصورة والقاهرة ، وأرسل في بعثة إلى باريس لدرس الفلسفة (١٩٠٨) وعاد بعد خمس سنوات ، فدّرس في الجامعة المصرية القديمة (١٩١٣) ولم يكمل فيها سنة ، ثم عاد إليها ، وتدرج إلى أن صار عميداً لكلية الآداب ، ثم لدار الكتب المصرية ، فمدير لجامعة الاسكندرية إلى سنة ١٩٤٦ ، وكان كاتب سر المجمع اللغوي المصري من عام ١٩٣٤ إلى آخر حياته ، توفي ودفن في القاهرة ، له كتاب (خطرات نفس).

فأيُّ إنسانٍ يرىٰ في التراث الماضي نُبْلَ هذا التراثِ؛ ولا يألمُ حينَ يفتقدُ حارِساً يقظاً لهذا التراث ، وداعياً لهُ عليماً ، ومعرِّفاً بهِ حكيماً؟

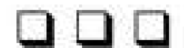
وأيُّ وريثٍ لثقافةِ العرب لا يجزعُ حينَ يموتُ أديبٌ عربيٌّ كبيرٌ ، كان يعرِضُ في أدبِهِ للخَلَفِ جميلَ ما جادَتْ بِهِ نفوسُ السلف؟!

وأيُّ أسفٍ لا يستولي على النفوس بموت الرافعيِّ النابغةِ الأديبِ حينَ يمرُّ على الخاطرِ أنَّ الناسَ قد فُتِنُوا بالحاضر ، فنَسُوا وعَقُّوا محامدَ الغابرِ؟!

وإذا كان من حقِّ الآثارِ الصالحةِ أن تُبْعَثَ مِنْ قبورها ، أفلا يحقُّ على الناس أن يأسفوا على مَنْ كان يَعْمَلُ على نشرها مِنْ مراقدِها؟

وا أسفاً على الرافعيِّ ، ثم أسفاً على الرافعيِّ.

فإلى الأدباء إذن؛ وإلى الشعراء ، وإلى آل الرافعي جميلُ العزاءِ ، وعليهم جميعاً للرافعي الأديب الكبير بعدَ ذلكَ حقُّ الوفاء[1].



(1) الرسالة العدد ٢٠٢ تاريخ ١٧ مايو ١٩٣٧ م ص ٨١٥.

ارتحال الصديق

مصطفى صادق الرافعي

للأستاذ إسماعيل مظهر[1]

لئن لم يكن في موت الرافعي من أثرٍ إلاَّ أن تكونَ فجيعتُنا فيهِ فجيعةَ العربيةِ والعروبةِ ، وفجيعةَ اللغةِ والأدبِ والفنِّ الأسلوبي الأسمى ، بل وفجيعةِ الإسلام ، لكفى بموتِه واعظاً يعظنا ، وذكرى تساورنا عن تلك القرون الماضيات ، التي ارتحل فيها مِنْ أمثاله أقلون ، امتازوا بما امتازَ به من انصقالِ الطبع ، وحميةِ الروح ، وصفاء القلب ، ونقاء النّفْس.

نعم أقلُّون هم أولئك الذين اتصفوا بما أضفتِ الطبيعةُ على الرافعي من صفاتِ اليقظة الحقيقية. فقد كان رحمهُ الله يقظَ النفس ، يقظَ الروح ، يقظَ الفؤاد. فأكسبتهُ يقظةُ نفسِهِ قوةَ الإيمان، واكسبتْهُ يقظةُ روحِهِ قوةَ العمل، واكسبتْهُ يقظةُ فؤادِه قوةَ الحريةِ والصراحةِ.

فقد عاش رحمهُ الله مؤمناً عاملاً، حرّاً مستقلاً، ما أضناه حُبُّ الجاه الكاذب يوماً فأرغمهُ على أن يلوذَ بأذيالِ عظيمٍ ، أو يداجي ابتغاءَ مرضاةِ إنسانٍ. بل عاشَ

---

(١) إسماعيل مظهر بن محمد بن عبد المجيد بن إسماعيل (١٣٠٨ ـ ١٣٨١ هـ = ١٨٩١ ـ ١٩٦٢ م) ، باحث مصري من علماء الكتاب ، ومن أعضاء المجمع اللغوي المصري. انتسب إلى الحزب الوطني ، درس في جامعة لندن وأكسفورد ، أصدر مجلة «العصور» سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٣١ ، ورأس تحرير مجلة «المقتطف» ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ، وأبرز آثاره: «معجم مظهر الأنسيكلوبيدي» ، «قاموس النهضة» ، «مصر من قيصرية إلى الإسكندر المقدوني» ، «معضلات المدنية الحديثة» ، «المرأة في عصر الديمقراطية» ، «فلسفة اللذة والألم» و«معجم الثدييات» ، وغيرها.

لنفسِهِ ولإيمانه ولحريته ، فكانَ المثلَ الأعلى في زمانٍ قلّتْ فيهِ المُثُل ، وكثرتْ المُثلات.

لا يعنينا من أمرِ الرافعيّ ـ وقد ارتحلَ عن هذا العلم الفاني ـ أن نصفَهُ ، فنخرجَ منهُ صوراً نحاولُ أن نطبعَها في عقول أهل هذا الزمان ، فإنّ ما بينَ الرافعي وبين الكثيرين من أهل هذا الزمان من فروقٍ تجعلُ طبعَ صورةٍ صحيحةٍ من شخصيتِهِ في عقول الناسِ أمراً عسيراً. فلا أحاول هذا أذن الآن ، بل أحاولُ أن أقضي حَقَّ صديقٍ رحلَ ، فأقولُ فيه ما أعتقدُ أنّهُ الحقّ ، وأنْ أُلِمّ بمجملٍ ما تركتْ صداقتُه في نفسي من آثارٍ ، لعلي لا أخطئُ إذا قلتُ: إنّها آثار باقية ، على قدر ما أشعر في قرارةِ نفسي من ثقةٍ بأنَّ للرافعي في نفسي آثاراً تتناولُ نواحيَ شتى.

فلقد كان لذلك الراحل الكريم شخاصةٌ تشيعُ آثارها في نفسِكَ شيوعَ الكهرباء في المادّةِ الجامدة ، فتكسِبُها معنًى جديداً هو معنى القوة تغمرُكَ ، ثم لا تتبدَّدُ.

كنت أشعرُ بأنّي إلى جانب الرافعيّ في رحابةِ صديقٍ خالصِ الودّ ، زكيّ القلبِ ، نقيّ السريرةِ ، بعيد عن أن يفكّر في أن يستغلَّ صداقتك إلاّ للصداقة ، فإنْ غَضِبَ فللصداقةِ ، وإنْ عَتِبَ فللصداقةِ ، وإنْ قَطَعَكَ فللصداقةِ أيضاً. فكانتِ الصداقةُ عندَه معنىً يتمثله في شخصِكَ ، راجياً أن يصدقَ حدسُه فيكَ ، فتكونَ الجديرَ بتمثيلِ هذا المعنى السامي ، الذي تحيّزَ في خيالِهِ حتّى كادَ يتجسّمُ ، وأكنَّهُ في قلبه حتى كادَ يضيقُ بِهِ ، فإن تنفّسَ عن شيءٍ فعن كُلِّ ما يزيدُكَ ثقةً بأنّهُ صديقٌ.

كنتُ أستشمُّ ريحَ الإيمان الطاهرِ منبعثاً عن نفسِهِ الطاهرة. ما كان يعنيني من أمرِ إيمانِهِ من شيءٍ إلاّ أنّهُ إيمانٌ. **إيمانٌ ثابتٌ حتى في الأشياء التي كانت تخالِفُ مذهبَه في الأدب ، أو مذهبَه في الدِّينِ ، طالما اعتقدَ أنّك إنْ خالفتَه في شيءٍ فإنّما تخالِفُه فيه عن إيمانٍ يشبهُ إيمانه فيما يعتقِدُ بِهِ. ولعمري إنّ هذا لأسمى الإيمان ، وأرقى مراتبِ الحريّةِ الصحيحةِ.**

أهدى إليّ رحمه الله يوماً كتابَه «إعجاز القرآن» وكنتُ أُصْدِرُ «العصور» ، فعقدتُ فصلاً في معنى الإعجاز ، تعليقاً على رأيه فيهِ ، ذهبتُ فيهِ مذهباً لا يتّفقُ في شيءٍ مع رأيه ، بل ولا يلتقي بِهِ في ناحيةٍ من النواحي ، بل إنّي لأذكرُ أني تشدَّدتُ بعضَ الشيءِ ، وهاجمتُهُ في مواطن ، وكنتُ إذ ذاكَ حديثَ العلاقةِ بالرافعي ، وقد تبادرَ إليّ أنّ ما أنشرُ إنما يفقدُني علاقتي برجلٍ أعتقدُ أنّه عظيمٌ.

ولكنَّ الصديقَ الراحلَ رحمهُ الله ، تلقَّى ما كتبتُ رَحْبَ الصدرِ ، راضيَ النفسِ ، وتلقاني بذلك البشرِ الطافحِ من أساريرِهِ الواضحةِ المعاني ، قائلاً : إنَّ البئرَ التي انتزحتَ منها أفكارَكَ في الإعجاز لن أشربَ منها . ولكنْ حسبُكَ أنَّكَ انتزحتَ منها مؤمناً بصلاحيةِ مائها .

ومرّتِ الأيامُ فلا ألقاه إلاّ استعجلني ترجمةَ كتابٍ عن عَلَمٍ من أعلام أوربة ، مختاراً في الأكثر الكتبَ التي تدعو إلى حرية الفكر ، وإلى نشر المبادئ العلمية الحديثة ، كأنّهُ كانَ يعتقدُ أنّ الإيمان الصحيحَ لا ينبغي أنْ يقفَ عثرة في سبيل الفكر أيّا كان متجهه ومرماه .

كانَ للرافعيِّ لونٌ من الأدبِ ، لا أختارُ أن أحلِّلَ الصورةَ التي انطبعتْ مِنْهُ في نفسي قبل أنْ أمهّدَ لذلك بشهادةِ عَلَمٍ من أعلام زماننا هذا . فقد كتبَ أستاذنا الكبير أحمد لطفي السيد باشا فصلاً في «الجريدة» ، عندما أصدر الرافعيُّ كتابَهُ «تاريخ آداب العرب» سنة ١٩١٢ جاء فيه :

«قرأنا هذا الجزءَ . فأما نحوُهُ فعليه طابعُ الباكورةِ في بابِهِ ، يدلُّ على أنَّ المؤلِّفَ قد مَلَكَ موضوعَهُ ملكاً تامّاً ، وأخذَ بعدَ ذلك يتصرَّفُ فيه تصرُّفاً حسناً . وليس من السهل أنْ تجتمعَ له الأغراضُ التي بسطها في هذا الجزء الأولِ ، إلاّ بعدَ درسٍ طويلٍ ، وتعبٍ مملٍّ ، لم يتأخَّرْ هو عن وصفِهِ في مقدّمةِ كتابِهِ .

وأمّا أسلوبُ الرافعيِّ في كتابتِهِ فإنهُ سليمٌ من الشوائبِ الأعجميّةِ التي تقعُ لنا في كتاباتنا نحن العربَ المتأخرين . فكأني وأنا أقرؤه أقرأ مِنْ قلمِ المبرِّدِ في استعمالِهِ المساواةَ ، وإلباسَ المعاني ألفاظاً سابغةً مفصّلةً عليها ، لا طويلةً تتعثَّرُ فيها ، ولا قصيرةً عن مداها تودي ببعضِ أجزائها . وإنَّ هذا الجزءَ ، بل هذه المقدمةَ ، تدلُّ على أنَّ المؤلِّفَ سيخرجُ لنا من تاريخ آدابِ العربِ ما يجمَعُ شملَها بعدَ التشتتِ في كتبٍ متعدِّدَةٍ ، ويكونُ بذلكَ قد أدّى للأمةِ أعظمَ خدمةٍ يؤدِّيها أشدُّ الأدباءِ غَيْرَةً على الأدبِ» . . . .

إذن فقد لمح أستاذُنا الكبير في الرافعيِّ ما لمحَ فيه كُلُّ عارفيه . لمحَ فيهِ سلامةَ الأسلوب من الشوائب الأعجمية ، ولمحَ فيهِ إيمانَه بآداب العرب ، تلك التي أرصد نفسَه لخدمتها ، خدمةً لن يؤدِّيها إلاّ أشدُّ الأدباءِ غَيْرَةً على الأدب .

كان ذلكَ في عصرٍ لم تغزُنا فيهِ بعدُ الأساليبُ التي شابتها شوائبُ الأعجمية (لا رحمها الله) ولم يضعفْ إيمانُنا بآدابِ العربِ ، ولم نتبدَّلْ من ثقافتنا التقليديةِ ثقافةً دخيلةً مترجرجةً كالزئبق ، مرتجةً كالجدار الذي يريدُ أن ينقضَّ ، وكان الرافعيُّ يحاوِلُ أن يقيمَهُ .

كان ذلك في عصرٍ اعتقدَ فيه الأُدباء أنَّ العربيةَ وآدابَها أصلٌ تقليدي ، ما ينبغي إلاّ أنْ يكونَ أساسَ الأدبِ الحديثِ ، وأنَّ الأدبَ الغربيَّ ليس إلاّ لقاحاً يغذّي ذلك الأصلِ . لم نكنْ قد اعتقدنا بعدُ ، عن خطأٍ وإسرافٍ ، أنّ أدبَ الغربِ ينبغي أن يُتَّخَذَ أساساً ، وأنَّ اللغةَ العربيةَ ليست إلاّ أداةَ التعبيرِ عنه . ولم نكنْ قد أسمينا هذا الإسرافَ تجديداً ، ولم نكنْ أضفينا على الذين يحافظون على الأسلوب العربيِّ الصميمِ ، ويحاذِرونَ أن يشوبَ هذا الأسلوبَ شيءٌ من شوائبِ الأعجمية ، لقب المقلِّدِين (الكلاسيك) لا لنكرِّمَ فيهم هذه النزعة ، وإنّما لنتخذَها سبباً للسخرية منهم ، والاستهزاءِ بهم ، ولم تكن نابتةُ الأدباءِ إذ ذاك قد تردَّوْا في «الاستغراب» حتى انبتَّتْ بهم الصلةُ أو كادت ، بأدبِ أوائلهم وأساليبهم ، ولم نكن قد فُتِنَّا بعدُ ، وكفى بالفتنةِ صدعاً نخشى أن نعجزَ عن رأْبِهِ .

كان ذلك في زمانٍ قادتِ الأدبَ فيه عقولٌ رشيدةٌ متزنة ، وكان الأدبُ بمعزل عن السياسةِ ، وعن حُبِّ التظاهرِ الكاذبِ ، وعن حُبِّ المادةِ حبّاً أفقدَ الأدبَ في عصرنا صفةَ الاستقلال عن الأرضيات السُّفْلى .

كان ذلك في عصر مَجْدِ الرافعيِّ ، لأنَّ الرافعيَّ حاول أن يحييَ مواتَ الأساليبِ المنتقاةِ ، وأن يجمعَ ما تشتَّتَ من آدابِ العرب . كان ذلك في عصرٍ لم يرَ أدباؤه في إحياء لفظةٍ عربية غريبة إلاّ انتصاراً للأدب وللعربية .

كان ذلك في عصر قال فيه أستاذُنا أحمد لطفي السيد باشا ما معناه : «لئن مجَّدَ الإنكليزُ شكسبير ، لأنّه أحيا من مواتِ اللغة الإنكليزية آلافاً من الألفاظِ المهجورةِ ، فالأجدرُ بنا ونحنُ في مستهلِّ حياةٍ جديدةٍ ألا نكونَ أقلَّ منهم تمجيداً لمن يحيي مِنْ مواتِ لغتنا ما أماتَ الإغفالُ . هنالك في ذلك العهدُ عُرِفَ أدبُ الرافعيِّ ومجْدُهُ» .

فلما أظلنا عصرُ الانتحالِ ، انتحالِ الأساليب الغربيةِ ، وانتحالِ الآدابِ

الغربيةِ ، وطغتِ الفتنةُ ، كافحَ أدبُ الرافعيِّ مدَّ الفتنةِ الجديدةِ كفاحاً سوف نجدُ أثره في تاريخ عصرنا هذا.

لهذا كانَ الرافعيُّ صاحبَ مذهبٍ في الأدبِ هو من حيثُ الأسلوبِ والبيانِ المذهبُ الذي ينبغي أن يسترشِدَ بهِ نابتةُ الأدباءِ في هذا العصر ، ليكونَ أداتَهم السليمةَ في التعبيرِ عن أدبهم الجديد.

ولا شكَّ عندي في أنّ الأدب الجديدَ إن اتَّخَذَ من الأساليبَ السليمةَ أداةً للتعبير ، لاستطاعَ أن يؤدّي رسالةً جديدةً للعربيةِ ، ممّا يحولُ دونَ أدائها الآن إلاّ عجمةُ الأساليبِ ، وقد خلت مِنْ جمالِ السَّبْكِ ، وقوةِ البيانِ ، فشوّهتْ من جمالِ ما نقلنا عن الغربِ ، وصدّت نفسُ الأديبِ عن تذوُّق ما فيها من جمالِ الفكرِ.

أجدِّد للرافعيِّ وقد ارتحلَ ، بهذه الكلمات عهدَ الوفاءِ ، جزاءَ ما غمرنا بهِ في حياتِه من صداقةٍ خالصةٍ ، وإيمانٍ ثابتٍ ، وحُبٍّ ما تزولُ ذكراه.[1]

❑ ❑ ❑

---

(١) المقتطف السنة ٩١ ـ الجزء الأول يونيه ١٩٣٧ م ، ص ٢٠ ـ ٢٢.

الفهارس العامة

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

* * *

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية

* * *

٣ ـ فهرس القوافي

* قافية الشين المعجمة المضمومة

إني لأعجب	يعيش	الكامل	١	عنترة بن شداد	٤٨

* قافية العين المهملة

العين المضمومة

فإنك كالليل	واسع	الطويل	١	النابغة	٦٥
ذكرتك	صديع	الطويل	٤	الرافعي	١٠٦
لا الصبر	الفزع	البسيط	٤٢	الرافعي	١٧٥
والنفس	تقنع	الكامل	١	أبو ذؤيب الهذلي	٦٥

العين المكسورة

إنّ ذاك	شرائعها	مجزوء المديد	٣	الرافعي	١٣٩
يا حمى ليلي	مطلع	الرمل	١٧	الرافعي	١١٦

* قافية الفاء

الفاء المضمومة

يا صخرة	ينعطف	البسيط	١٣	الرافعي	١١٢
لا يعرف	فيعرفه	المنسرح	١	ابن الرومي	٤٠

الفاء المكسورة

لمصطفى	يصافيه	البسيط	٢	البارودي	٩

* قافية القاف

القاف المضمومة

أرقتُ	معشّق	الطويل	١	الأعشى	٧٠

* قافية الميم

الميم المضمومة

الميم المفتوحة

الميم المكسورة

الميم الساكنة

* قافية النون

النون المضمومة

النون المفتوحة

النون المكسورة

النون الساكنة

الياء المثناة التحتية المفتوحة

* قافية الألف اللينة

* * *

٤ ـ فهرس الأعلام والقبائل والأقوام

* * *

٥ ـ فهرس الأماكن والبلدان

* * *

٦ ـ فهرس الكتب والصحف

* * *

أسماء الكتب التي تشرفت بخدمتها والعناية بها
حسب تاريخ صدورها

١ ـ نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة.

تأليف: أحمد تيمور باشا، عن دار القادري بدمشق، ط ١: ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.

٢ ـ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول.

تأليف: ابن قيم الجوزية، عن دار القادري، ط ١: ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠م.

٣ ـ النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة.

تأليف: مصطفى صبري، عن دار القادري ط ١: ١٤١١ هـ = ١٩٩١م.

٤ ـ الأسماء والصفات نقلاً وعقلاً.

تأليف: محمد الأمين الجكني الشنقيطي، عن دار القادري، ط ١: ١٤١١ هـ = ١٩٩١م، ط ٢: ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧م.

٥ ـ محمد رسول الله: مدخل إلى السيرة النبوية.

تأليف الدكتور محمد أحمد الغمراوي، عن دار القادري، ط ١: ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.

٦ ـ قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب.

تأليف: مصطفى صبري، عن دار القادري، ط ١: ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.

٧ ـ الدين والوحي والإسلام.

تأليف: مصطفى عبد الرازق، عن دار القادري ط ١: ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.

٨ ـ هياكل النور.

تأليف: يحيى بن حبش السهروردي، عن دار الهجرة بدمشق، ط ١: ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.

٩ ـ ملحة الاعتقاد.

تأليف: العز بن عبد السلام السلمي، عن دار القادري، ط ١: ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.

١٠ ـ الربا في منظور التشريع الإسلامي.

تأليف: الدكتور محمد عبد الله دراز، عن دار القادري، ط ١: ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م.

١١ ـ تفسير آيات الأحكام.

تأليف: السايس وزميليه، عن دار ابن كثير ودار القادري ط ١: ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤م.

١٢ ـ شرح فتوح الغيب.

تأليف: عبد القادر الجيلاني، عن دار القادري، ط ١: ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥م.

١٣ ـ جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب.

تأليف: محمد جمال الدين القاسمي، عن دار ابن كثير ودار القادري، ط ١: ١٤١٧ هـ = ١٩٩٦م.

١٤ ـ الأربعون النووية.

تأليف: الإمام النووي، من دار الفجر بدمشق، ط ١: ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م، ط ٢: ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م.

١٥ ـ كتاب الصدق .

تأليف : أبي سعيد الخزاز ، عن دار القادري ، ط ١ : ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧م .

١٦ ـ عمدة التحقيق في أحكام التقليد والتلفيق .

تأليف : محمد سعيد الباني ، عن دار القادري ، ط ١ : ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧م .

١٧ ـ الشام قبل مئة عام ، أو رحلة الإمبراطور غليوم الثاني امبراطور ألمانية وقرينته إلى فلسطين وسورية .

تأليف : خليل سركيس ، عن دار القادري ، ط ١ : ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧م .

١٨ ـ من سير الخالدين بأقلامهم : أحمد شوقي ، محمد البشير الإبراهيمي ، محب الدين الخطيب .

جمع وإعداد : حسن السماحي سويدان ، عن دار القادري ، ط ١ : ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م .

١٩ ـ كشف الغمة في مدح سيد الأمة محمد ﷺ .

تأليف : محمود سامي البارودي ، عن دار القادري ط ١ : ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م .

٢٠ ـ تحقيق معنى السنة وبيان الحاجة إليها .

تأليف : السيد سليمان الندوي ، عن دار الفجر ، ط ١ : ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

٢١ ـ المنهج الأتم في تبويب الحكم .

تأليف : المتقي الهندي ، عن دار القادري ، ط ١ : ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .

٢٢ ـ الحكم العطائية والمناجاة الإلهية .

تأليف : ابن عطاء الله السكندري ، عن دار ابن القيم بدمشق ، ط ١ : ١٤١٩ هـ = ١٩٩٩ م .

٢٣ ـ قصص من التاريخ .

تأليف : مصطفى صادق الرافعي ، عن دار ابن كثير بدمشق ، ط ١ : ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م .

٢٤ ـ علماء الشام كما عرفتهم .

تأليف : محمد سعيد الباني ، عن دار القادري ، ط ١ : ١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩م .

٢٥ ـ الأجوبة الجلية عن الأسئلة الدينية .

تأليف : الجرداني ، عن دار الفجر ، ط ١ : ١٤٢٠ هـ = ٢٠٠٠ م .

٢٦ ـ أدب الطلب ومنتهى الأرب .

تأليف : الإمام الشوكاني ، بالاشتراك مع الأستاذ يوسف بدوي ، عن اليمامة بدمشق ، ط ١ : ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م .

٢٧ ـ على السفود .

تأليف : مصطفى صادق الرافعي ، عن دار البشائر بدمشق ، ط ١ : ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م .

٢٨ ـ بداية الهداية .

الإمام الغزالي ، عن دار الفجر ، ط ١ : ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م .

٢٩ ـ الجوهرة في قواعد العقائد .

تأليف : طاهر الجزائري ، عن دار القلم بدمشق ، ط ١ : ١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠م .

٣٠ ـ تاريخ الدولة العثمانية .

تأليف : شكيب أرسلان ، عن دار ابن كثير ، ط ١ : ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١م .

٣١ ـ بدائع الحكم من وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي.

تأليف: حسن السماحي سويدان، عن دار القلم، ط ١: ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١م.

٣٢ ـ حديث الروح (شعر).

تأليف: محمد إقبال، عن دار القلم، ط ١: ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١م.

٣٣ ـ كتاب المقاصد في بيان العقائد وأصول الأحكام وأحكام العبادات وآداب الإسلام.

تأليف: الإمام النووي، عن دار الفجر، ط١: ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

٣٤ ـ كلمة وكليمة.

تأليف: مصطفى صادق الرافعي، عن دار ابن كثير، ط ١: ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

٣٥ ـ أبو الهدى الصيادي في آثار معاصريه.

تأليف: حسن السماحي سويدان، عن دار البشائر، ط ١: ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣م.

٣٦ ـ الرهص والوقص لمستحل الرقص.

تأليف: إبراهيم الحلبي، عن دار البشائر، ط ١: ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣م.

٣٧ ـ دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

تأليف: الحافظ القضاعي، عن دار القلم، ط ١: ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٨ ـ لماذا تخلف المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟

تأليف: شكيب أرسلان، عن دار القلم بدمشق، ط ١: ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤م.

٣٩ ـ قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة.

تأليف: أحمد زروق، بالاشتراك مع الأستاذ عثمان الحويمدي، عن دار وحي القلم بدمشق، ط ١: ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤م.

٤٠ ـ صيد الخاطر.

تأليف: ابن الجوزي، عن دار القلم، ط ١: ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤م.

٤١ ـ العقيدة الإسلامية على طريقة القرآن الكريم.

تأليف: محمد أحمد العدوي، عن دار القادري، ط ١: ١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦م.

٤٢ ـ الرحلة الحجازية المسماة: الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف.

تأليف: شكيب أرسلان، عن دار النوادر بدمشق، ط١: ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧م.

٤٣ ـ رسالة في بيان الكتب التي يعول عليها وبيان طبقات علماء المذهب الحنفي والرد على ابن كمال باشا.

تأليف: محمد بخيت المطيعي، عن دار القادري، ط١: ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م.

٤٤ ـ التعليم والإرشاد.

تأليف: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، عن دار القادري، ط ١: ١٤٢٩ هـ = ٢٠٠٨م.

٤٥ ـ ديوان النظرات.

تأليف: مصطفى صادق الرافعي، عن دار القادري، ط ١: ١٤٣٠ هـ = ٢٠٠٩م.